

راي برادبري

فهرنهايت ٤٥١

رواية

دار الشروق

فهرنهایت ۴۵۱

الطبعة الأولى ٢٠٠٩
رقم الإيداع ١٦٠٠٦/٢٠٠٨

ISBN 978-977-09-2498-4

© دار الشروق
٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢) +
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

راي برادبري

فهرنهايت ٤٥١

رواية

ترجمة

ماجدة منصور حسب النبي

دار الشروق

فى البداية...

انهالت الكتب على كتفي «مونتاج» على ذراعيه، وعلى وجهه الناظر إلى أعلى. سقط أحد الكتب في يديه مستسلمًا كحمامة بيضاء يرفرف جناحاها. وفي الضوء الخافت المتقطع، انفتحت صفحة من الكتاب، وبدت الكلمات بداخلها وقد نُقشَت بعناية، وكأنها ريشة بديعة سقطت في الجليد. لم يتسعَ الوقت لقراءة أكثر من سطر واحد، سطر قرأه في لحظة، لكنه توهج على الورق وكأنه محفور بالصلب الناري.

قبضت يد «مونتاج» على الكتاب وكأنها فم يَعَضُّ، سحب الكتاب إلى صدره في وَلَهٍ عنيف... في جنون توقُّف عقله عن العمل.

لم يفعل «مونتاج» شيئًا. وإنما فعلت يده كل شيء. يده بعقل مستقل.. بضمير خاص بها.. بالفضول يرتعش في كل إصبع، تحولت إلى لص.

عرف «مونتاج» أن مافعلته يده هو الجنون بعينه... هو الانتحار... لكنها كانت البداية!

فلتقرأوا صفحاتي
مقدمة جديدة للطبعة العربية

إلى قرائي المصريين

إن سألتموني سوف أفتح ذراعي كي تستطيعوا أن تقلبوا صفحات روحي. فهكذا أصبحت. . . كتابًا. فأنا لست نتاج التعليم الجامعي أو المدرسي، على يد هذا الأستاذ، أوذلك المعلم داخل الفصل. لكنني قد تعلمت في المكتبة حيث كنت أجلس في منتصف قاعة، وأترك صفحات تلك الكتب التي ألفها كتابي المفضلون تدخل إلى قلبي وتغوص بداخلي. لقد بدأت في سن مبكرة، عندما كان عمري سبع أو ثمان سنوات وأصبحت المكتبة هي بيتي. كلما فتحت الباب لأدخل إليها مساء كل اثنين. . . كانت الكتب تغمرني بالكلمات، وكنت أشعر بالبهجة وأنا أشعر بحركة أجنحتها وكأنها سرب من الطيور يحلق في الهواء ثم يهبط على كتفي.

وهكذا عبر السنين، لم أتلق تعليمي بالذهاب إلى المدرسة، فأنا كنت أعرف جيداً أن المكتبة لا المدرسة هي التي تملك أن تعلمني، وأنني إذا جلست في منتصف القاعة وتركت الكتب تغمرني عاماً بعد عام، سوف أصبح كاتبًا.

أنا عاشق للمكتبات، بالأمس واليوم وإلى الأبد. ولكم أن تتخيلوا مشاعري حين كان عمري خمسة عشر عامًا، وسمعت بحرق الكتب في

برلين، بل وحين علمت بحرق الكتب في الإسكندرية قبل ذلك بخمسة آلاف عام. كاد ذلك أن يقتلني. بكيت لأنني تخيلت المقالات الرائعة، والقصائد، والمسرحيات، والأفكار، والفلسفات التي كتبها هؤلاء القدامى وقد ضاعت إلى الأبد، أكلتها النيران ودمرتها إلى غير رجعة.

يالها من مكافأة لذلك الصبي الذي أصبح رجلاً أن تتاح له الفرصة كي يزور تلك المدينة التي بكت من أجلها روحه عندما سمع بحرق الكتب فيها منذ آلاف السنين.

ياله من أمر هين أن أكتب هذه المقدمة، لأنني أشعر بالفعل أن المكتبات لها نفس أهمية المعلمين - إن لم تكن أكثر أهمية. فالمعلم يمنح الطالب الرغبة في التعلم، أما المكتبات فهي التي تشبع تلك الرغبة.

ولهذا علينا أن نخرج من الفصول، وندخل إلى المكتبات. وليفتح كل منا ذراعيه ويترك المكتبة تسكن روحه... صفحة تلو الأخرى وسطراً بعد آخر.

هاأنا اليوم أكتب هذه المقدمة كي أرحب بكم في كتابي، وأقول لكم: هذه الرواية كتبها صبي أصبح رجلاً تألفت روحه من صفحات وصفحات. فافتحوا ذراعي وفضوا غلافي كي تتصفحوني. سوف تجدوا أنني ديكنز، وه. . ويلز، وولز رن وآخرون غيرهم من كتاب التاريخ العباقرة الذين عاشوا منذ آلاف السنين.

أنا كتاب. أنا عاشق للكتب، أرحب بكم في ذلك الميلاد الجديد الذي تمنحه لنا المكتبات. إنه لشرف عظيم أن أكون معكم اليوم وأن أرحب بكم بذراعين مفتوحين، وأن أعرض عليكم صفحات روحي.

راي برادبري
لوس أنجلوس ٢٠٠٧

هذا الكتاب أهديه بكل الشكر

لدون كونجدون

إذا أعطوك ورقًا مسطرًا بالعرض اكتب بالطول

خوان رامون خيمينيز

الجزء الأول

المدفأة والسمندر(*)

يسعدني أن أحرق.

كانت هناك متعة خاصة في رؤية الأشياء تأكلها النيران، يَسْوَدُّ لونها وتتحول. بدا وهو يقبض على الفوهة النحاسية بكلتا يديه وكأنه يقبض على ثعبان عملاق ينفث الكيروسين السام على العالم. أحس بالدماء تخفق بقوة في رأسه، وشعر أن يديه هي يد مايسترو ساحر يقدم كل سيمفونيات النار، والحريق التي تنتهي إلى أسمال، وأنقاض التاريخ وقد تفحمت تمامًا.

استقرت فوق رأسه المُتلبِّد الخوذة رقم ٤٥١ التي لا تخلو من مغزى، واشتعلت عيناه بضوء برتقالي بينما كان يفكر في الخطوة التالية. وفي لحظة ضغط على زر الولاعة فإذا بالمنزل يثب وسط نيران نَهِمة أحرقت سماء الغروب وجعلت لونها أحمر و أصفر وأسود. مَشى بخطى واسعة وسط الشرر المتطاير الذي بدا وكأنه جيش من حشرات بديعة تلمع في الظلام. وتمنى - كما يقولون في النكات - أن

(*) طائر أسطوري يحكى أنه يشعل في نفسه النيران مرة كل ٥٠٠ عام، ليحترق تمامًا، ثم يبعث حيًا من تحت الرماد. (المترجمة).

يشوي حلوى «المارشميلو» على النار بينما كانت أوراق الكتب ترفرف كأجنحة الحمام قبل أن تسكن تمامًا على العشب الأخضر في مدخل المنزل.

كانت الكتب تطير إلى أعلى في دوّامات تحملها رياح اسودّ لونها بفعل الحريق. تقلصت عضلات وجهه فيمًا يشبه الابتسامة إلا أنها كانت ابتسامة شرسة بفعل سفعة اللهب وضرورة الابتعاد عن النيران.

كان يعلم أنه عندما يعود إلى المطافئ فسوف ينظر لنفسه في المرآة، ثم يبتسم ابتسامة النصر ويرى ما قام به كفتح تاريخي عظيم.

وأخيراً، عندما يذهب إلى سريره لينام، يشعر في ظلام الليل بأن عضلات وجهه لا تزال ممسكة بتلك الابتسامة النارية التي لم تفارقه قطّ منذ زمن بعيد.

علّق «مونتاج» خوذته السوداء في لون الخنفساء وأخذ يُلَمِّعُها، ثم علّق سترته الواقية من النيران بعناية. استحم بعد ذلك في ترف ووفرة ثم خرج منتشيًا يصفر ويداه في جيبيه. مشى عبر الطابق الأعلى من المطافئ لينزل من الحفرة. وفي اللحظة الأخيرة، وعندما بدت الكارثة على وشك الحدوث، أخرج يديه من جيبيه وأمسك بالحبل الذهبي، تزحلق مُصْدراً صوتًا ليصبح كَعْبَاه على بُعد بوصة واحدة من الأرض الأسمنتية أسفَله.

مشى خارج المطافئ في منتصف الليل متجهًا إلى مترو الأنفاق حيث القطارات الصامتة الطائرة تنطلق بلا صوت تحت الأرض داخل ممرات اسطوانية تم تشحيمها جيداً. يحمله أحد هذه القطارات في هدوء ومعه هبّة من هواء ساخن إلى مصعد لامعٍ مبطن بالسيراميك يُفْضى إلى ضاحية المدينة.

وبينما كان يسير على ضوء النجوم تجاه منزله في الليالي القليلة الماضية شعورٌ، كان شعورٌ غامضٌ قد بدأ يساوره وهو يمشي على الرصيف قبل الزاوية تمامًا. كان يشعُر أن شخصًا ما يقف ثم يختفي قبل أن ينعطف هو حول الزاوية بدقيقة واحدة. فالهواء كان مُعَبَّأ بهدوء خاص، وكان هذا الشخص ينتظر في صمت ثم يختفي قبل قدومه بدقيقة واحدة ويتحول إلى طيف يمكن المرور من خلاله. قد تكون أنفه قد التقطت عطرًا خافتًا، وربما استشعر الجلد على ظهر يديه وعلى وجهه ارتفاع درجة حرارة الجو في تلك البقعة. ربما وقف فيها شخص ما فرفع درجة الحرارة عشر درجات في لحظة واحدة قبل أن يختفي. لم يستطع أن يفهم ما يحدث. في كل مرة ينعطف حول الزاوية لا يرى إلا رصيفًا مهجورًا أبيض ملتويًا. ربما في إحدى الليالي كان هناك طيف يتلاشى بسرعة تجاه أحد البيوت قبل أن يتمكن من النطق أو حتى من تركيز عينيه. لكن الأمر في هذه الليلة كان مختلفًا: أبطأ حتى توقف عن السير. وبينما سبقه عقله الباطن، وانعطف قبله حول الزاوية، سمع همسًا خافتًا. هل هو صوت تَنَفُّس؟ أم أن الجو مشحون بوجود شخص ما يقف ساكنًا ينتظر؟ انعطف حولَ الزاوية.

كان الفصل خريفًا، وكانت أوراق الشجر تحتضر فوق الرصيف المضاء بنور القمر، مما جعل الفتاة التي تمشي فوقه مضطرة إلى التزحلق، وقد تركت الرياح، وأوراق الشجر تحملها إلى الأمام. نكَّست الفتاة رأسها إلى أسفل قليلاً لتتابع حذاءها وهو يحرك أوراق الشجر الملتوية. كان وجهها رشيقًا، لونه أبيض كاللبن وبه نوع من النَّهَم المهذَّب الذي يعكس فضولاً لا يهدأ في التعامل مع كل شيء... ربما كان مظهرها يعكس إحساسًا بالدهشة الباهتة، فالعينان السوداوان تركزان على العالم بحيث لا تفوتهما أي حركة مهما كانت بسيطة.

كان فستانها الأبيض يهمس. وأحس «مونتاج» أنه يسمع صوت ذراعيها تتحركان وهي تمشي، بل سمع الآن الصوت المتناهي في الانخفاض الصادر عن التفَاتَة رأسها عندما نظرت إليه. بعد أن اكتشفت أنها على بعد دقيقةَ من رجل يقف في منتصف الرصيف. . . ينتظر.

كانت الأشجار من فوق رأسيهما تصدر صوتًا رائعًا، وهي تغمرهما بسيل من الأوراق الجافة. توقفت الفتاة وبدت وكأنها سوف تتراجع بفعل المفاجأة، إلا أنها لم تفعل، وإنما ظلت تنظر «لمونتاج» بعينين سوداوين لامعتين ممتلئتين بالحياة، درجة أنه تصور أنها مبهورة بما قاله. ثم تذكر أنه لم يقل أكثر من «مساء الخير». وعندما لاحظ أنها تسمرت عند رؤية السمندر على ذراعه والعنقاء على صدره، تكلم مرة أخرى:

«أنت بالطبع جارتنا الجديدة، أليس كذلك؟».

أجابت وهي تحول عينيها عن العلامات الدالة على وظيفته: «وأنت بالتأكيد رجل الإطفاء». كاد صوتها يتلاشى. «كم تبدو وظيفتي غريبة وأنا أسمع اسمها منك الآن».

قالت ببطء: «كان بوسعي أن. . . أن أعرف وظيفتك و عيناي مغمضتان». سألها: كيف؟ من رائحة الكيروسين؟ ثم قال ضاحكًا: «زوجتي دائمة الشكوى من هذه الرائحة. فمن المستحيل أن تتخلصي منها تمامًا».

قالت في خجل: «فعلاً، من الصعب جدًا التخلص منها».

أحس أنها تحيط به من كل جانب وتقلبه على كل الوجوه وتهزه برفق وتفرغ ما في جيوبه دون أن تتحرك حركة واحدة.

قال محاولاً أن يقطع الصمت الذي طال: «رائحة الكيروسين بالنسبة لي كرائحة العطر».

ـ «هل هي حقًا كذلك؟».

ـ «طبعًا، ولِمَ لا؟».

توقفت لتفكر قليلاً ثم قالت: «ربما!».

استدارت ناحية الرصيف المفضي إلى منزلهم ثم قالت فجأة:

«هل يضايقك إذا مشيت بجوارك إلى المنزل؟ اسمي كلاريس ماكليلان: «كلاريس أنا «جاي مونتاج». تفضلي. ولكن ماذا تفعلين في الطريق في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ كم عمرك؟».

مشيا معًا في ذلك البرد الدافئ على الرصيف الفضي. وبرغم أن الهواء كان معطرًا برائحة خفيفة لبشائر الخوخ والفراولة، فإنه نظر حوله وأدرك أن شجر الخوخ والفراولة لا يثمران في هذا الوقت المتأخر من العام!!

لم يكن هناك غير تلك الفتاة التي تسير بجانبه الآن بوجهها المضيء كما يضيء الجليد في ضوء القمر. وكان يعلم أنها تفكر في أسئلته جيدًا، وتحاول أن تجد لها أفضل الأجوبة.

«عمري ١٧ عامًا، ومجنونة». عمي يقول: إن الاثنين متلازمان، وينصحني أن أجيب عندما يسألني أحد عن عمري: سبعة عشر ومختلة عقليًا!! أليس هذا وقتًا لطيفًا من الليل للتمشية؟ أنا أحب أن أتنسم العبير، وأنظر إلى الأشياء. أحيانًا أظل أتمشى طوال الليل.. أتمشى ثم أشاهد شروق الشمس.

ظلا يمشيان في صمت وأخيراً قالت بعد تفكير: «هل تعلم أني لست خائفة منك على الإطلاق».

بدت عليه الدهشة: «ولماذا تخافين»؟

أجابت: «كثير من الناس يخافونك. أقصد يخافون رجال الإطفاء. ولكنك في النهاية مجرد رجل. بالرغم من كل شيء».

رأى نفسه في عينيها، وقد تعلق في نقطتين لامعتين من الماء الصافي... بدا صغيراً، وداكن اللون ومكتمل الملامح والتفاصيل... حتى الخطوط حول فمه استطاع أن يراها... كل شيء كان موجوداً، وكأن عينيها قطعتا كهرمان بنفسجي رائق قادرتان على الإمساك به، والاحتفاظ به كاملاً بداخلهما.

بدا وجهها وهي تنظر إليه الآن وكأنه جوهرة بيضاء قابلة للكسر بداخلها ضوء هادئ لا ينطفئ. ضوء ليس كضوء الكهرباء الهيستيري. بل يشبه... ماذا يشبه؟ يشبه نور الشمعة المريح النادر الوجود الذي تظهر على ضوئه الأشياء أجمل وأكثر جاذبية. في يوم من الأيام في طفولته انقطعت الكهرباء فقامت أمه بإشعال آخر شمعة في المنزل ومرت ساعة قصيرة أعاد فيها اكتشاف الأشياء داخل المكان، وأدرك أنها لا تبتعد كثيراً عنه ولا عن بعضها بعضًا، وإنما تقترب وتُحلّق حولهما بشكل مريح. وقتها شعرا ـ هو وأمه ـ بتحول ما طرأ عليهما، وتمنيا لو أن الكهرباء لم تعد بتلك السرعة.

قالت كلاريس ماكليلان: «هل يضايقك إذا سألتك؟ منذ متى وأنت تعمل رجل إطفاء؟».

«منذ أن كان عمري عشرين عامًا، أي منذ عشر سنوات».

«هل قرأت أيًا من الكتب التي قمت بإحراقها؟».

ضحك ثم قال: «هذا مخالف للقانون!».

«آه، بالطبع».

«إنه عمل رائع. يوم الاثنين نحرق مؤلفات ميلي، الأربعاء مؤلفات ويتمان، الجمعة فوكنر. نحوِّل كل شيء إلى رماد، ثم نقوم بإحراق الرماد. هذا هو شعارنا الرسمي».

مشيا لمسافة أبعد ثم سألت الفتاة: «هل صحيح أن مهمة رجل الإطفاء فيما مضى كانت إطفاء النيران وليس إشعالها»؟

«لا، فالمنازل كانت دومًا ضد الحريق. صدقيني».

«غريبة، فقد سمعت أن حوادث كانت تشعل الحرائق في البيوت، وكان أصحابها يحتاجون رجال الإطفاء لإطفائها».

ضحك. نظرت إليه نظرة سريعة وسألته: «ما الذي يضحكك؟».

«لا أعرف» ظل يضحك ثم توقف وقال: «لماذا تسألين؟».

«لأنك تضحك وأنا لم أقل شيئًا مضحكًا، ولأنك تجيب من فورك على أسئلتي دون أن تتوقف لحظة لتفكر في السؤال».

تَوقَّفَ عن المشي: «أنت إنسانة غريبة»، ثم قال وهو ينظر إليها: «ألا تحترمين أحدًا؟».

«لم أقصد الإهانة، ولكني فقط أستمتع بمشاهدة الآخرين.. ربما!».

«حسنًا. ألا تعني هذه الشارة شيئًا بالنسبة لك؟» ثم أشار إلى الرقم ٤٥١ المرسوم بالخيوط على أكمامه السوداء بلون الفحم.

همست «بلى»، ثم أسرعت الخطى وهي تقول: «هل شاهدت سباق السيارات السريعة في هذا الشارع العريض؟».

«أنت تغيرين الموضوع».

«أحيانًا يخيل إليّ أن أي شخص يقود سيارة لا يعرف شكل الحشائش ولا شكل الزهور؛ لأنه لا يهدئ من سرعته أبدًا، وبالتالي فإنه لا يستطيع رؤيتها. ولذا فإنك إن عرضت عليه أي بقعة خضراء اللون، فسوف يقول لك: «أعرف هذه. إنها حشائش»، وإن أعطيته أي بقعة وردية اللون سيقول: «هذه حديقة زهور»، أما أي رقعة بيضاء فهي بالنسبة له بيوت والبنية أبقار. ولكن لا أحد يهدئ من سرعته. تصور، لقد تعرض عمي للسجن ذات يوم؛ لأنه قاد سيارته ببطء في الطريق السريع! كان يسير بسرعة أربعين ميلاً في الساعة، وعوقب بالحبس لمدة يومين. ياله من شيء مضحك و مؤسف في الوقت نفسه!!.

قال «مونتاج» في ضجر «أنت تفكرين في أشياء كثيرة».

«أنا نادرًا ما أجلس لأتأمل الحوائط في الصالون أو أذهب لمشاهدة مباريات السباق ولا الملاهي. ربما لهذا السبب يتسع وقتي للأفكار المجنونة. هل تعرف أن لوحات الإعلانات في الماضي لم يكن عرضها يزيد عن عشرين قدمًا؟ أما الآن ـ حيث إن الناس أصبحت تقود سيارتها بسرعة فائقة ـ فقد اضطروا لتكبيرها حتى يستطيع من في السيارة أن يراها».

ضحك «مونتاج» وهو يقول: «لم أكن أعرف ذلك».

أراهنك أن هناك شيئًا آخر لا تعرفه: «في الصباح، يغطي الندى الحشائش».

حاول جاهداً أن يتذكر إذا كان يعرف ذلك أم لا . لكنه لم يستطع مما جعله متوتراً إلى حد ما .

«وإذا نظرت جيداً إلى القمر» ، أشارت برأسها إلى السماء «فسوف ترى وجه رجل» .

لم يكن قد نظر إلى القمر منذ زمن بعيد .

تمشيا باقي الطريق في هدوء . كان صمتها تأمليًا أما صمته هو فكان توتراً مرهقًا ، فقد أطبق على أسنانه بينما كان يرميها بنظرات لوم متقطعة . وعندما وصل إلى منزلها كانت مصابيح البيت كلها مضاءة . «ماذا يحدث؟» لم يكن «مونتاج» قد رأى كل هذه الإضاءة في منزل من قبل . «لا شيء في الواقع ، مجرد أن أبي وأمي و عمي جالسون يتحدثون . هل حكيت لك أن عمي قد قبض عليه مرة أخرى لأنه كان يتمشى ! نحن حقًا أسرة غريبة !

ـ ولكن عن أي شيء تتحدثون أنت وأسرتك؟

ضحكت ثم قالت : «تصبح على خير» ثم بدأت تمشي على الممر المؤدي إلى منزلها ، ثم عادت مرة أخرى ، وقد بدا أنها تذكرت شيئًا ما فجأة ، نظرت إليه في دهشة وفضول ثم قالت : «هل أنت سعيد؟» .

صرخ في وجهها : «هل أنا ماذا؟» ، ولكنها اختفت في ضوء القمر . وأغلقت باب المنزل الأمامي خلفها في رفق .

ـ سعيد؟ لم يبق إلا هذا الهراء !

توقف عن الضحك . وضع يده في التجويف الخاص في باب المنزل وترك الباب يتعرف على لمسته فانفتح .

«بالطبع أنا سعيد. ماذا تظن هذه الفتاة؟ أني لست سعيدًا؟ كان يكلم الحجرة الساكنة. وقف ينظر إلى القضبان في نافذة الصالة، وفجأة، تذكر أن كائنًا ما كان يقبع مختبئًا خلفها، وشعر أن هذا الكائن يحدق النظر فيه الآن. فحول عينيه بعيدًا وبسرعة.

ياله من لقاء غريب، ويالها من ليلة غريبة! . لم يمر بتجربة مماثلة إلا في إحدى الأمسيات منذ عام عندما التقى برجل عجوز في الحديقة وجلسا يتحدثان.

هز «مونتاج» رأسه ونظر إلى حائط مصمت فرأى وجه الفتاة. . . رائع حقًا حين تستدعيه الذاكرة. مذهل في الحقيقة. وجه رقيق جدًا كأنه قرص ساعة حائط صغيرة: تراها في ظلام الحجرة في منتصف الليل عندما تستيقظ لتعرف الوقت فتجيبك عن الساعات والدقائق والثواني في صمت أبيض اللون، وثقة ساطعة بأن الليل يسير بسرعة وينتقل من ظلمة إلى أخرى أشد سوادًا، لكنه يتجه أيضًا في سيره نحو الشمس.

ماذا؟

سأل «مونتاج» ذلك الشخص الآخر الكائن بداخله. ذلك اللاوعي الأبله الذي يهرول ويهذي أحيانًا مستقلاً عن أي إرادة أو عادة أو ضمير.

نظر مرة أخرى إلى الحائط. وجهها أيضًا شديد الشبه بالمرآة. مستحيل: فكم من الناس لديه هذه القدرة على أن يحلل ما بداخلك؟ فالناس غالبًا ـ أخذ يبحث عن تشبيه ـ كالمصابيح، التي تظل تشع حتى يخبو ضوؤها. فمن النادر جدًا أن تجد وجوهًا تأخذ منك ثم ترد إليك تعبيراتك الخاصة، وأفكارك التي ترتعش في أعماق نفسك.

فيا لها من قوة تَوَحُّد غريبة!! تلك التي تمتلكها هذه الفتاة!! فهي كمن ذهب لمشاهدة أحد عُروض مسرح العرائس، وتحمس بشدة للعرض فكان يسبق بتوقعاته كل ومضة جفن. . . كل حركة يد، بل كل إشارة إصبع من قبل أن تحدث.

منذ متى وهما يتمشيان معاً؟ ثلاث دقائق؟ خمس؟ ولكن كم بدا طويلاً هذا الوقت! وكم بدت هي كممثل عملاق فوق خشبة المسرح. رمى جسمها الرشيق بظل كبير على الحائط. وأحس أن بمقدورها أن ترمش لمجرد أنه شعر بحكة في عينه، وأن تتثاءب لمجرد حركة لا إرادية لفكَّيْه.

وأخذ يتساءل لماذا الآن ـ في اللحظة التي فيها أنشغل بها هكذا ـ تبدو وكأنها تنتظرني هناك في نفس المكان على الطريق في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

فتح باب غرفة النوم، أحس كأنه يدخل قبراً رخاميًا باردًا بعد أن غاب القمر. ظلام دامس، ولا أثر للعالَم الفضيِّ الذي تركه وراءه في الخارج. كانت النوافذ مغلقة بإحكام، وبدتَ الغرفة وكأنها تنتمي إلى عالم القبور الذي لا يمكن للمدينة الكبيرة أن تقتحمه بأصواتها. لم تكن الغرفة خالية.

أرهف السمع، صوت طنين راقص ضعيف كجناح بعوضة. طنين كهربائي لدبور مختبئ في عش وردي دافئ خاص به. كان صوت الموسيقى عاليًا مما مكنه من متابعة اللحن.

شعر أن ابتسامته تنسحب، وتنصهر، وتنكمش كالشحم المأخوذ من جلود الحيوانات عند تسخينه، أو كالشمعة التي احترقت طويلاً فانكفأت على نفسها ثم انطفأت. ظلام. همس لنفسه بكلمات:

لست سعيداً. لست سعيداً. أدرك ذلك كحقيقة مؤكدة. كان يرتدي السعادة كقناع، وقد خطفت الفتاة القناع، وجرت إلى داخل منزلها. ولم تعد هناك وسيلة لاستعادته. فهو لا يستطيع الآن أن يدق بابها يسأل عنه. راح يتخيل شكل الغرفة فرآها دون أن يضيء مصباحًا واحداً. زوجته ممددة على السرير، دون غطاء وتشعر بالبرد. كجسد يظهر من غطاء مقبرة أثرية، عيناها مربوطتان بسقف الغرفة بخيوط غير مرئية من الصلب. ثابتتان.

انحشرت في أذنيها سماعتا الراديو، واستقرتا بإحكام لتستقبلا بحراً من الأصوات، موسيقى وكلام، وموسيقى وكلام تقف على شاطئ عقل لا ينام. كانت الغرفة خالية بالتأكيد. كل ليلة تأتي موجات الأضوات فتحملها مفتوحة العينين نحو الصباح. لم تمر ليلة واحدة خلال العامين أو الثلاثة السابقة دون أن تسبح «ميلدريد» في ذلك البحر، أو دون أن ترحب بأن تترك نفسها وسط أمواجه للمرة الثالثة.

كانت الغرفة باردة، لكنه لم يستطع أن يتنفس. لم يرغب في أن يزيح الستائر أو يفتح النوافذ، لأنه لم يرد أن يدخل القمر إلى الغرفة.

حاول أن يتحسس طريقه نحو السرير البارد المفتوح الخاص به وحده، والذي ـ لهذا السبب ـ هو دائمًا بارد.

شعر بأن قدمه ستصطدم بشيء ما على الأرض، قبل أن يصطدم به بثانية واحدة. كان ذلك يشبه الإحساس الذي راوده قبل أن ينعطف حول الزاوية، حيث كاد اصطدامه بالفتاة أن يطرحها أرضًا. وبينما أرسلت القدم ذبذبات إلى أعلى، تلقت في الوقت نفسه أصداء أصوات صادرة عن ذلك العائق الصغير الذي اعترض طريقها. أصدر ذلك الشيء صوت صلصلة مكتومة، وتدحرج في الظلام.

وقف «مونتاج» منتصبًا وساكنًا، وأرهف السمع ليستمع إلى ذلك الشخص النائم فوق السرير المظلم في تلك الليلة الخالية تمامًا من أي ملامح خاصة. كان صوت الأنفاس الخارجة من الأنف ضعيفًا بدرجة كبيرة. لا يمكن أن تُحَرِّك تلك الأنفاس أية أهداب للحياة، لا ورقة شجر، ولا ريشة سوداء، ولا شعرة رأس وحيدة.

لم يزل رافضًا لأي ضوء من الخارجِ. أخرج ولاَّعتَه، تحسس السمندر المحفور على سطحها الفضيٍّ، ثم ضغط عليه ليشعل نارًا. حجران كريمان نظرا إلى أعلى في ضوء تلك النار اليدوية الصغيرة. حجران كريمان مدفونان في جدول مائي صغير تجري من فوقه الحياة دون أن تلامس الحجرين.

«ميلدريد!».

بدا وجهها كجزيرة غطاها الجليد، قد يسقط عليها المطر لكنه لا يمسها، وقد تغشاها السحب لكنها لا تشعر بظل. لم يكن هناك سوى غناء ذلك الدبور يحشو أذنيها، والزجاج يغطي عينيها، والأنفاس الخافتة تدخل وتخرج في هدوء من أنفها، بينما لا تأبه هي بدخول تلك الأنفاس أو خروجها.

كان ذلك الشيء الذي صدمه بقدمه وتدحرج على أرض الغرفة يلمع تحت حافة سريره. زجاجة الأقراص المنوِّمة التي كان بداخلها في الصباح ثلاثون كبسولة، وهي نفس الزجاجة التي ترقد الآن خالية بلا غطاء تحت ضوء الشعلة الضعيفة.

وبينما كان يقف هكذا، صرخت السماء فوق المنزل صرخة مدوية. سمع صوت تَمَزُّق هائل وكأن يدين عملاقتين مزقتا عشرة آلاف ميلٍ من ثوب أسود مخيَّط من أعلى الخياطة إلى أسفلها. انشطر «مونتاج»

إلى نصفين. شعر كأن صدره يتقطع إلى شرائح منفصلة عن بعضها بعضًا. دوت الطائرات النفاثة واحدة تلو الأخرى، واحدة ثم اثنتان معًا، ثم واحدة، ثم اثنتين، ثم ست طائرات معًا، ثم تسع، ثم اثنتي عشرة. واحدة ثم واحدة، واحدة ثم أخرى، ثم أخرى، ثم أخرى، تولت الطائرات عنه كل الصراخ. فتح فمه وترك الصرخة تدخل ثم تخرج من بين أسنانه. اهتز المنزل. انطفأت الشعلة في يده، واختفت الأحجار الكريمة. شعر بيده تندفع نحو التليفون.

توقفت الطائرات النفاثة. شعر أن شفتيه تتحركان، تلامسان السماعة «الإسعاف؟». همسٌ مرعب.

أحس أن النجوم قد انسحقت تمامًا بفعل تلك الطائرات النفاثة السوداء، وأنه في صباح الغد سوف يرى مسحوق النجوم وقد غطّى الأرض تمامًا كجليد غريب. راودته تلك الأفكار الساذجة وهو يرتعد في الظلام ولا تتوقف شفتاه عن الحركة.

كان لديهم ذلك الجهاز. كان لديهم في الحقيقة جهازان. أحدهما ينزلق داخل معدتك كأنه ثعبان أسود تسلل داخل بئر أجوف باحثًا عن مياه راكدة، أو ذكريات منسية. يمتص هذا الثعبان كل السوائل ذات اللون الأخضر التي تصعد للسطح في فوران بَطيء. هل يقدر على امتصاص الظلمة؟ هل قام بشفط كل السموم التي تراكمت مع السنين؟ ظل ذلك الثعبان يأكل في صمت، حشرجة يتبعها بحث دائب في الظلام. كان للثعبان عين. يستطيع الفني ـ الخالي من أي مشاعر، والذي يقوم بتشغيل الجهاز ـ أن يرى أعماق المريض الذي يقوم بتفريغه، وذلك بمجرد ارتدائه لخوذة بصرية خاصة. فماذا رأت العين؟ لم يقل الفني شيئًا. كان «مونتاج» يرى لكنه لم ير ما ترى العين. كانت

العملية كلها أشبه بحفر خندق في حديقة المنزل. ولم تكن المرأة المستلقية على السرير تختلف عن طبقة صلبة من الرخام يحفرون أعماقها. هيا! اعملوا بجد! طهروا الأعماق من الملل، أفرغوها من الخواء الداخلي! آه لو أمكن للثعبان أن يشفط المللَ وأن يبتلع الخواء في إحدى خفقاته! كأن الفني يدخن سيجارة. وكان الجهاز الآخر يعمل أيضًا.

فني آخر كان يقوم بتشغيل الجهاز الثاني، بدا كزميله خاليًا من أي مشاعر، وكان يرتدي «أوفرول» أحمر مائل إلى البني صُنعَ قماشه من مادة متطورة ضد البقع. كان الجهاز الثاني مسئولاً عن شَفط كل الدم الموجود بالجسم وتغييره بدم جديد وبلازما.

قال الفني لزميله وهما ينظران للمرأة الساكنة: «لازم نَنضف من كل ناحية، ماينفعش تنضف المعدة من غير ما تنضف الدم. هتسيب الحاجات دي في الدم هتلاقيه بيخبط في المخ ولا الشاكوش... هي كام خبطة وتلاقي المخ سَلم ووقف».

«اسكت!».

«أنا بس كنت بَقول...».

«هل انتهيتم؟».

أحكموا إغلاق الأجهزة، وقال أحدهم: «انتهينا». لم يحرك غضبه أي مشاعر لديهم. وقفا وسط دوائر من دخان السجائر تلتف حول أنفيهما وتدخل في أعينهما دون أن يرمش أحدهما أو تنحرف مقلة العين يمينا أو يسارًا.

«خمسين دولار».

«قبل أي شيء، أنت لم تقل شيئًا، هل حالتها ستتحسن؟».

«أكيد، هتبقى كويسة. كل الحاجات المقرفة طلعناها وحطيناها في الشنطة دي. هترجع لها إزاي بقى؟ زي ما قولتلك: غَيّر القديم بالجديد تبقى تمام».

«لم يحصل أي منكم على الدكتوراة في الطب، لماذا لم يرسلوا طبيبًا مؤهلاً من قسم الطوارئ».

قال الرجل والسيجارة تتحرك بين شفتيه: «أُف! يا إستاذ احنا كل ليلة بتدخللنا تسع أو عشر حالات زي دي. يعني شفنا من ده كتير. ومن كام سنة بس بقى عندنا الأجهزة المتخصصة دي. أقصد العدسة البصرية، طبعًا باقي الأجهزة بقالها سنين. في حالة زي دي إنت مش محتاج دكتوراه ولا غيره. كل المطلوب اتنين صنايعية، يصلحوا المشكلة في نص ساعة.» ثم قال وهو يتجه نحو الباب: «بص، احنا لازم نمشي دلوقت. عندنا إشارة على سماعة الأذن القديمة. على بعد عشرة بيوت، حد تاني بلع علبة الأقراص كلها. ابقى كلمنا لو احتجتنا تاني. خليِّها هادية. وخلي بالك إحنا حطينا جواها أدوية منبهة فهتصحى جعانة. سلام».

وأخيرًا، انصرف الرجلان بسجائرهما وأفواههما التي تشبه الخطوط المستقيمة. خرجا من الباب بخطوات قوية بعد أن لَمْلَما أجهزتهما وخراطيمهما، والشنطة المملوءة بالاكتئاب السائل، والمخلفات اللزجة التي لا اسم لها.

غاص «مونتاج» في الكرسي وهو ينظر لهذه المرأة. كانت عيناها مغمضتين، في رقة، فمد يده ليشعر بدفء أنفاسها على كف يده.

وأخيراً قال: «ميلدريد».

نحن كثيرون جداً. يُقَدَّرتعْدَادُنا بالبلايين، وهذا كثير جداً. فلا أحد يعرف جاره. ويأتي أناسَ غرباء ويعتدون عليك. يأتي الغرباء وينتزعون قلبك. يأتي الغرباء ويأ خذون دماءك. يا إلهي الكريم! من هذان الرجلان؟ لم أر أيًا منهما في حياتي.

مرت نصف ساعة.

كان الدم الذي يجري في عروق هذه المرأة جديداً، وبدا أن ذلك قد أكسبها شيئًا جديداً عليها تمامًا. فقد أصبح خدَّاها ورديين، وشفتاها طازجتين ملأهما اللون. وظهرت على الخدين والشفتين النعومة والاسترخاء. بداخلها الآن دماء شخص آخر. آه لو نقلوا لها جسمًا جديداً تمامًا، وعقلاً جديداً وذاكرة جديدة. لوأمكن أن يبعثوا بعقلها للمغسلة الآلية، ويفرغوا ما في جيوبه تمامًا، ثم ينظفوه بالبخار، ويطهروه ثم يغلفوه ويعيدوه في صباح اليوم التالي!! لو...

نهض واقفًا، ثم أزاح الستائر، وفتح النوافذ على اتساعها ليدخل هواء الليل إلى الغرفة. هل حدث كل ذلك في ساعة واحدة فقط. التقى «ماكليلان» على الطريق، ثم دخل الحجرة المظلمة، وارتطمت قدمه بالزجاجة؟ ساعة واحدة فقط، ذاب فيها العالم، ثم نهض مرة أخرى مرتديًا ثوبًا لا لون له.

هبت رياح الضحك من منزل «كلاريس» ـ وأمها وأبوها والعم المبتسم في هدوء ووقار ـ على الحشائش المزروعة بجوار المنزل والملونة بلون القمر. والأهم من ذلك أن ضحكاتهم انطلقت من القلب، وخلت من أي توتر أو تصنع. فهي ضحكات سُكَّان ذلك المنزل الذي

تتلألأ أنواره في وقت متأخر من الليل بينما باقي المنازل يَغُطُّ في ظلام كثيف. سمع «مونتاج» الأصوات. كانوا يتكلمون، يتكلمون، يتكلمون، ينسجون من الكلام شبكة تنويم مغناطيسي خاصة بهم.

خرج مونتاج من إحدى النوافذ الفرنسية، ومشى على الممر دون أن يفكر في أي شيء. وقف في الظل أمام ذلك المنزل الذي يتكلم. وفكر في أن يدق بابهم ويهمس قائلاً: «اسمحوا لي بالدخول. سأجلس في صمت، أريد فقط أن أستمع إليكم. ماذا تقولون»؟

لكنه لم يفعل. ووقف هناك يشعر بالبرد، بينما تحول وجهه إلى قناع من ثلج، وهو يستمع لصوت رجل. (هل هو صوت عمها؟). كانت كلماته تنتظم في سلاسة وهدوء: «على أية حال، نحن نعيش الآن في عصر المناديل الورقية التي تستخدم مرة واحدة. أفرغ إفرازات أنفك... اسحب أكثر من منديل ثم تخلص. كل منا يستخدم جاكيت أخيه. وليس لأحدنا لون أو شكل خاص يميزه!! هل تستطيع أن تخبرني كيف أشجع فريق بلدي دون أن تكون لدي قائمة بالمباريات، ودون أن أعرف أسماء اللاعبين؟ هل تستطيع أن تميز لون فانلة فريق «جيرسي» بينما يجري لاعبوه في الملعب؟».

عاد «مونتاج» إلى منزله. ترك النافذة مفتوحة، اطمأن على «ميلدريد»، وأحكم الأغطية حولها جيداً من كل جانب، ثم تمدَّد على سريره بينما دخل ضوء القمر إلى عظمتي خديه، وإلى ثنايا تكونت في جبينه بفعل الاقتضاب المستمر. وتسللت قطرات من ضوء القمر داخل عينيه لترسم عدسة فضية في كل منهما. قطرة أمطرت من السماء. كلاريس. قطرة أخرى. ميلدريد. وثالثة. العم. رابعة. النار الليلة. واحد: كلاريس. اثنان: ميلدريد. ثلاثة: العم. أربعة: النار. واحد:

ميلدريد. اثنان: كلاريس. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، كلاريس، ميلدريد، العم، النار، أقراص منومة، رجال، مناديل ورقية يمكن التخلص منه. ذيل الجاكيت. امسح أنفك، اسحب، تخلص. واحد، اثنان، ثلاثة، واحد، اثنان، ثلاثة! أمطار. العاصفة. العم يضحك. العاصفة تنزل في الخارج، العالم كله ينهمر. النار تندفع من أعلى في بركان. وكل شَيْء يتجه نحو الصباح في نفخة هادرة وأنهار جارية.

«لم أعد أعرف شيئًا» قال لنفسه بينما أدخل أحد الأقراص المنومة تذوب في فمه».

في التاسعة من صباح اليوم التالي، كان سرير ميلدريد خاليًا. هَبَّ «مونتاج» واقفًا، ضَخَّ قلبَه الدم بقوة وهو يجري داخل الصالة ويتوقف عند باب المطبخ.

ظهر طرف قطعة «التوست» المحمرة من فتحة جهاز «التوستر» الفضي اللون، لتلتقطها يد معدنية تشبه العنكبوت ثم تغمسها في الزُّبد المذاب. تابعت «ميلدريد» بعينيها التوست وهو يستقر في الطبق، بينما كانت أذناها محشوَّتين بنحلتين اليكترونيتين يعمل طنينهما على مرور ساعات النهار. نظرت إلى أعلى فجأة، ورأته، فهزَّت رأسها.

سألها: «هل أنت بخير؟».

كانت قد أصبحت خبيرة في قراءة الشفتين منذ أن اشتركت في خدمة سماعات «قوقعة البحر». هزت رأسها مرة أخرى. ضغطت على زر «التوستر» مرة أخرى بعد أن وضعت قطعة «توست» جديدة.

جلس «مونتاج» قالت زوجته: «لا أعلم سببًا لهذا الجوع الذي أشعر به».

ـ أنت .

ـ أشعر بالجوع .

ـ ليلة أمس .

ـ لم أنم جيدًا . أشعر بتعب شديد . يا إلهي . أنا جائعة جدًا . لا أعرف سببًا لهذا الجوع .

«ليلة أمس . . . » حاول أن يتكلم مرة أخرى .

نظرت إلى شفتيه في عدم اكتراث لتقرأ ما يقول : «ماذا حدث ليلة أمس؟» .

ـ ألا تتذكرين أي شيء؟

ـ ماذا؟ هل كان لدينا حفل صاخب أم ماذا؟ أشعر بدوار وكأني أكثرت من الخمور . يا إلهي ، أنا جائعة . من كان هنا ليلة أمس؟

ـ عدد قليل من الناس .

قالت وهي تمضغ التوست :

ـ كما توقعت . معدتي تؤلمني لكني جائعة . أتمنى ألا أكون ارتكبت أية حماقة في الحفل بالأمس .

أجابها بهدوء :

ـ لا ، لم تفعلي .

أخرج ذراع التوستر قطعة أخرى له . أمسكها في يده وهو يشعر بالامتنان ، قالت :

ـ لا تبدو عليك الحرارة .

أمطرت السماء قبل غروب الشمس، فانقلب لون الدنيا إلى الرمادي الداكن. وقف في صالة منزله، ثم وضع شارة السمندر البرتقالي المشتعل. ثم أخذ ينظر بإمعان إلى فتحة جهاز التكييف. كانت زوجته في صالة التليفزيون منهمكة في قراءة دورها في السيناريو، وأخيراً نظرت إليه وهي تقول:

ـ الرجل يفكر.

ـ فعلاً. فأنا كنت أريد أن أكلمك في موضوع.

توقف لحظةً ثم قال:

ـ لقد ابتلعت كل الأقراص من الزجاجة ليلة أمس».

قالت وقد فاجأها بكلامه:

ـ مستحيل. لا يمكن أن أفعل ذلك.

ـ وجدت الزجاجة فارغة.

ـ لا يمكن أن أفعل شيئًا كهذا. ما الذي يجعلني أفعل شيئًا كهذا.

ـ ربما تكوني قد تناولت قرصين، ثم نسيت أنك فعلت، فابتلعت قرصين آخرين، ثم نسيت مرة أخرى فابتلعت قرصين جديدين، ثم شعرت بفقدان وعي فأخذت تبتلعين الأقراص هكذا حتى ابتلعت ثلاثين أو أربعين قرصًا.

ـ كلام فارغ. لماذا أفعل بك شيئًا سخيفًا كهذا؟

ـ لا أدري.

بدا بوضوح أنها تنتظر أن يغادر المكان، ثم قالت:

ـ لم أفعل ذلك، ولا يمكن أن أفعل ذلك ولا بعد مليون سنة.

ـ حسنًا. طالما أنت مقتنعة بذلك.

عادت لتمثل دورها في النص:

ـ هذه ما قالته السيدة.

سألها وهو يشعر بملل شديد:

ـ ما الذي يعرض اليوم؟

.لم ترفع عينيها عن السيناريو، ثم قالت: هذه مسرحية سوف تعرضها الدائرة التليفزيونية الجدارية الحديثة بعد عشر دقائق من الآن. قمت فقط بتجميع أغطية بعض الزجاجات الفارغة، ثم أرسلتها بالبريد، فأرسلوا لي السيناريو بالبريد الإلكتروني كاملاً عدا الكلام الخاص بأحد الأدوار. فكرة جديدة. صاحب أو صاحبة المنزل، وهو أنا في هذه الحالة يقوم بتكملة الجزء الناقص في السيناريو، وعندما يأتي دوري للحديث تنظر باقي الشخصيات ناحيتي من الجدران الثلاثة فأقوم بأداء الجزء الخاص بي. هنا مثلاً، يقول الرجل: «ما رأيك في الموضـــوع كله يا هيلين؟» ثم ينظر إليّ وأنا أجلس هنا في وسط المسرح. أترى؟ فيكون عليّ أن أقول... أن أقول..» سكتت بينما كان إصبعها يجري تحت أحد سطور السيناريو. «أعتقد أنه لا بأس به»، ثم تستمر أحداث المسرحية حتى اللحظة التي يقول فيها الرجل: «هل توافقين على ذلك يا هيلين؟» فأرد قائلة: « بالتأكيد أوافق». أليس هذا مسليًا يا جي؟

وقف في الصالة ينظر إليها. قالت:

ـ شيء ممتع بالتأكيد.

ـ عن أي شيء تدور المسرحية؟

ـ لقـد أخبـرتك منذ لحظات . عن أناس يدعـون بوب ، و روث ، وهيلين .

ـ أوه .

ـ إنها حقًا ممتعة . وستصبح أكثر متعة إذا ما استطعنا شراء وتركيب الحائط الرابع . دعنا نحسب كم من الوقت نحتاج للتوفير لشراء حائط تلفزيوني رابع ، ولهدم الحائط الرابع في غرفة الصالون وتركيب الحائط التلفزيوني بدلاً منه . لن يتكلف الأمر كله أكثر من ألفي دولار .

ـ هذا يعني ثلث دخلي السنوي .

ـ فقط ألفي دولار . وأعتقـد أنك يجب أن تهتم بي من وقت إلى آخر . آه لو استطعنا تركيب الحائط الرابع . سوف تبدو الغرفة وكأنها ليست غرفتنا بالمرة بل غرف كثيرة لأناس آخرين لا نعرفهم . نستطيع أن نستغني عن بعض الاحتياجات الأخرى .

ـ نحن بالفعل استغنينا عن بعض الاحتياجات لندفع ثمن الحائط الثالث . ولم يمض على تركيبه أكثر من شهرين هل تذكرين ذلك؟

ـ هل هذا كل ما عندك؟

جلست تنظر إليه لدقيقة بدت طويلة ، ثم قالت :

ـ إذن ، مع السلامة يا زوجي العزيز .

ـ مع السلامة .

توقف ثم استدار وسألها :

ـ هل النهاية سعيدة؟

ـ لم أصل للنهاية بعد.

اقترب منها، أمسك بالسيناريو، قرأ الصفحة الأخيرة، هز رأسه، ثم ثنى الورقة، وأعادها لها مرة أخرى قبل أن يمشي خارجًا من المنزل ويسير تحت المطر.

كانت زخات المطر تتلاشى تقريبًا. مشت الفتاة في منتصف الرصيف، وهي ترفع رأسها إلى أعلى لتسقط بعض من حبات المطر على وجهها. ابتسمت حين رأت «مونتاج»، ثم قالت:

ـ أهلاً.

ـ أهلاً. ماذا ستفعلين الآن؟

ـ مازلت مختلة عقليًا! المطر يمنحني إحساسًا جميلاً. أحب أن أمشي تحت المطر.

ـ لا أظنني أحب أن أفعل ذلك.

ـ ربما تحب إذا جربت.

ـ لم أجرب أبدًا.

قالت وهي تلحس شفتيها:

ـ حتى طعم المطر يعجبني.

ـ ماذا تفعلين بحياتك؟ تتجولين في كل مكان، لتجربي كل شيء مرة واحدة؟

قالت وهي تنظر إلى شيء ما في يدها :

ـ أحيانًا مرتين .

ـ ما هذا الذي في يدك؟

ـ أعتقد أنها آخر زهرة من زهور الهندباء تنبت هذا العام . لم أكن أتوقع أن أجد أيًا منها وسط الحشائش في هذا الوقت المتأخر من العام . هل سمعت عما تفعله هذه الزهرة إذا قمت بحكها تحت ذقنك؟ انظر .

قامت بحك الزهرة تحت ذقنها وهي تضحك .

ـ لماذا؟

ـ إذا تركت أثرًا ، معنى ذلك أنك في حالة حب . هل تركت أثرًا تحت ذقني؟

لم يملك إلا أن ينظر تحت ذقنها ، سألته :

ـ ماذا ترى؟

ـ بشرتك لونها أصفر كلون الزهرة .

ـ جميل! تعالى نجرب عندك الآن .

ـ لن يحدث أي شيء بالنسبة لي .

قبل أن يتحرك استوقفته قائلة :

ـ انتظر لحظة .

أخذت تحك الزهرة تحت ذقنه ، بينما حاول أن يهرب منها ، ضحكت وقالت :

ـ اثبت مكانك.

تجهم وجهها حين نظرت تحت ذقنه ثم قالت:

ـ في الحقيقة... شيء مؤسف: لست في حالة حب مع أي إنسان.

ـ غير صحيح، أنا أحب...

ـ لم يظهر ذلك.

ـ بل أحب... أحب جداً! أحب!

حاول أن يجعل ملامح وجهه تعكس ما يقول، لكنه فشل. لم يكن هناك وجه على الإطلاق.

ـ أرجوك لا تجعل وجهك يبدو هكذا.

ـ المشكلة في زهرة الهندباء. فأنت أخذت كل ما بها من لون، ولهذا فهي لم تترك أي أثر بالنسبة لي.

ـ بالتأكيد هذا هو السبب. آه. الآن، يبدو أنني أصبتك بالإحباط. أستطيع أن أدرك أنني سببت لك الضيق. أنا آسفة، أنا فعلاً آسفة.

لمست مرفقه، قال بسرعة:

ـ لا شيء، لا شيء، أنا لست محبطًا، أنا في أحسن حال.

ـ يجب أن أمشي حالاً. أرجوك قل: إنك سامحتني. فأنا لا أريد أن أجعلك تغضب مني.

ـ لست غاضبًا، ربما فقط محبطًا.

ـ يجب أن أذهب الآن لزيارة الطبيب النفسي. يجبرونني على زيارته، فأزوره، لكنني أختلق أشياء لأحكيها له. لا أعرف رأيه في شخصي. يقول إنني أشبه البصلة العادية! في كل مرة يحاول أن يزيل طبقات من القشرة.

ـ لدي إحساس أنك بالفعل تحتاجين للطبيب النفسي.

ـ قل إنك لم تقصد أن تقول ما قلته.

أخذ نفسًا ثم أخرجه من صدره، ثم قال:

ـ لا، لم أقصد.

ـ يريد طبيبي النفسي أن يعرف سبب تسكعي في الغابات، ومراقبتي للطيور، وجمعي للفراشات. في يوم من الأيام ستشاهد ما عندي من تشكيلة متميزة.

ـ رائع.

ـ يريدون أن يعرفوا كيف أقضي وقتي. أخبرهم أنني أحيانًا أجلس لأفكر. لكن لا أخبرهم عما أفكر فيه. أتركهم يخمنون. وأحيانًا أحكي لهم. أقول لهم إنني أحب أن أرمي رأسي إلى الخلف، هكذا، وأترك حبات المطر تنزل إلى داخل فمي. طعمها يشبه طعم الخمر. هل جربته من قبل؟

ـ لا، لِمَ.

ـ أنت سامحتني، أليس كذلك؟

فكر قليلاً ثم قال:

ـ نعم . . . نعم سامحتك . الله أعلم لماذا سامحتك . أنت غريبة الأطوار ، صحيح أنك مستفزة ، ولكن من السهل ألا يجد أحد صعوبة في أن يسامحك . قلت لي إنك في السابعة عشر من عمرك؟

ـ سأصبح في السابعة عشر في الشهر القادم .

ـ شيء غريب حقًا . شيء يثير الدهشة . زوجتي في الثلاثين من عمرها ، ولكن أحيانًا يخيل إلي أنك أكبر منها سنًا . لا أستطيع أن أتخلص من هذا الإحساس .

ـ أنت نفسك غريب الأطوار ، يا مستر مونتاج . أحيانًا أنسى أنك رجل إطفاء . تسمح لي الآن أن أجعلك تغضب مرة أخرى .

ـ تفضلي .

ـ كيف بدأت؟ كيف دخلت إلى هذا المجال؟ كيف حصلت على هذه الوظيفة ، وكيف استطعت مجرد التفكير في أن تقبل تلك الوظيفة . فأنت لست كالآخرين . فقد شاهدت بعضهم . وأستطيع أن أحكم . أنت تنظر إليّ عندما أتحدث ، وفي ليلة أمس عندما تحدثت معك عن القمر ، لمحتك وأنت تنظر إلى القمر .

لم يكن أحد غيرك ليفعل ذلك . كان سيمشي ويتركني أتكلم ، أو يهددني كي أصمت . ليس لدى أي منا وقت ليستمع للآخر . أنت من القليلين الذين تحمَّلوني . ولهذا فأنا أتعجب من كونك رجل إطفاء . ببساطة هذا العمل لا يبدو العمل المناسب بالنسبة لك . بشكل ما أو بآخر .

أحس وكأن جسده قد انشطر إلى نصفين أحدهما ساخن ، والآخر بارد ؛ أحدهما ناعم ، والآخر صلب ؛ أحدهما يرتعش ،

والآخر لا يتحرك؛ وكل من النصفين يحاول أن يسحق الآخر. قال لها:

ـ من الأفضل أن تسرعي لتلحقي بميعادك.

جرت وتركته واقفًا في المطر. لم يتحرك من مكانه إلا بعد مرور وقت طويل. مشى، وفي بطء شديد، ألقى برأسه إلى الخلف تحت المطر، وفتح فمه لدقائق معدودة.

بدا كلب الصيد الآلي نائمًا، لكنه لم يكن نائمًا. بدا حيًا، لكنه لم يكن حيًا على الرغم من الطنين الخافت والاهتزازات المستمرة، والضوء الهادئ الصادر من بيت كلاب الصيد الواقع في أحد الأركان المظلمة لمبنى الحريق.

كان الضوء خافتًا في النهار، وضوء القمر المسافر عبر السماء الواسعة قد انحصر داخل إطار النافذة ضخمة. كانت الأشعة تنعكس على مناطق مختلفة من النحاس والحديد والصلب في جسد ذلك الوحش الدائم الاهتزاز.

توالت نبضات من الضوء على الزجاج الأحمر، وقرون الاستشعار الحساسة المثبتة في خياشيم ذلك المخلوق العجيب الذي يهتز في رفق بينما تتشعب أرجله الثماني تحته لتنتهي بمخالب مبطنة بالمطاط.

تزحلق «مونتاج» على العمود النُّحاسيِّ إلى خارج مبنى المطافئ. تَجَوَّل في المدينة، نظر إلى السحب ليجدها قد انقشعت تمامًا. أشعل سيجارة ثم انحنى ليلقي نظرة على كلب الصيد الآلي. كان «مونتاج» أشبه بنحلة عملاقة تعود إلى الخلية بعد جولة في الحقول حيث الرحيق معبأ بوحشية مهلكة وجنون وكوابيس. تشبَّع جسد

النحلة الضعيف بذلك الرحيق المركز، وهاهي الآن تحاول أن تشفى منه بالتدريج.

همس مونتاج لكلب الصيد: «أهلاً». كان يشعر دومًا بالانبهار كلما نظر إلى ذلك الوحش الحي الميت.

في تلك الليالي المملة، كل الليالي تقريبًا، كان زملاء «مونتاج» يتسلون بتشغيل جهاز الشم عند كلب الصيد الآلي، ثم يطلقون الفئران في الفناء الملحق بمبنى المطافئ. وفي بعض الأحيان كانوا أيضًا يطلقون الدجاج، والقطط التي سيتم إعدامها غرقًا. بعد ذلك يراهن كل منهم على الفأر أو الدجاجة أو القطة التي سيقوم الجهاز بصيدها أولاً. كانت تلك اللعبة تنتهي بعد ثلاث ثوان فقط من إطلاق الحيوانات، حيث يقبض كلب الصيد الآلي على الفأر أو الدجاجة أو القطة في منتصف الفناء ويمسكه بإحكام بمخالبه الرقيقة، بينما تضخ الإبرة الصلب المجوفة المدفوعة داخل خرطوم الكلب الآلي، جرعات من المورفين أو البروسين. وفي النهاية يلقي الرجال بأوراق الرهان في محرقة النفايات، ليبدأ رهان جديد ولعبة جديدة.

لم يشترك «مونتاج» في الرِّهان، وهو الذي كان المراهن الأول منذ عامين، مما كان يعرضه لعقوبة خصم أسبوع من المرتب، فيقع فريسة لغضب «ميلدريد» الذي يصل إلى الجنون، ويظهر على جسده في هيئة كدمات وسجحات. أما الآن فها هو ينام في كابينته، ويدير وجهه إلى الحائط، وهو يستمع إلى صيحات السعادة ويتابع صوت أرجل الفئران وهي تجري بسرعة وكأنه صوت الأوتار في آلة البيانو. وصوت صياحها وكأنه صوت صرير الكمنجات. كما يشعر بظل عملاق يتحرك في صمت هو ظل الكلب الآلي وهو يقفز على فريسته،

ويمسك بها، ثم يحقنها بالإبرة ليعود إلى بيته ليموت وكأن أحدًا قد ضغط على الزر.

لمس «مونتاج» الكمامة.

زمجر الكلب الآلي.

ابتعد «مونتاج» في فزع.

قام الكلب من بيته ونظر إلى «مونتاج» وقد بدأت العينان فجأة في إصدار ضوء نيون متقطع لونه أزرق مائل إلى الأخضر. زمجر مرة ثانية مصدرًا صوتًا غريبًا هو خليط من أزيز كهربائي، صوت تحمير، احتكاك معادن، وتدوير تروس قد صدأت وتحجرت بفعل الزمن.

قال «مونتاج» وقلبه يخفق:

ـ «لا، لا يا عزيزي».

كان قد لمح الإبرة الفضية تخرج في الهواء لمسافة بوصة، ثم تدخل مرة أخرى، تخرج ثم تدخل. سمع صوت الزئير يغلي داخل الوحش، ورآه وهو ينظر إليه.

تراجع «مونتاج» إلى الوراء، بينما تحرك الوحش خطوة خارجًا من بيته. أمسك «مونتاج» بالعمود النحاسي بيد واحدة. استجاب العمود حيُث حمله إلى أعلى وأنزله بهدوء فوق السطح. مشى على السطح ذي الإضاءة الخافتة وهو يرتعد وقد ابيضَّ وجهه من الخوف. كان الوحش قد هدأ قليلاً واستقر فوق الأرجل الثماني التي تشبه أرجل الحشرات، بينما ظل يزأر زئيرًا خافتًا وقد هدأت عيناه المتعددة الألوان.

وقف «مونتاج» بجوار حفرة الإنزال، محاولاً التغلب على خوفه. في الخلف كان أربعة رجال يجلسون في الركن حول مائدة للعب الأوراق تحت ضوء أخضر. كانوا يسترقون النظر إلى «مونتاج» لكن لم يقل أحدهم شيئًا. أخيرًا تكلم رجل يرتدي قبعة الكابتن ويضع شارة العنقاء فوق القبعة. ويبدو أن الفضول قد دفعه أن يتكلم وهو يمسك بأوراق اللعب في يده النحيلة، فنادى:

ـ مونتاج؟

ـ إنه لا يحبني.

سأل الكابتن وهو يفحص أوراق اللعب:

ـ من هذا الذي لا يحبك؟ كلب الصيد؟ أتعني ما تقول؟ إنه لا يحب ولا يكره. هو فقط «يعمل». وهو مبرمج تمامًا كما في علم القذائف. هناك هدف ما نحدده له، وهو يرتب نفسه، يستعد، ثم يصيب الهدف. وهو مجرد مزيج من الأسلاك النحاسية، وبطاريات التخزين، والكهرباء.

ابتلع «مونتاج» ريقه ثم قال:

ـ ولكن الحاسبات بداخله من الممكن برمجتها لاكتشاف أي شيء كزيادة الأحماض الأمينية، أو الكبريت، أو الدهون أو الحمض القلوي. أليس كذلك؟

ـ هذا معلوم للجميع.

ـ جميع البيانات والنسب الخاصة بكل منا مسجلة في الملف الأساسي في الطابق السفلي. وبهذا من الممكن أن يستثير أيًا منّا ذاكرة

الوحش، بمجرد زيادة طفيفة في الأحماض الأمينية، مثلاً. وقد يفسر هذا ما حدث من الوحش الآن. وكيف تصرف معي.

ـ كارثة!

ـ لم يكن غاضبًا تمامًا، وإنما فقط استثاره اقترابي. ربما عدل شخص ما في البيانات الخاصة بي مما جعل الوحش يزأر عندما لمسته.

قال الكابتن:

ـ لا يمكن أن يفعل أحد ذلك. هل لك أي أعداء ياجاي؟

ـ ليس لي أعداء، على حد علمي.

ـ سيجري الفنيون غدًا فحصًا دقيقًا للكلب.

ـ هذه ليست المرة الأولي التي يهاجمني فيها، فقد هاجمني مرتين في الشهر الماضي.

ـ سنقوم بتصليحه. لا تقلق.

لكن «مونتاج» لم يتحرك من مكانه. و أخذ يفكر في الشيء المختبئ خلف قضبان النافذة في صالة منزله. إذا عرف أيٌ من زملائه في مبنى مطافئ بذلك الشيء، أليس من الممكن أن يكون قد «أخبر» كلب الصيد؟

اقترب الكابتن من حفرة الإنزال وألقى نظرة «شك» على مونتاج، الذي تكلم من فوره قائلاً:

ـ كنت فقط أحاول أن أفهم ما الذي يفكر فيه كلب الصيد وهو يقبع هناك في ظلام الليل. هل سيهجم علينا حقًا؟ إنه يصيبني بالرعب.

ـ كلب الصيد لا يفكر في أي شيء. فنحن لا نريده أن يفكر.

قال «مونتاج» في هدوء:

ـ إن هذا مؤسف حقًا. فنحن لا نضع بداخله إلا الصيد، والقنص والقتل. يالها من كارثة إذا كان هذا هو كل ما يعرف.

شهق «مونتاج» برفق، ثم قال:

ـ اللعنة. إنه قطعة رائعة تدل على براعة صانعيها. سلاح ممتاز يستطيع دائمًا أن يصل إلى فريسته ويضمن إصابتها في مقتل.

ـ ولهذا السبب أرجو ألا أكون الضحية القادمة.

ـ لماذا تقول ذلك؟ هل فعلت شيئًا ما أصابك بتأنيب الضمير؟

نظر «مونتاج» إليه، ثم غَضَّ طرفه بسرعة.

وقف «بيتي» ينظر إليه في ثبات، بينما انفرج فمه عن ضحكة هادئة.

يوم، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة أيام. كلما خرج من المنزل، كانت «كلاريس» هناك في مكان ما من العالم. في إحدى المرات رآها تهز إحدى أشجار عين الجمل. وفي مرة أخرى رآها تجلس على الحشائش تحيك سترة زرقاء من الصوف. في ثلاث أو أربع مرات وجد أمام باب منزله صحبة من الورود قُطفَت لَتوِّها، أو حفنة من الكستناء في شنطة صغيرة، أو بعضًا من أوراَق الشَجر وقد تم تثبيتها بعناية على ورقة بيضاء، وتعليقها على بابه. كل يوم كانت «كلاريس» تتمشى معه حتى الزاوية. وفي يوم تهطل الأمطار، ويوم آخر يصفو الجو، وفي يوم ثالث تهب عاصفة قوية، ورابع يكون الجو دافئًا

وهادئًا، وأحيانًا يأتي يوم كنار الصيف فيحمر وجه «كلاريس» ويبدو في آخر المساء وكأنه قد احترق بفعل الشمس.

قال لها ذات مرة:

ـ لماذا أشعر وكأنني أعرفك منذ سنوات طويلة؟

ـ لأني أحبك دون أن يكون لي أية مصلحة. ولأننا نعرف بعضنا بعضًا جيدًا.

ـ أنت تجعلينني أشعر وكأنني عجوز جدًا، وكأنني أب.

ـ إذن اشرح لي الآن. لماذا لم تنجب بناتًا مثلي إذا كنت تحب الأبناء إلى هذا الحد؟

ـ لا أعرف.

ـ أنت تمزح بالتأكيد.

ـ أقصد...

توقف فجأة ثم هز رأسه وقال:

لم ترغب زوجتي في إنجاب أطفال على الإطلاق.

اختفت ابتسامة الفتاة، ثم قالت:

ـ أنا آسفة. ظننت أنك تمزح. أنا غبية!

ـ لا، لا... إنه سؤال جيد. منذ زمن بعيد لم يهتم بي أحد لدرجة أن يسألني هذا السؤال. سؤال جّيد.

ـ فلنتكلم عن شيء آخر. هل شممت رائحة أوراق الشجر اليابسة من قبل؟ رائحتها تشبه رائحة القرفة. هاهي. شم.

ـ في الحقيقة، نعم، فهي تشبه القرفة إلى حد ما.

نظرت إليه بعينين داكنتين صافيتين، ثم قالت:

ـ أنت دائمًا تبدو مذهولاً.

ـ مشكلتي فقط أنني لم يكن لدي الوقت الكافي.

ـ هل نظرت إلى لوحات الإعلانات كما قلت لك؟

ضحك، وقال:

ـ أعتقد أنني رأيتها؟ نعم.

ـ صوت ضحكتك الآن أجمل.

ـ حقًا؟

ـ نعم، ضحكتك الآن أقل توترًا.

أحس بالراحة والطمأنينة. سألها:

ـ لماذا لا تذهبين إلى المدرسة؟ أراك كل يوم تتسكعين في الطرق.

ـ آه. هم لا يشعرون بغيابي هناك. يقولون عني إنني غير اجتماعية. بأنني لا أتوافق مع أحد. شيء غريب. أنا في الحقيقة اجتماعية جدًا. الأمر يعتمد على المقصود بكلمة اجتماعي. فالاجتماعي بالنسبة لي: هو أن تتحدث مع الناس في موضوعات كهذه.

قالت ذلك وهي تعبث بحفنة من الكستناء كانت قد وقعت من الشجرة المزروعة أمام المنزل.

ـ أو أن تتحدث عن العالم وكم هو غريب. شيء جميل أن تكون وسط الناس. ولكن هل تصبح اجتماعيًا إذا وضعت

مجموعة من البشر سويًا، ثم منعتهم من أن يتكلموا مع بعضهم بعضًا؟ هذه هي المدرسة! ساعة للتليفزيون، وأخرى لكرة السلة أو البيسبول أو الجري، وساعة أخرى لتاريخ الرموز، أو الرسم، ثم رياضة مرة أخرى، لكن تَصَوَّر: نحن لا نسأل أية أسئلة، أو على الأقل أغلب التلاميذ لا يسألون، وإنما فقط يجلسون لتسحقهم الإجابات بينج بينج بينج، وهم جالسون لساعات أربع أخرى لمشاهدة المُعلِّمة على شاشة التليفزيون. هذا بالنسبة لي لا علاقة له بأن تكون اجتماعيًا. الأمر كله أقماع كثيرة، وماء كثير يتم صبه في هذه الأقماع، بينما يقولون لنا إنه خمر وهو ليس خمرًا.

وفي نهاية اليوم يتركوننا مُهَلْهلِيَن لا نقوى على شيء إلا النوم أو الذهاب إلى الملاهي لمضايقة الناس، أوتكسير زجاج النوافذ في قاعة تحطيم النوافذ، أو تكسير السيارات في قاعة تحطيم السيارات باستخدام الكرة الحديدية الكبيرة، أو ركوب السيارات والدخول في سباقات في الشوارع لنرى من يصل إلى أعمدة النور أولاً. أعتقد أن كل ما يقولونه عني صحيح؛ فأنا ليس لدي أصدقاء، وهذا دليل على أني غير طبيعية. ولكن كل من حولي إما يصرخون وإمَّا يرقصون بعنف في كل مكان وإمّا يضربون بعضهم بعضًا. هل لاحظت كيف يؤذي الناس بعضهم بعضًا؟

ـ تتحدثين وكأنك عجوز جداً.

ـ أحيانًا يخيل لي أني أثرية. فأنا أخاف ممن هم في عمري ذاته. فهم يقتلون بعضهم بعضًا. هل كان الأمر كذلك في الماضي. عمي يقول: إنه لم يكن كذلك. في العام الماضي فقط مات ستة من أصحابي بإطلاق الرصاص. وعشرة ماتوا في حوادث سيارات. أنا أخاف

منهم، وهم لا يحبونني لأني أخاف. يقول عمي: إن جده كان يحكي له عن أن الأطفال كانوا لا يقتلون بعضهم بعضًا. كان هذا منذ زمن بعيد عندما كانت الأمور مختلفة. كانوا يؤمنون بالمسئولية. أنا أيضًا أشعر بالمسئولية. وكانوا يضربونني عند اللزوم، منذ سنوات مضت. وأنا الآن مسئولة عن التسوق وتنظيف المنزل بيدي. ولكنني في أغلب الأوقات، أحب مشاهدة الناس. أحيانًا أركب مترو الأنفاق طوال اليوم فقط لأشاهد الناس وأستمع إلى ما يقولون. أحاول أن أفهم من هم وماذا يريدون، وإلى أين هم ذاهبون. أحيانًا أذهب إلى الملاهي، وأركب سيارات السباق وأنطلق بإحداها في أطراف المدينة في منتصف الليل. الشرطة لا تعترض على ذلك طالما أن السيارات مُؤَمَّن عليها. طالما يدفع كل فرد عشرة آلاف دولار كتأمين فإن الجميع يشعر بالسعادة. أحيانًا أتسلل وأسترق السمع في مترو الأنفاق، أو أمام نوافير الصودا، ولكن أتعرف؟

ـ ماذا؟

ـ الناس لا يتحدثون عن أي شيء.

ـ بالتأكيد يتحدثون عن شيء ما.

ـ لا، لا شيء. يذكرون أسماء كثيرة لسيارات، وملابس، وحمامات سباحة، ويتعجبون من جمالها! ولكنهم جميعًا يقولون الأشياء نفسها، ولا يقول أي منهم شيئًا جديدًا. و في أغلب الأوقات يقومون بتشغيل جهاز النكات الآلي، ويستمعون لنفس النكات للمرة الألف، أو جهاز عرض اللوحات الضوئي فيعرض أمامهم تشكيلات للألوان تنزل ثم تصعد، لكنها مجرد ألوان، فن تجريدي. وفي المتاحف. هل زرت أيًا من المتاحف؟ كلها تجريد. هذا كل ما هناك

الآن. عمي يقول لي: إن الأمر كان مختلفًا في الماضي. كانت اللوحات في الماضي تقول شيئًا، وبعض اللوحات كان بها رسوم لنساء ورجال.

ـ عمي يقول! عمي يقول! لا بد وأن يكون عمك هذا رجلاً مميزاً.

ـ هو بالفعل كذلك. حسنًا، لابد أن أنصرف الآن. إلى اللقاء يا مستر «مونتاج».

ـ إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء.

يوم، اثنان، ثلاث، أربع، خمس، ست، سبعة أيام: مبنى المطافئ.

ـ مونتاج، تبدو وأنت تتسلق العمود، وكأنك طير فوق شجرة.

اليوم الثالث:

ـ مونتاج، أرى أنك دخلت من الباب الخلفي، أمازال كلب الصيد يضايقك.

ـ لا، لا.

اليوم الرابع:

ـ مونتاج، سمعت اليوم حكاية مضحكة عن رجل إطفاء في سياتل. قرر أن يضبط جهاز الشم عند كلب الصيد الآلي بحيث يهاجم التركيبة الكيميائية لجسمه هو، ثم قام بإطلاقه. أي نوع من الانتحار هذا في رأيك؟

خمسة، ستة، سبعة أيام.

بعـدها، اختـفت «كـلاريس». لـم يعـرف مـا الـذي أصـاب الأمسيات. لكنه لم يعد يراها في أي مكان من العالم. كان العشب أمام المنزل خاليًا، كانت الأشجار خالية، وكان الشارع خاليًا. في أول الأمر لم يكن يدرك أنه يفتـقدها، أو أنه كـان بالفـعل يبـحث عنهـا. والحقيقة أنه بمجرد أن يصل لمترو الأنفاق كل يوم، كانت مشاعر قلق غامضة تتحرك بداخله. كان هناك شيء ما، كان روتينه اليومي قد اضطرب تمامًا. صحيح أنه روتين بسيط، ولم يستمر سوى أيام معدودة ولكنه. . . ؟ أوشك أن يعود ليمشي نفس الطريق مرة أخرى، ليعطيها الفرصة أن تظهر من أي مكان. كان متأكدًا أنه إذا مشى الطريق نفسها مرة ثانية، فسيعود كل شيء جميلاً كما كان. ولكن الوقت كان قد تأخر، ووضع وصول قطاره النهاية لخطته.

صوت أوراق اللعب، حركات الأيدي، صوت الساعة الناطقة المعلقة في سقف مبنى المطافئ: «الواحدة و خمس وثلاثون دقيقة من صباح الخميس الموافق الرابع من نوفمبر. الواحدة وست وثلاثون دقيقة، الواحدة وسبع وثلاثون دقيقة ظهرًا». صوت الأوراق على المفرش المتسخ يغطي طاولة اللعب. كل الأصوات تصل إلى «مونتاج» بالرغم من عينيه المغمضتين، وعبر الحاجز الذي أقامه في لحظة. شعر أن مبنى المطافئ لامع وصامت في الوقت نفسه. كانت ألوانه نحاسية، بلون العملات، ولون الذهب والفضة. وكان الرجال الذين اختفوا خلف طاولة اللعب صامتين، لا يسمع إلا صوت تنهدهم بعد كل لعبة، وهم ينتظرون اللعبة التالية. «الواحدة وخمس وأربعون دقيقة. . . » كان صوت الساعة ينعي ساعة باردة من نهار بارد في عام أكثر برودة.

ـ ماذا بك يا مونتاج؟

فتح «مونتاج» عينيه. كان صوت الراديو في مكان ما يطن: «قد يتم إعلان الحرب في أي ساعة. هذا البلد مستعد دائمًا للدفاع عن...».

ارتعد مبنى المطافئ لمرور سرب ضخم من الطائرات النفاثة مُصْدِراً صفارة واحدة عبر السماء السوداء لذلك الصباح.

فتح «مونتاج» عينيه وأغمضهما بسرعة بينما كان «بيتي» ينظر إليه وكأنه ينظر إلى تمثال في متحف. في أي لحظة قد يقوم «بيتي» من مكانه ويقترب منه، ويلمسه، ويختبر ضميره، ويضع يده على ما يشعر به من ذنب. ذنب؟ أي نوع من الذنب هذا؟

اللعب يا مونتاج.

نظر «مونتاج» إلى هؤلاء الرجال الذين اشتعلت وجوههم بآلاف الحرائق الحقيقية، وعشرات الآلاف من الحرائق المتخيلة. هؤلاء الرجال تشتعل خدودهم وعيونهم بتأثير وظيفتهم. ينظر كل منهم إلى شعلة ولاّعته البلاتينية، وهو يشعل غليونًا أسود لا ينطفئ أبدًا. الشعر أسود متفحم، والحاجبان بلون السخام، والخدان بلون الرماد الأزرق المائل إلى السواد على الرغم من الحلاقة المتأنية. أحس «مونتاج» بالدهشة، وفتح فمه. لم ير في حياته رجل إطفاء إلا وكان لون شعره وحاجباه أسود، ووجهه مشتعلاً، ووجنتاه بلون الصلب الأزرق، تبدوان حليقتين وغير حليقتين في آن واحد. بدا كل من هؤلاء الرجال وكأنه صورته هو في المرآة. فهل يتّم اختيار رجل الإطفاء لشكله بالإضافة إلى استعداده وميوله. هل من شروط القبول أن يميل اللون إلى لون الرماد، وأن تنبعث باستمرار رائحة دخان الغليون. ها هو

كابتن «بيتي» يقف وسط جبال من السحب السوداء، يفتح علبة جديدة من التبغ، ويطبق بيده على الورق السوليفان مُصْدراً صوتًا كصوت اشتعال النيران. نظر «مونتاج» لأوراق اللعب في يده:

ـ كنت . . . كنت أفكر. في حريق الأسبوع الماضي. في الرجل الذي اكتشفنا مكتبته. ماذا حدث له؟

ـ أخذوه إلى المصحة النفسية وهو يصرخ.

ـ لم يكن عقله مختلاً.

رتب «بيتي» أوراقه في هدوء، ثم قال:

ـ الرجل الذي يعتقد أنه يستطيع أن يخدع النظام، ويخدعنا ـ هو بالتأكيد مختل عقلياً.

ـ حاولت ذات مرة أن أتخيل شعوري أقصد كيف سيكون شعورنا إذا قام رجال إطفاء بإشعال النيران في منازلنا، وكتبنا؟

ـ ولكن نحن لا نحتفظ بكتب.

ـ فلنفترض أن لدينا بعض الكتب.

ـ هل لديك بعض الكتب؟

سأل بيتي هذا السؤال وهو يغمض عينيه ببطء.

ـ «لا».

نظر «مونتاج» بعيداً حيث كان الحائط خلف الرجال مغطى بقوائم مطبوعة بعناوين ملايين الكتب الممنوعة. قفزت تلك العناوين أمام عينيه عبر السنين، تحت فأسه والخرطوم الذي يخرج منه الكيروسين بدلاً من الماء. قال لا، بينما في أعماقه هبت ريح باردة من وراء قضبان

النافذة في منزله، سرت برودتها في رفق إلى وجهه فأنعشته. مرة أخرى، رأي نفسه في حديقة خضراء، يتحاور مع رجل عجوز، عجوز جداً، بينما كانت الرياح في الحديقة باردة أيضًا.

تردد «مونتاج» قبل أن يسأل:

- هل... هل كان الأمر دومًا كما هو الآن؟ مبنى المطافئ، والعمل؟ أقصد... حسنًا... في يوم من ذات الأيام.

- في يوم من ذات الأيام؟ أي أسلوب هذا؟

غبي، قال «مونتاج» لنفسه، سوق تكشف كل شيء. في آخر حريق، كتاب حكايات وأساطير. لمح سطراً واحداً. استطرد:

- أقصد في الماضي، قبل أن تكون البيوت ضد الحريق.

فجأة شعر «مونتاج» وكأن شخصًا أصغر بكثير هو الذي يتكلم. كان فقط يحرك شفتيه، فينطلق منها صوت كلاريس ماكليلان وهي تتساءل: «ألم يكن دور رجال الإطفاء هو إطفاء الحرائق وليس إشعالها؟».

- رائع حقًا.

فتح «ستونمان» و«بلاك» كتاب القواعد الخاص بهما، تضمن الكتاب أيضًا نبذة عن تاريخ رجال الإطفاء في أمريكا، عرضا على «مونتاج» أن يقرأ ما في هذا الكتاب من معلومات كان يعرفها جيداً، فيقرأ مثلاً:

أنشئت عام ١٩٧٠ وكان الهدف منها إحراق الكتب المتأثرة بإنجلترا

والتي يتم العثور عليها داخل المستعمرات. ويعد أول رجل إطفاء في تاريخ أمريكا هو «بنجامين فرانكلين».

القاعدة الأولي: استجب لجرس الإنذار بسرعة.

الثانية: اشعل النيران من فورك.

الثالثة: أحرق كل شيء.

الرابعة: قم بإبلاغ مبنى المطافئ على الفور.

الخامسة: ابق مستعداً لأي إنذار آخر.

تركزت الأنظار على «مونتاج». لم يتحرك. ارتفع صوت جرس الإنذار. تحرك بندول الجرس ما يقرب من مائتي مرة. وفجأة كان هناك أربعة كراس خالية. سقطت أوراق اللعب بدون نظام كذرات الثلج تبعثرها العاصفة. اهتز العمود النحاسي. اختفي الرجال. بينما تسمر «مونتاج» في مقعده.

في الطابق الأرضي كان التنين البرتقالي يسعل عائداً للحياة. هنا نزل «مونتاج» على العمود وكأنه في حلم.

قفز كلب الصيد الآلي داخل بيته، والشرر الأخضر يلمع في عينيه.

ـ مونتاج، لقد نسيت الخوذة.

التقط الخوذة من على الحائط خلفه، ثم راح يجري، ويقفز، وانطلق الجميع بينما كانت رياح الليل تدق رداً على صفارة الإنذار التي يطلقونها، وعلى صليل المعادن الهائل الصادر عن موكبهم كأنه الرعد. كان المنزل هذه المرة مكوناً من ثلاثة طوابق، كان طلاؤه قد تقشّر، وكان يقع في الحي القديم من المدينة، بدا قديماً حتى وإن كان حديث البناء.

وككل المنازل تم طلاؤه منذ عدة سنوات بطبقة بلاستيكية رقيقة مضادة للحريق، ويبدو أن هذه الطبقة الرقيقة الواقية كانت الشيء الوحيد الذي أمسك بالمنزل كي لا يطير في السماء.

ـ هنا.

توقف المحرك فجأة مُصدرًا صوتًا صاخبًا، جرى «بيتي»، و«ستونمان» و«بلاك» على الممر الجانبي للمنزل. بدوا ممتلئين و كان مظهرهم كريهًا وهم يلبسون السترات المتفخة المضادة للحريق. جرى «مونتاج» خلفهم. حطموا الباب الأمامي، وأمسكوا بسيدة على الرغم من أنها لم تكن تجري أو تحاول الهرب. كانت واقفة تتمايل من ناحية إلى أخرى، بينما تسمرت عيناها على فراغ في الحائط، وكأن أحدهم قد ضرب رأسها ضربة عنيفة. كان لسانها يتحرك في فمها، و عيناها وكأنهما تحاولان أن تتذكرا شيئًا ما، وفجأة تذكرا هذا الشيء، فتحرك لسانها مرة أخرى لتقول:

ـ كن رجلاً يا ماستر ريدلي[١]، فاليوم سنضيء تلك الشمعة، والتي ستظل ببركة الرب تضيء إنجلترا إلى الأبد، وكلي ثقة أن أحدًا لن يقدر على إطفائها[٢].

---

(١) يستخدم اللقب ماستر Master (Capital M) للإشارة إلى زعيم ديني موقر.

(٢) تقتبس السيدة هنا مقولة تاريخية للأسقف هيو لاتيمار، أحد شهداء أكسفورد الثلاثة الذين أعدموا حرقًا لاتجاهاتهم الدينية البروتستانتية بأمر من الملكة ماري ملكة إنجلترا في السادس عشر من أكتوبر ١٥٥٥، كان من بينهم أيضًا الأسقف نيكولاس ريدلي، والأسقف توماس كرانمار، والاقتباس من كلمات لاتيمار التي قالها لرفيقه ريدلي قبل إشعال النار في أجسادهما، يوحي بوعي تلك السيدة بالتاريخ، ويربط بينها وبين هؤلاء الشهداء باعتبارها هي أيضًا شهيدة تتحدى الظلم وتتبنى الحق والمعرفة (المترجمة).

ـ كفى . أين هي؟

ـ صفعها على وجهها بموضوعية مذهلة ، ثم أعاد السؤال . تركزت عينا السيدة على «بيتي» ثم قالت :

ـ أنت تعرف مكانها جيداً وإلا لما جئت .

أمسك «ستونمان» بالبلاغ التليفوني ، وبنسخة من الشكوى التي تقول :

هناك شك كبير في المنزل رقم ١١ مدينة إلم .

الإمضاء : إ . ب .

قالت السيدة بعد أن قرأت الحروف الأولى من اسم محرر البلاغ :

ـ إنها بالتأكيد مسز «بليك» ، جارتي .

ـ حسنًا . أيها الرجال . هيا بنا .

انطلقوا من فورهم إلى ظلمات عطنة ، يقحمون مفاتيح فضية في أبواب لم تكن في الأصل مغلقة . يتعثرون كصبية تلعب وتصيح .

ـ هاي .

سيل من الكتب انهمر فوق رأس «مونتاج» بينما صعد وهو يرتجف إلى أعلى بئر السلم . شيء مزعج . كان الأمر في الماضي أشبه في سهولته بإطفاء شمعة . كانت الشرطة تدخل أولاً ، تكتم فم الضحية بشريط لاصق ، ثم تكبله ، وترمي به في العربات البيتل اللامعة ، كنا نصل لنجد منزلاً خاليًا .إذن فنحن لا نؤذي أحدًا ، وإنما نؤذي أشياء . وبما أن الأشياء لا تشعر بالأذى ، ولا تصرخ أو تنتحب ، كما قد تفعل

هذه المرأة الآن، فليس هناك ما يشعرك بتأنيب الضمير لاحقًا. فأنت فقط كنت تقوم بالتنظيف، كما يفعل أي بواب أو عامل نظافة. تضع كل شيء في مكانه الطبيعي. أسرع بسكب الكيروسين! أين الثقاب؟

لكن الأمر اليوم مختلف. شخص ما قد تسلل إلى المشهد. هذه السيدة قد أفسدت الطقس. كان الرجال يرفعون أصواتهم، يضحكون، يتناوبون إلقاء النكات، ليغطوا على صمتها الرهيب الناطق باللوم من الطابق السفلي. جعلت الحجرات الخالية تصرخ معاتبة، والجدران تهتز فيسقط الذنب ترابًا دقيقًا يزكم أنوفهم قبل أن ينصرفوا. لم يكن ما فعلوه نبلاً ولا عدلاً. شعر مونتاج بضيق هائل. لا يصح أن تكون هذه المرأة هنا، تهيمن على كل شيء.

انهالت الكتب على كتفيه، على ذراعيه، وعلى وجهه الناظر إلى أعلى. سقط أحد الكتب في يديه مستسلمًا كحمامة بيضاء يرفرف جناحاها. وفي الضوء الخافت المتقطع، انفتحت صفحة من الكتاب، وبدت الكلمات بداخلها وقد نُقشت بعناية، وكأنها ريشة بديعة سقطت في الجليد. لم يتسع الوقت لقراءة أكثر من سطر واحد، سطر قرأه في لحظة، لكنه توهج في رأسه لدقيقة كاملة وكأنه محفور بالصلب الناري. «الزمن غلبه النعاس، تحت شمس ما بعد الظهيرة». ترك الكتاب يسقط، وإذا بآخر يقع على صدره.

ـ «أين أنت يامونتاج؟ اصعد إلى أعلى».

قبضت يد «مونتاج» على الكتاب وكأنها فم يعض، سحب الكتاب إلى صدره في وله عنيف... في جنون توقُف عقله عن العمل. كان الرجال في الطابق الأعلى ينزحون أكوامًا من المجلات و يقذفون بها

وسط الهواء المعبأ بالتراب. كانت المجلات تسقط كالطيور المذبوحة بينما وقفت المرأة كطفلة صغيرة وسط الركام.

لم يفعل مونتاج شيئًا. وإنما فعلت يده كل شيء. يده بعقل مستقل.. بضمير خاص بها.. بالفضول يرتعش في كل إصبع، تحولت إلى لص. واليوم دفعت هذه اليد بالكتاب ليغوص تحت ذراعه، وضغطت عليه بقوة تحت إبط مبلل بالعرق، ثم أسرع بالخروج كساحر محترف. انظر! بريء! انظر.

دقق النظر وهو يرتعد في يده البيضاء. مد ذراعه ليبعدها، وكأنه يعاني من بعد النظر. ثم قربها من وجهه وكأنه أعمى[1].

ـ مونتاج.

انتفض فجأة.

ـ لا تقف هكذا أيها الأبله.

بدت الكتب وكأنها كومة من السمك المتروك لكي يجف. رقص الرجال وتزحلقوا وتساقطوا فوقها. لمعت العناوين الذهبية كالعيون قبل أن تغمض إلى الأبد.

ـ كيروسين!

بدأوا في ضخ السائل البارد من الخزانات المحمولة فوق ظهورهم

---

(١) يستدعي هذا المشهد مشاهد من مسرحية «ماكبث» لوليام شكسبير، حيث يدفع الإحساس بالذنب الليدي «ماكبث» إلى إمعان النظر في يديها، ويبدو أن «برادبري» يستثمر معرفة القارئ بتلك المسرحية الكلاسيكية فيصور إحساس «مونتاج» باستخدام صور مشابهة للصور الشكسبيرية.

والتي تحمل رقم ٤٥١ . غطى السائل كل الكتب، وغمر كل الحجرات. ثم أسرعوا بالنزول إلى الطابق السفلي، يتبعهم مونتاج وهو يتعثر في رائحة الكيروسين.

ـ هيا، يا امرأة.

ركعت المرأة وسط الكتب، تلمس يداها أغلفتها الجلدية والكرتونية المبللة، وتتحسس بأصابعها العناوين الذهبية البارزة بينما تتهم عيناها «مونتاج». قالت:

ـ لن تأخذوا كتبي أبدًا.

قال بيتي:

أنت تعرفين القانون. ثم أين فطرتك السليمة؟ لا يوجد بين هذه الكتب كتاب يتفق في الرأي مع كتاب آخر. لقد كنت تعيشين في هذا المنزل لسنوات طويلة حبيسة مع برج بابل الملعون. آن الوقت أن تتحرري. فالناس في هذه الكتب لم يعيشوا قط. هيا بنا الآن.

هزت رأسها.

قال بيتي:

ـ المنزل بأكمله سينفجر.

مشى الرجال وقد بدا عليهم الغباء نحو باب المنزل. التفتوا لينظروا إلى «مونتاج»، الذي ظل واقفًا بالقرب من السيدة. احتج قائلاً:

ـ لن تتركها هنا. أليس كذلك؟

ـ لن تأتي معنا.

ـ إذن، نجبرها على أن تتحرك.

رفع بيتي يده فظهرت الولاعة التي كان يخفيها، ثم قال:

- يجب أن نعود إلى مبنى المطافئ في أقرب وقت. بالإضافة إلى ذلك، فإن المتعصبين من أمثال هذه السيدة دائمًا يلجأون للانتحار، وهذا الطراز معروف لدينا.

وضع «مونتاج» يده على ذراع السيدة ثم قال لها:

- تعالي معي.

- لن أتحرك، ولكن شكرًا على أية حال.

قال بيتي:

- سأعد من واحد إلى عشرة: واحد، اثنان،

توسل مونتاج إليها:

- أرجوك.

- أكمل العد.

- ثلاثة، أربعة.

جذب مونتاج السيدة من ملابسها، فأجابته بهدوء:

- أنا أريد أن أبقى هنا.

- خمسة، ستة.

- تستطيع أن تتوقف عن العد.

قالت السيدة ذلك وهي تفتح قبضة يدها ليظهر في كفها شيء صغير، علبة ثقاب عادية.

بمجرد رؤية العلبة هرع الرجال إلى خارج المنزل وجروا ليبتعدوا عنه. أما كابتن «بيتي» فحاول الاحتفاظ بوقاره. تقهقر في هدوء خارجًا من باب المنزل الرئيس، وقد اشتعل وجهه الوردي بفعل آلاف الحرائق التي أشعلها وآلاف المواقف المثيرة المشابهة. يا إلهي، فكر مونتاج، كم هو حقيقي! دائمًا يأتي الإنذار ليلاً. لا يأتي أبدًا خلال النهار. هل لأن النار تبدو أكثر بهاء في الليل؟ مشهد أكثر جاذبية، عرض أفضل؟ ظهرت مسحة من الخوف على وجه «بيتي» الوردي قبل أن يصل إلى الباب. ارتعشت يد السيدة وهي تنتزع عود ثقاب. توهج الكيروسين من حولها. أحس «مونتاج» بالكتاب المختبئ ينبض في صدره كأنه قلب.

قالت له السيدة:

ـ اذهب.

وجد «مونتاج» نفسه يبتعد أكثر فأكثر حتى خرج من الباب، خلف بيتي، ثم نزل على السلم المُفْضي إلى العشب المحيط بالمنزل، حيث شق الكيروسين طريقًا بطيئًا، وكَأنه أفعى شريرة. تبعته المرأة لتقف ساكنة في شرفة الطابق الأرضي، وتلقي عيناها عليهم حملاً ثقيلاً.

نقر «بيتي» بإصبعيه ليعطي إشارة إشعال الكيروسين.

ولكن إشارته جاءت متأخرة، كان «مونتاج» يلهث.

نظرت السيدة الواقفة في الشرفة إليهم جميعًا نظرة احتقار، ثم حكَت عود الثقاب بقوة في سور الشرفة.

هرول الناس خارجين من بيوتهم ووقفوا في الشارع.

لم يتكلم أيّ منهم طوال الطريق إلى مبنى المطافئ. بل لم ينظر أي منهم لزميله. كان مونتاج يجلس في المقعد الأمامي مع «بيتي» و«بلاك». لم يدخن أي منهم غليونه. كانوا جالسين في صمت ينظرون إلى مقدمة السمندر الرهيب بينما كان ينعطف حول زاوية، أو يسير في خط مستقيم.

وأخيراً قطع «مونتاج» الصمت قائلاً:

ـ ماستر ريدلي؟

ـ ماذا؟

ـ كانت المرأة تقول «ماستر ريدلي»، وأشياء أخرى عجيبة عندما دخلنا من الباب. «كن رجلاً»، ثم قالت «يا ماستر ريدلي» ثم كلمات، وكلمات، وكلمات».

قال بيتي:

ـ اليوم سنضيء تلك الشمعة، والتي ستظل ببركة الرب تضيء إنجلترا إلى الأبد، وكلي ثقة أن أحداً لن يقدر على إطفائها.

نظر «ستونمان» و«مونتاج» إلى الكابتن في ذهول.

حك «بيتي» ذقنه وهو يقول:

ـ هذه الكلمات قالها رجل يدعى «لاتيمار» «لآخر يدعى نيكولاس ـ ريدلي» وهما يحترقان. وكانا قد حكم عليهما بالإعدام حرقاً بتهمة الهرطقة، في السادس عشر من أكتوبر عام ١٥٥٥ .

عاد «مونتاج» و«ستونمان» للنظر إلى الطريق وهو يجري تحت عجلات المركبة.

ـ يمتلئ عقلي بالكثير من هذه القصاصات. وهكذا يجب أن يكون بصفتي القيادية في فريق العمل. أحيانًا أفاجأ بما لدي من معرفة. ستوغان! انتبه!

ـ اللعنة. أنت تسير إلى الأمام، وتخطيت الشارع المؤدي لمبنى المطافئ.

ـ من بالخارج؟

أجاب «مونتاج» وهو يسند ظهره على الباب المغلق في الظلام:

ـ من عساه أن يكون؟

أخيرًا قالت زوجته:

ـ حسنًا. فلتضئ النور.

ـ لا أريد النور.

ـ تعال لتنام.

سمعها تتقلب وأحس بأنها تشعر بالضيق. أصدر «الزنبرك» الحديدي في مرتبة السرير صوتًا كالبكاء.

ـ هل أنت ثَمِل؟

إذن فيده هي التي بدأت كل شيء. شعر بإحدى يديه ثم باليد الأخرى وهي تحرره من الجاكيت. أمسك بسرواله ثم خلعه وتركه يسقط في الظلام. كانت يداه مصابتين بعدوى. شعر أن العدوى سرعان ما انتقلت إلى ذراعيه. كان يشعر بالسم يسري في معصمه ويصعد إلى المرفق، ويتسرب إلى الكتفين، يقفز من كتف إلى آخر كأنه

الشرر. كانت يداه نهمتين، وبدأت عيناه أيضًا تشعران بالجوع، كأنهما تحتاجان بشدة إلى أن تنظرا إلى شيء ما، أي شيء. سألته زوجته:

ـ ماذا تفعل؟

اعتدل واقفًا وهو يمسك الكتاب بأصابعه المبتلة الباردة. بعد دقيقة قالت:

ـ لا تقف هكذا في منتصف الحجرة؟

أصدر صوتًا خافتًا. فسألته:

ـ ماذا قلت؟

أصدر أصواتًا أخرى غير مفهومة. تعثر وهو يتجه إلى السرير، ودس الكتاب في استعجال تحت الوسادة الباردة. سقط على السرير، بينما صرخت زوجته في فزع. رقد على سريره في آخر الحجرة بعيداً عنها. فوق جزيرة باردة، يفصلهما بحر فارغ. تكلمت معه لفترة بدت طويلة، تكلمت عن هذا، وتكلمت عن ذاك. كان الأمر كله كلمات. كالكلمات التي كان قد جاءته ذات يوم من روضة أطفال بينما كان يجلس في منزل أحد الأصدقاء. طفل عمره سنتان يحاول أن يركب الكلمات، يتحدث بكلمات غير مفهومة، يصدر أصواتًا جميلة في الهواء. لكن «مونتاج» لم ينطق بكلمة. وبعد فترة طويلة، أحس بها تتحرك في الغرفة. تأتي إلي فراشه، وتتوقف عنده، وتمد يدها لتتحسس خديه. كان يعرف أن يدها قد ابتلت بعد أن لمست وجهه.

نظر بعد ذلك إلى «ميلدريد» في ساعة متأخرة من الليل، فإذا بها يقظة. سمع صوت لحن يتراقص بخفة في الهواء. كانت قوقعة البحر لا تزال محشورة في أذنها، وكانت تستمع لأُناس بعيدين في أماكن

بعيدة. كانت عيناها مفتوحتين تحملقان في أعماق الظلمة في سقف الغرفة.

ألم تكن هناك نكتة شهيرة عن ذلك الرجل الذي كانت زوجته تتكلم لساعات طويلة في التليفون، فلما يئس توجه إلى أقرب محل واتصل بها تليفونيًا ليسألها ماذا أعدت للعشاء؟ إذن من الممكن أن يشتري هو محطة للإرسال عبر سماعات قواقع البحر، ليكلم من خلالها زوجته، في آخر الليل، يتمتم، يهمس في أذنها، ينفجر، يصرخ، يصيح؟ ولكن ماذا سيقول لها إذا أراد أن يهمس، أو قرر أن ينفجر. ما الذي سيقوله؟

فجأة أحس أنها بعيدة عنه كل البعد، وأنه لا يصدق أنه عرفها يومًا ما. هو الآن في منزل رجل آخر، كتلك النكتة الأخرى عن الرجل الذي صعد وهو ثمل إلى منزل رجل آخر، ففتح الباب، ودخل إلى غرفة النوم، ثم نام مع امرأة لا يعرفها. بعد ذلك استيقظ مبكرًا، وذهب إلى عمله دون أن يشعر كما لم تشعر زوجة الرجل الآخر بأن شيئًا غريبًا قد حدث. همس قائلاً:

ـ ميلي.

ـ ماذا؟

ـ لم أقصد أن أضايقك؟ ولكن كنت أريد أن أعرف.

ـ ماذا؟

ـ متى وأين كان لقاءنا؟

ـ أي لقاء، وفي أية مناسبة؟

ـ لا، أقصد لقاءنا الأول.

توقع أنها قد قطبت جبينها في الظلام. فحاول أن يوضح:

ـ أول لقاء لنا، متى كان؟ وأين كان؟

ـ بالطبع كان في . . .

توقفت عن الكلام، ثم قالت:

ـ لا أعرف.

شعر ببرودة شديدة، ثم قال:

ـ لا تتذكرين.

ـ لا، فقد مر وقت طويل.

ـ عشر سنوات فقط، عشر فقط لا غير.

ـ لا تنفعل، أنا أحاول أن أتذكر.

ضحكت ضحكة غريبة وقصيرة لكنها كانت تعلو أكثر فأكثر. ثم قالت:

ـ شيء مضحك حقًا، أن تحاول أن تتذكر متى التقيت بزوجك أو زوجتك.

جعل يُدلّك عينيه، وحاجبيه، وقفاه في بطء. وضع يديه على عينيه، ثم أخذ يضغط ضغطًا متواصلاً وكأنه يعيد الذاكرة إلى مكانها. فجأة أصبح أكثر ما يعنيه في الحياة بأكملها هو أين ومتى التقى بميلدريد؟

ـ لا يهم.

كانت في الحمام، وسمع صوت الماء يجري، وصوتها وهي تبتلع الأقراص المنومة.

ـ أعتقد، أنه مهم.

حاول أن يتذكر كم مرة سمع صوت ابتلاع الأقراص، وتذكر زيارة الرجلين ذوي الوجهين المطليين بأكسيد الزنك، السيجارة في فم على شكل خط مستقيم، وذلك الثعبان ذا العين الإلكترونية الذي يتلوي وينزل في طبقات من تحتها طبقات من الظلام والحصى والمياه الراكدة. لهذا أراد أن يسألها بصوت عال: كم أخذت الليلة؟ كم قرصًا؟ وكم ستأخذين بعد قليل؟ وكم تبتلعيّن كل ساعة؟ الليلة؟ أو ربما ليلة غد؟ وهل سأبقى مستقيظًا لساعات الليلة أو غدًا؛ لأنها ابتلعت كل هذه الأقراص؟ فكَّرَ في أمرها وهي ترقد على السرير، بينما يقف الرجلان مستقيمى القامة، لا ينحنيان في قلق، وإنما يقفان مستقيمى القامة، وقد طويا ذراعيهما على صدريهما. وتذكر أنه كان يفكر حينئذ في أنه بالتأكيد لن يبكي لو ماتت. فالأمر لن يتعدى كونه وفاة امرأة لا يعرفها. . . وجهُ رآه في طريق ما. . . صورة في جريدة. وبدا الأمر غريبًا لدرجة أنه انخرط في البكاء، ليس بكاء على ميت، وإنما لفكرة عدم البكاء عند الموت. رجل سخيف خاو بالقرب من امرأة سخيفة خاوية، يجعلها الثعبان الجائع أكثر خواءً.

تعجب. كيف أصبحت خاويًا لهذه الدرجة؟ من الذي أفرغ ما بك هكذا؟ وتلك الزهرة اللعينة، ذلك اليوم. زهرة الهندباء! حسمت كل شيء، أليس كذلك؟ «يا للعار! أنت لا تحب أحدًا!» ولماذا؟

بالطبع! ألم يكن هناك حائط بينه وبين «ميلدريد». الحقيقة أنها ثلاثة حوائط ـ إلى الآن ـ وليس حائطًا واحدًا. ثلاثة حوائط كلفته الكثير! أضف إلى ذلك الأعمام، والعمات، الأخوال، والخالات، وأبناء وبنات العم والعمة والخال والخالة، وأبناء وبنات الإخوة

والأخوات الذين يتحركون على هذه الحوائط. يشبه كلامهم ثرثرة القِرَدة فوق الأشجار، ماذا يقولون؟ لا شيء، لا شيء، لا شيء. لكن صَوتهم مرتفع، مرتفع، مرتفع. تعود منذ البداية أن يسميهم العائلة! كان يسألها: «كيف حال العم «لويس» اليوم؟» ومن أيضًا؟ «آه الخالة مود؟» كانت أهم صورة لميلدريد في ذاكرته، هي صورة فتاة صغيرة تائهة في غابة بلا أشجار. أو فتاة صغيرة تائهة في سهل واسع مرتفع خال من الأشجار بعد أن كانت تملأه فيما مضى (تستطيع أن ترى آثار الأشّجار في كل مكان) تراءت له هذه الصور بينما كان ينظر إليها وهي تجلس في وسط حجرة المعيشة. حجرة المعيشة حقًا. ياله من اسم على مسمى! في أي وقت يعود إلى المنزل من ليل أو نهار، يجد الحوائط تعج بالمعيشة، وأفراد «العائلة» يكلمون «ميلدريد» في كل وقت.

ـ علينا أن نفعل شيئًا.

ـ نعم، علينا أن نفعل.

ـ إذن، لماذا نقف هنا نتكلم؟

ـ فلنفعل شيئًا.

ـ فلنفعل شيئًا.

ـ إنني متوتر لدرجة كبيرة. أريد أن أبصق على أحد.

ما الموضوع؟ لم تستطع «ميلدريد» أن تحدد. من غاضب من مَن؟ لم تكن ميلدريد تعرف. ما الذي سيفعلونه؟ قالت «ميلدَريد» في نفسها: حسنًا، فلننتظر كي نرى ما سوف يحدث.

انتظر خارج الغرفة ليرى.

عاصفة رعدية من الأصوات تتدفق من الحوائط. قذائف من

الموسيقي الصاخبة قصفت بجسمه لدرجة أوشكت أن تفصل الجلد عن العظم. أحس بأسنانه يصطك بعضها بعض، وبعينيه تتذبذب داخل جمجمته. كان ضحية للارتجاج. عندما توقفت الموسيقى، شعر وكأنه هوى من منحدر شاهق، دخل في جهاز طرد مركزي طرده بعيداً عن المركز ليسقط على شلال يسقط سريعًا على لا شيء، ثم لا شيء، فلا يصل أبدًا ـ إلى ـ القاع ـ أبدًا ـ أبدًا ـ لا يصل ـ إلى ـ القاع، كان السقوط سريعًا لدرجة أنك لا تلمس الجدران أيضًا. . . لا. . . تلمس. . . أي. . . شيء.

تلاشت العاصفة الرعدية. انتهت الموسيقي. قالت «ميلدريد»:

ـ هاهي ذي.

كان أمرًا ملحوظًا، شيء ما حدث. على الرغم من أن الأشخاص على الحائط لم يتحركوا تقريبًا، وأن نقاشًا من أي نوع لم يدر أصلاً. تشعر كأن أحدهم قد قام بتشغيل غسالة الملابس، أو أنك قد انجذبت في مكنسة كهربائية عملاقة، أو غرقت في بحر من الموسيقى المزعجة والنغمات المتنافرة. خرج من الحجرة يتصبب عرقًا، وعلى شفا انهيار تام. جلست «ميلدريد» خلفه في كرسيِّها، بينما أتى الصوت مرة أخرى. قالت إحدى الخالات:

ـ الآن كل شيء سيكون على ما يرام.

فأجابها أحد أبناء الخالة:

ـ لا تطمئني إلى هذا الحد.

ـ المهم ألا تشعر بالغضب.

ـ من يشعر بالغضب؟

ـ أنت .

ـ أنا؟

ـ أنت منفعل جداً .

ـ ولماذا أنفعل؟

ـ لأن!

فجأة صاح «مونتاج» :

ـ شيء عظيم جداً . ولكن ما الذي سبب لهم هذا الانفعال؟ من هؤلاء الناس أصلاً؟ من يكون هذا الرجل ، وهذه السيدة؟ هل هما زوجان؟ هل هما مطلقان ، مرتبطان؟ أم ماذا؟ يا إلهي الكريم ، لا يوجد أي ارتباط منطقي في أي شيء .

قالت «ميلدريد» :

ـ إنهما . . . إنهما . . . هناك خلاف بينهما كما ترى . إنهما بالتأكيد في شجار دائم . عليك أن تستمع جيداً . أعتقد أنهما زوجان . نعم . نعم هما زوجان . لماذا؟

لو لم يكن هناك الحوائط الثلاثة ـ الذين سيصبحون أربعة عما قريب ، ليتحقق الحلم ـ لكانت هناك سيارة ميلدريد المفتوحة ، تقودها بسرعة مائة ميل في الساعة عبر المدينة ، بينما هو يصيح ؛ لتسمعه ، وهي تصيح أيضًا ؛ ليسمعها ، ولكن ، لا يسمع أيهما غير صوت السيارة وهي تصرخ . صرخ قائلاً :

ـ خفِّضي السرعة .

ـ ماذا تقول؟

ـ أقول يكفي أن تكون السرعة ٥٥ ميلاً في الساعة .

ـ عمَّ تتكلم؟

صرخ بأعلى صوته:

ـ السرعة!

فما كان منها إلا أن زادت من سرعتها إلى مائة وخمسة أميال في الساعة؛ لتنتزع أنفاسه من فمه.

عندما خرجا من السيارة كانت قد حشرت قوقعتي البحر داخل أذنيها.

هدوء. لم يسمع إلا صوت الريح تهب برفق في الخارج. ناداها وهو يتحرك في السرير. قام ليصل إليها ثم جذب الحشرة الموسيقية وأخرجها من أذنها.

ـ ميلدريد. ميلدريد.

أجابته بصوت خافت:

ـ ماذا؟

شعر كأنه واحد من تلك المخلوقات المُنْدَسَّة إلكترونيًا بين ذرات الحوائط الصوتية الضوئية الملونة، وأنه يتكلم لكن كلامه محبوس خلف الحاجز البلوري. كان كل ما يستطيع أن يفعله هو أن يمثل تمثيلاً صامتًا على أمل أن تنظر إليه. أما أن يلمسها من خلف الزجاج فهذا هو المستحيل. قال:

ـ ميلدريد، هل تعرفين تلك الفتاة التي حدثتك عنها؟

قالت وهي نائمة تقريبًا:

ـ أية فتاة؟

ـ الفتاة التي تعيش في المنزل المجاور لنا.

ـ أي منزل مجاور.

ـ فتاة الصف الثانوي. اسمها «كلاريس».

ـ نعم، نعم، تذكرتها.

ـ لم أرها منذ بضعة أيام. أربعة أيام على وجه التحديد. هل رأيتها مؤخرًا؟

ـ لا.

ـ كنت أنوي أن أحدثك بشأنها. شيء عجيب.

ـ أعرف الفتاة التي تقصدها.

ـ كنت أعرف أنك تعرفين.

قالت «ميلدريد» في الحجرة الظلمة:

ـ هي . . .

ـ هي ماذا؟

ـ كنت أنوي أن أخبرك. نسيت. نسيت.

ـ إذن أخبريني الآن. ماذا عنها؟

ـ أعتقد أنها رحلت.

ـ رحلت؟

ـ الأسرة كلها انتقلت للعيش في مكان آخر، أما هي فقد رحلت إلى الأبد. أعتقد أنها ماتت.

ـ أنت بالتأكيد تتكلمين عن فتاة غير التي أقصدها.

ـ لا. هي الفتاة نفسها. ماكليلان. ماكليلان. صدمتها سيارة. منذ أربعة أيام. لست متأكدة، ولكني أعتقد أنها ماتت. على أية حال فقد رحلت أسرتها من هنا. لا أعرف بالتحديد، لكني أعتقد أنها ماتت.

ـ لست متأكدة.

ـ لست متأكدة، تقريبًا متأكدة.

ـ لماذا لم تخبريني قبل ذلك.

ـ نسيت.

ـ منذ أربعة أيام!

ـ نسيت الموضوع كله.

تمتم قائلاً، وهو يرقد:

ـ منذ أربعة أيام. كان كلاهما مستلقٍ في الحجرة المظلمة بدون حركة، وأخيراً قالت:

ـ تصبح على خير.

سمع صوت خشخشة خافت. تحركت يدها. زحفت السماعة الصغيرة على الوسادة كفرس النبي، لمستها يدها، وها هي الآن تستقر في أذنها مرة أخرى، ليبدأ الطنين من جديد.

أنصت جيداً. كانت زوجته تغني.

في الخارج كان هناك ظل يتحرك. رياح خريفية هبت ثم توقفت تدريجيًا. لكنه سمع صوتًا آخر في الظلام، وكأن كائنًا يخرج زفيراً

خلف النافذة، أو كأنه تيار خفيف من دخان أخضر لامع، أو حركة صاخبة لأوراق الشجر في شهر أكتوبر ترميها الرياح فوق العشب ثم تحملها بعيداً.

فكر بينه وبين نفسه في كلب الصيد. هو في الخارج هذه الليلة. بل هو في الخارج الآن. إذا فتحت النافذة...

لم يفتح النافذة.

كان يعاني من حمى ورعشة في الصباح. قالت «ميلدريد»:

ـ لا يمكن أن تكون مريضاً.

أغمض عينيه محتفظاً بالسخونة في داخلها، ثم قال:

ـ أنا مريض.

ـ ولكنك كنت بخير ليلة أمس.

ـ لا، لم أكن بخير.

سمع صوت مسلسل العائلة يأتي من غرفة الصالون.

نظرت إليه «ميلدريد» في فضول. شعر بها تقف فوق رأسه. كان يراها دون أن يفتح عينيه. كان يرى شعرها وقد تحول بفعل الكيماويات إلى قش ضعيف، وعينيها وقد أصابهما الماء الأبيض، لا يراه الناظر لكن يشك بوجوده خلف بؤبؤ العين. كان لون شفتيها أحمر لا يفارقهما الإنتاء[1] أما جسمها فكان كفرس النبي من كثرة اتباع الأنظمة الغذائية للتخسيس، بينما كان لون بشرتها كلون شحم الخنزير الأبيض. كانت هذه هي صورتها الوحيدة في ذاكرته.

---

(١) التبويز (المترجمة).

ـ أريد قرص أسبرين وكوب ماء، من فضلك.

ـ يجب أن تستيقظ، الوقت الآن ظهراً. لقد نمت خمس ساعات أكثر مما تنام عادةً.

ـ من فضلك، أوقفي الأصوات التي في الصالون؟

ـ هذه أسرتي.

ـ إذن أوقفي أصواتهم إكرامًا لرجل مريض.

ـ سأخفض أصواتهم.

خرجت من الحجرة ولم تفعل شيئًا ثم عادت، وسألته:

ـ أفضل الآن؟

ـ أشكرك.

ـ هذا هو برنامجي المفضل.

ـ أين قرص الأسبرين؟

ـ لم تمرض قط قبل اليوم.

ـ فعلاً، ولكني الآن مريض. ولن أذهب إلى العمل هذه الليلة. أرجوك اتصلي «ببيتي».

ـ ليلة أمس كنت تتصرف بطريقة مضحكة.

نظر إلى كوب الماء الذي قدمته له، ثم سألها:

ـ أين قرص الأسبرين؟

ـ أوه.

عادت إلى الحمام مرة أخرى. سألت:

ـ هل حدث شيء ما؟

ـ حريق، فقط لا غير.

ـ أنا أمضيت أمسية رائعة.

ـ كيف أمضيتها؟

ـ في الصالون.

ـ ما الذي كان يعرض؟

ـ برامج.

ـ أية برامج؟

ـ باقة من أفضل البرامج.

ـ ما اسمها؟

ـ الباقة، أنت تعرف هذه البرامج.

ـ نعم، الباقة. الباقة، الباقة.

ضغط على عينيه من الألم، وفجأة جعلته رائحة الكيروسين يتقيأ.

جاءت «ميلدريد» وهي تتمتم بكلام غير مفهوم. فوجئت. سألت:

ـ لماذا فعلت ذلك؟

أجاب وهو ينظر في فزع إلى الأرض:

ـ لقد أشعلنا النيران في امرأة وسط كتبها.

ـ من حسن الحظ أن السجادة يمكن غسلها بالماء.

جاءت بمسحة، ثم قالت وهي تنظف السجادة:

ـ ذهبت إلى منزل «هيلين» ليلة أمس.

ـ أكيد لم تستطيعي التقاط الإرسال على حوائط الصالون.

ـ أكيد، لكن الزيارات المنزلية شيء لطيف على أية حال.

خرجت إلى الصالون، سمعها تغني، ناداها:

ـ ميلدريد.

عادت وهي تغني وتقرقع بأصابعها في رفق.

ـ ألن تسأليني عن ليلة أمس؟

ـ عمَّ؟

ـ أشعلنا النيران في آلاف الكتب. وأشعلنا النيران في سيدة.

ـ حسنًا، ماذا حدث أيضًا.

كان الصالون ينفجر بفعل الأصوات.

ـ قمنا بإحراق نسخ من «دانتي»، و«سويفت»، و«ماركوس أوريلياس».

ـ كان أوروبيًا، أليس كذلك؟

ـ تقريبًا.

ـ و راديكاليًا؟

ـ لم أقرأ أيًا من كتبه.

ـ بل كان راديكاليًا.

قالت ذلك وهي تعبث بسلك التليفون.

ـ لعلك تظن أنني سأقوم بالاتصال بكابتن «بيتي».

ـ يجب أن تفعلي ذلك.

ـ لا ترفع صوتك.

ـ لم أرفع صوتي.

كان قد اعتدل جالسًا في السرير، وقد احمر وجهه فجأة وبدا غاضبًا، بل كان يرتعد، بينما ظل الصالون يزأر في ذلك الهواء الحار. قال:

ـ لا أستطيع أن أتصل أنا به. لا يمكن أن أخبره أنني مريض.

ـ لماذا؟

قال في نفسه: لأنك خائف. لأنك كطفل صغير يدّعي المرض. تخشى أن تتصل بنفسك لأن دقيقة واحدة من المكالمة كفيلة بأن تجعلك تقول: تمام يا كابتن، أنا بالفعل أشعر بتحسن. سأكون عندك الليلة في تمام العاشرة. قالت ميلدريد:

ـ أنت لست مريضًا.

ترك «مونتاج» نفسه يسقط مرة أخرى في السرير. مد يده تحت الوسادة. كان الكتاب المختبئ لا يزال هناك.

ـ «ميلدريد»، كيف سيكون الأمر، إذا... حسنًا، ربما... إذا تركت وظيفتي لفترة.

ـ تريد أن تتخلى عن كل شيء، بعد كل هذه السنوات من العمل، لمجرد أن امرأة وكتبها...

ـ كان يجب أن تريها .

ـ إنها لا تعني شيئًا بالنسبة لي . كان عليها ألا تقتني كتبًا . هي المسئولة عما حدث لها ، وكان يجب أن تفكر في مصيرها . أنا أكرهها . فهي التي جعلتك تبدأ هذا الطريق ، وفي الخطوة التالية سنكون ـ أنا وأنت ـ في العراء ، لا منزل ، لا وظيفة ، لا شيء .

ـ لم تكوني هناك . لم ترى ما رأيت . مؤكد أن هناك شيئًا ما في الكتب ـ شيئًا ما لا نستطيع تخيله ـ هو الذي جعل هذه المرأة تصمد في بيت يحترق . فالناس لا تصمد إلا عن مبدأ .

ـ إنها فقط امرأة بلا عقل .

ـ بل هي عاقلة مثلي ومثلك ، ربما أكثر عقلاً . ونحن أشعلنا فيها النيران .

ـ يقولون في الأمثال «اللي فات مات» .

ـ لم يمت وإنما احترق . هل سبق لك أن رأيت منزلاً محترقًا؟ يظل الدخان ينبعث لأيام من تحت الرماد . أشعر الآن أن دخان هذا المنزل سيظل ينبعث من داخلي لآخر يوم في عمري . ياإلهي ، ظللت طوال ليلة أمس أحاول إخماد النار بداخلي ، سأصاب بالجنون وأنا أحاول دون جدوى .

ـ لماذا لم تفكر في ذلك قبل أن تصبح رجل إطفاء؟

ـ أفكر؟ أنا لم يكن لدي الفرصة للتفكير . كان أبي وجدي من رجال الإطفاء . أحيانًا أرى أني أطاردهما في الحلم .

لحن راقص كان يصدر من غرفة الصالون .

ـ اليوم هو يوم الدوام المبكر بالنسبة لك. كان يجب أن تكون هناك منذ ساعتين. الآن فقط انتبهت لهذا.

ـ الأمر أبعد من المرأة التي ماتت. ليلة أمس، أخذت أفكر في كل هذا الكيروسين الذي استخدمته في العشرة أعوام الماضية. وفكرت في الكتب، ولأول مرة في حياتي أدركت أن وراء كل كتاب من هؤلاء رجلاً، رجلاً كان عليه أن يفكر ويخلق الكتاب. كان عليه أن يمضي وقتًا طويلاً يحاول أن يضع أفكاره على الورق. لم تكن تلك الفكرة قد راودتني في الماضي.

قام من سريره وهو يستطرد:

ـ عُمْر بأكمله قد تكون هي الوقت الذي يحتاجه الكاتب ليتأمل العالم والحياة ثم يضع أفكاره على الورق. لآتي أنا وأحرق كل ذلك في دقيقتين.

ـ اتركني لحالي.

ـ أتركك لحالك؟ جميل، ولكن من يتركني أنا؟ يجب ألا نُترك لحالنا طوال الوقت. علينا أن ننفعل بشيء ما من آن إلى آخر. متى كانت آخر مرة شعرت بانفعالٍ نحو شيءٍ ما؟ شيء ما مهم؟ شيء ما حقيقي؟

قرر «مونتاج» أن يصمت، عندما تذكر الحجرين ذَوَي اللون الأبيض ينظران إلى سقف الغرفة، وثعبان الشفط ذا العين الإلكترونية، والرجلين ذوي الوجهين الصابونيين والسجائر تتحرك في فمهما عندما يتكلمان. ليلتها رأى «ميلدريد» أخرى تختلف تمامًا عن تلك المرأة التي أمامه، لكن ربما تكون قابعة في أعماقها. ليلتها رأى امرأة تنفعل،

تنفعل حقًا. لكن يبدو أن هذه المرأة التي تنفعل لم تلتق هي و«ميلدريد» قط. نظر بعيدًا.

- والآن وقد فعلت ما فعلت. قم؛ لترى من القادم؟

- لا يهمني.

- سيارة على شكل العنقاء وقفت أمام الباب، ونزل منها رجل يرتدي قميصًا أسود اللون على كمه شارة على هيئة ثعبان برتقالي. وهو الآن متجه نحو باب منزلنا.

- كابتن «بيتي»؟

- كابتن« بيتي».

لم يتحرك «مونتاج» من مكانه، وظل واقفًا يحملق في اللون الأبيض البارد للحائط المواجه له.

- ادخليه بسرعة. أخبريه أولاً أنني مريض.

- لن أقل شيئًا. فلتخبره أنت.

ظلت تركض يمينًا ويسارًا، ثم توقفت وعيناها مفتوحتان عندما سمعت ميكروفون الباب الأمامي يردد اسمها في صوت هادئ: السيدة «مونتاج»، السيدة «مونتاج». هناك شخص ما بالباب. شخص ما بالباب. السيدة مونتاج. السيدة مونتاج. شخص ما بالباب. كان الصوت يتلاشى شيئًا فشيئًا.

تأكد «مونتاج» من أن الكتاب يختبئ تمامًا تحت الوسادة. صعد في بطء إلى السرير. رتب الأغطية فوق ركبته وعلى صدره. كان مستلقيًا في وضع أقرب إلى الجلوس. خرجت «ميلدريد» من الغرفة بعد فترة

من الوقت، ثم دخل كابتن «بيتي» يمشي بقوة ويداه في جيبيه. قال وهو ينظر إلى كل شيء حوله ماعدا «مونتاج» وزوجته:

ـ فلتصمت «العائلة».

من فورها جرت «ميلدريد». وسرعان ما صمتت أصوات البكاء والشكوى في غرفة الصالون.

جلس كابتن «بيتي» في أكثر الكراسي جلبًا للراحة والاسترخاء، وبدت الطمأنينة على وجهه الضارب إلى الحمرة. أمضى بعض الوقت في تجهيز وإشعال غليونه المعدني، قبل أن ينفث سحابة هائلة من الدخان.

ـ فكرت في أن أزوركم للاطمئنان على الرجل المريض.

ـ كيف عرفت أنه مريض.

ابتسم «بيتي» ابتسامته المعهودة التي تكشف عن لثة بلون الحلوى الوردي، وأسنان صغيرة بلون الحلوى البيضاء، ثم قال:

ـ عرفت كل شيء. كنت سوف تتصل لتحصل على إذن بعدم الحضور هذه الليلة.

اعتدل «مونتاج» في السرير جالسًا. أكمل «بيتي»:

ـ حسنًا، فلتحصل على إذن الليلة.

قال بيتي ذلك ثم نظر بإمعان في علبة الثقاب الأبدية التي كتب عليها من الخارج: مضمون. إشعال لمليون مرة. ظل يشعل عودًا وراء آخر وهو سارح بفكره. يشعل، ثم ينفث الهواء فينطفئ العود، ثم يشعل، ثم يطفئ، ثم يشعل ويتكلم قليلاً ثم يطفئ. كان

يشعل، وينظر إلى الشعلة، ثم ينفث الهواء، وينظر إلى الدخان. وأخيراً قال:

ـ متى ستتحسن صحتك؟

ـ غداً، أو ربما بعد غد. أو في بداية الأسبوع المقبل.

نفخ «بيتي» في غليونه، ثم قال:

ـ ما من رجل إطفاء ـ في بداية حياته المهنية أو بعد ذلك ـ إلا ويمر بما تمر به. حينئذ يحتاج رجل الإطفاء لمن يفهمه، ويُعَلِّمُهُ كيف تسير الحياة. ويعلمه تاريخ المهنة. لا يعلمونها للسفهاء كما كان الأمر في الماضي. يا للعار. بف.. لا يعرف تاريخ المهنة الآن سوى مديري المطافئ، بف.. وسأسمح لك بأن تعرفه.

كانت «ميلدريد» تتململ في مقعدها في قلق.

استقر «بيتي» في مقعده وفكر مليًا فيما أراد أن يقوله. استغرق ذلك دقيقة كاملة.

ـ قد تسأل نفسك: متى بدأت وظيفتنا؟ كيف رأت النور؟ متى؟ وأين؟ أستطيع أن أقول لك: إنها بدأت منذ بداية شيء آخر يدعى الحرب الأهلية. على الرغم من أن كتاب القوانين الخاص بنا يقول بأنها بدأت قبل هذا التاريخ. الحقيقة أننا لم نستقر حتى عرف فن التصوير، وأُخْتُرِعت السينما في بداية القرن العشرين وبعدها الراديو والتليفزيون. أي أننا بدأنا عندما بدأت الأشياء تتجسد.

جلس «مونتاج» في سريره بلا حراك.

ـ ومتى تجسدت الأشياء، فإنها أصبحت أقل غموضًا. قديمًا كانت

الكتب تخاطب فئة قليلة هنا وهناك، وفي كل مكان. لم تكن هناك مشكلة في أن يختلف الناس مع بعضهم بعضًا. كان العالم فسيحًا. لكن بالتدريج أصبح العالم مليئًا بالأعين والأذرع والأفواه. وزادت أعداد البشر إلى الضعف، ثلاثة أضعاف بل أربعة أضعاف. لذا كان من الضروري أن تجعل الكتب، والأفلام، والمجلات والراديو من الناس جميعًا عجينة واحدة. أتفهمني؟

ـ أعتقد أني أفهمك.

نظر «بيتي» إلى الشكل الذي رسمه الدخان في الهواء.

ـ تصور. إنسان القرن التاسع عشر بخيوله، وكلابه، وعرباته، وحركته البطيئة. قارن بين هذا الإنسان وإنسان القرن العشرين. الكاميرات السريعة وملخصات الكتب. المقالات الموجزة، الجرائد الصفراء. كل شيء في نهاية الأمر ينتهي بكمامة على الفم. كل شيء ينتهي في دقائق.

ـ ينتهي في دقائق!!.

ـ نعم. الأعمال الكلاسيكية تختصر إلى تمثيلية إذاعية قصيرة تستغرق خمس عشرة دقيقة، ثم تُختصر أكثر وأكثر لتقرأها في عمود في كتاب في دقيقتين، وتظل تنكمش هكذا حتى يُشار إليها فقط في موسوعةً في عشرة أو اثني عشر سطرًا على الأكثر. بالتأكيد هناك مبالغة في ذلك. والحقيقة هي أن الموسوعات كانت فيما مضى مجرد مراجع لا تُغني عن قراءة الأعمال الأصلية. ولكن بمرور الوقت أصبح هناك من لا يعرفون من هاملت (بالتأكيد يا «مونتاج» أنت تعرف عنوان كتاب باسم هاملت، أما أنت يا مسز «مونتاج» فربما

سمعت به من هنا أو هناك) كنت أقول إن هناك مَن لا يعرفون من هاملت إلا ملخصًا لا يتجاوز الصفحة الواحدة في موسوعة يعلن ناشرها عنها فيقول: «أخيراً أصبح في مقدورك أن تقرأ جميع الأعمال الكلاسيكية. لا تدع الفرصة تفوتك، ولا تدع جارك يسبقك» هل رأيت؟ الناس يبدءون في روضة الأطفال، يصلون إلى الجامعة، ثم يعودون مرة أخرى إلى روضة الأطفال. هكذا تطور العقل في الخمسة قرون الماضية.

ـ وقفت «ميلدريد»، وأخذت تروح وتجيء في الغرفة، تلتقط الأشياء من الأرض، ثم تضعها مرة أخرى، لم يعرها «بيتي» أي اعتبار، وأكمل حديثه:

ـ أدر شريط الفيلم يا «مونتاج»، سريعًا. اضغط على الزر، اعرض الصور، انظر، التقط، الآن، انقر، هنا، هناك، بسرعة، تابع، أعلى، أسفل، بالداخل، في الخارج، لماذا، كيف، من، ماذا، أين، هه؟ أوو! اطرق! اضرب! اصفع! بنج! بانج! بووم! الموجز، الملخصات، الملخص، الملخص، الملخصات! السياسة؟ عمود واحد، جملتان فقط، خبر في جريدة! وفي لحظة يتلاشى كل شيء في الهواء! فلتلعب بعقول البشر وتتركها تلف بسرعة وتدور في أيدي الناشرين التي لا ترحم، تدور الطاحونة بأيدي هؤلاء المنتفعين، و الإعلاميين، يدور فيها البشر فيتم تخليصهم من كل الأفكار المضيعة للوقت.

راحت «ميلدريد» تسوي مفرش السرير، شعر «مونتاج» بقلبه يقفز. وعندما لمست الوسادة بيدها شعر بقلبه يقفز مرة أخرى. في هذه اللحظة كانت تشده من كتفه لتجعله يتحرك حتى تستطيع أن تأخذ الوسادة، وتسويِّها جيداً خارج السرير، ثم تضعها في مكانها مرة

أخرى. لعلها سوف تصرخ بصوت عال الآن، أو تسأل في براءة مؤثرة: «ما هذا؟» وهي تمسك بالكتاب في يدها.

ـ الآن أصبح الفصل الدراسي أقصر، والمناهج أبسط بعد إلغاء مواد الفلسفة والتاريخ واللغات. شيئًا فشيئًا بدأ الناس يهملون دراسة اللغة الانجليزية والهجاء، وبالتدريج تم إسقاط الانجليزية من المقرر. الحياة أصبحت عملية بشكل أكبر. كل ما يهم الآن هو العمل، والتمتع بمباهج الحياة بعد يوم عمل شاق. ما الداعي إذن لتعلم أي شيء بخلاف الضغط على بعض أزرار التشغيل، ومعرفة ما يلزم لإدارة الماكينات.

ـ دعني أرتب الوسادة.

همس «مونتاج»:

ـ لا!

ـ في الملابس حلت السوستة محل الأزرار، وبالتالي لا يستغرق أي منا وقتًا طويلاً في ارتداء ملابسه ساعة الفجر. في الماضي كان وقت ارتداء الملابس في تلك الساعة، هو وقت التفكير... وقت الأحزان.

قالت «ميلدريد»:

ـ أفسح.

رد عليها «مونتاج» قائلاً:

ـ اذهبي بعيداً.

ـ الحياة يا «مونتاج» أصبحت مجرد سقطة مثيرة للضحك. بوم، بوم، واو!

قالت «ميلدريد» وهي تسحب الوسادة:

ـ واو.

صرخ «مونتاج» في وجهها في حرقة، قائلاً:

ـ بالله عليك دعيني وشأني.

فتح «بيتي» عينيه على اتساعهما.

تجمدت يد «ميلدريد» تحت الوسادة. تحسست بأصابعها حواف الكتاب، وعندما تعرفت عليه بدت الدهشة ثم بدا الذهول التام على وجهها. فتحت فمها لتسأل سؤالاً.

ـ فلتفرغ المسارح إلا من المهرجين، ولتُزود الحجرات بالحوائط الزجاجية لتلمع عليها الألوان الجميلة، وتتحرك بسرعة من أعلى الشاشة إلى أسفلها كالشُرُط الملونة، كالدماء، أو كالخمر البني أو الذهبي. أنت تحب البايسبول، أليس كذلك يا «مونتاج».

كان «بيتي» قد تلاشى تقريبًا، أصبح مجرد صوت يأتي من خلف ستارة من الدخان.

سألت «ميلدريد» بصوت يكشف عن سعادة دفينة:

ـ ما هذا؟ ما هذا الشيء؟هنا!!

رمى «مونتاج» بنفسه إلى الخلف ليضغط على ذراعها، ثم صرخ في وجهها قائلاً:

ـ اجلسي في هدوء. نحن نتكلم.

انتفضت «ميلدريد» بعيداً، ويداها خاليتان، بينما استمر «بيتي» في حديثه وكأن شيئًا لم يحدث.

ـ أنت أيضًا تحب البولينج يا «مونتاج»، أليس كذلك؟

ـ البولينج، نعم.

ـ والجولف؟

ـ الجولف لعبة ممتازة.

ـ وكرة السلة؟

ـ لعبة ممتازة.

ـ والبلياردو، والبولة[1]، وكرة القدم.

ـ ألعاب ممتازة. كلها.

ـ رياضات تصلح للناس جميعًا على اختلافهم... روح الجماعة... المرح، ولا أحد يفكر. إعداد، وإعداد، ثم إعداد رائع لبطولات ودورات ورياضات مميزة. وبالتدريج زادت الصور في الكتب عن الكلام. وتناقص غذاء العقل يومًا بعد يوم. وانعدم الصبر. الطرق ازدحمت بالبشر راحلين إلى مكان ما، أو إلى مكان غيره، أو غيره أو لمجرد الرحيل. لاجئو الوقود. المدن تحولت إلى موتيلات، وراح الناس يهيمون كالبدو في تدفق دائم من مكان إلى آخر، وكأنهم يتبعون المد والجزر، تبيت الليلة في غرفة كانت بالأمس هي غرفتي.

خرجت «ميلدريد» من الحجرة، وأغلقت الباب خلفها في عنف، بينما نساء العائلة في الصالون كن يسخرن من الرجال.

---

(١) البولة: شكل من أشكال البلياردو.

ـ دعنا نأخذ الأقليات في حضارتنا كَمثال. كلما زاد عدد السكان، كلما زاد عدد الأقليات. لماذا تتعدى علَى مًحبي الكلاب، أو محبي القطط، أو الأطباء، أو المحامين، أو التجار، أو المديرين، أو أتباع الطائفة المورمونية، أو المعمودية أو الرافضين للتثليث، أو الجيل الثاني من الصينيين، أو السويديين، أو الإيطاليين، أو الألمان، أو أهل تكساس، أو سكان بروكلين، أو الأيرلنديين، أو القادمين من أوريجون أو المكسيك؟ لا يمكن لأي كتاب أو أية مسرحية أو مسلسل تليفزيوني أن يرسم صورة واقعية للفنانين في كل مكان، أو للجغرافيين، أو الحرفيين. وكلما زادت مساحة السوق، يا مونتاج، أصبح من الصعب أن تتعامل مع الاختلاف، تذكر ذلك جيداً! كل الأقليات القليلة... القليلة... القليلة جداً لن تقبل أن يمسسها أحد بسوء. فيأيُّها الكتاب ذوى الأفكار الشريرة، أوقفوا آلاتكم الكاتبة. وتوقفت بالفعل الآلات الكاتبة، أصبحت المجلات هي الصنف المحبب وكأنها التبيوكة[1] بالفانيليا، وخطفت الأضواء من الكتب. راح النقاد ـ عليهم اللعنة ـ يشتكون في تعال ويقولون: «ها قد أصبحت الكتب كماء غسل الصحون، بالتأكيدً المجلات هي السبب في إعراض الناس عن شراء الكتب». ولكن الحقيقة أن الناس أنفسهم كان لديهم الوعي بما يحتاجون إليه، فراحوا يشترون المجلات الفكاهية، وبالطبع كان هناك إقبال أيضًا على المجلات المجسمة عن الجنس. هذه هي الحقيقة يا «مونتاج». الحظر لم يأت من أعلى... من الحكومة. لم يصدر بيان، أو إعلان، أو رقابة كبداية للحظر، لم يكن هناك شيء كهذا مطلقًا. وإنما لعبت التكنولوجيا ـ والمنظمات المناهضة للاستغلال ولاضطهاد

---

(١) التبيوكة مستحضر نشوي لصنع الحلوى.

الأقليات ـ الدور الأكبر. الحمد لله وبفضل هؤلاء، أصبح ممكنًا أن تعيش في سعادة طول الوقت: تقرأ فقط المجلات الفكاهية، اعترافات المشاهير، أو جرائد التسوق.

ـ عظيم، ولكن ماذا عن رجال الإطفاء؟

انحنى «بيتي» إلى الأمام يحيطه دخان باهت من سيجاره، ثم قال:

ـ آه، الأمر تطور ببساطة وتلقائية. بالتدريج أصبحت المدارس تخرج متخصصين في الجري والقفز، والسباقات، وسمكرة السيارات، وخطافين وطيارين وسباحين بدلاً من أن تخرج باحثين ونقادًا وحكماء ومبدعين. وبالتدريج أصبحت كلمة «مفكر» إهانة كما ينبغي لها أن تكون. فنحن جميعًا نخشى كل ما هو غريب. بالتأكيد مازلت تذكر زميلاً لك في المدرسة، كان «عبقريًا» بشكل خاص، وكان يجيب عن أغلب الأسئلة ويبادر بتسميع كل المحفوظات بينما يجلس بقية زملائه كالأصنام المتحجرة، ويشعرون بالكراهية الشديدة تجاهه. ألم يكن هذا الصبي العبقري نفسه ضحية لزملائه يضربونه ويسخرون منه بعد نهاية اليوم الدراسي؟ بالتأكيد، هذا هو الذي كان يحدث. ولهذا فيجب أن نكون جميعًا متساوين. لا كما يقول الدستور: «يولد كل فرد حرًا ومتساويًا في الحقوق»، وإنما «يصبح كل فرد متساويًا في الحقوق!» يجب أن يكون كل إنسان نسخة طبق الأصل من أخيه الإنسان، وبالتالي يصبح الجميع سعداء، فلن تكون هناك قمم شاهقة نشعر بالضآلة إذا ما نظرنا إليها. ولهذا السبب أصبح الكتاب في منزل جارك قنبلة موقوتة. احرقه. انزع فتيل القنبلة. فما يدريك من ستكون الضحية التالية لهؤلاء المثقفين. أنا؟ أنا لا أستسيغهم لدقيقة واحدة. في النهاية، عندما تقدمت التكنولوجيا، وأصبحت كل المنازل ضد الحريق

في جميع أنحاء العالم، لم يعد هناك حاجة لرجال الإطفاء للقيام بمهمتهم الأصلية. وتم إسناد مهمة جديدة لهم، وهي أن يصبحوا حُمَاةً لراحة البال والثقة بالنفس، حراسًا يقاومون مشاعر الخوف والرهبة البشرية المتوقعة... مراقبين حكوميين... قضاة ومنفذين للأحكام في نفس الوقت، هؤلاء هم أنا وأنت يا مونتاج.

انفتح باب الصالون، ووقفت «ميلدريد» تنظر إليهم، إلى «بيتي» أولاً ثم إلى مونتاج. كانت الحوائط من خلفها تغرق تحت سيل من الألوان: الأخضر، والأصفر والبرتقالي تئز وتنفجر على موسيقى تم توزيعها خصيصًا لآلات الإيقاع المختلفة والصنج. تحرك فمها، وكانت تقول شيئًا لكن الموسيقى غطت على صوتها. ضرب بيتي بسيجاره على كف يده الوردية. نظر بإمعان إلى الرماد وكأنه تشبيه يجب تحليله للبحث عن معنى.

ـ يجب أن تعرف أن حضارتنا مرنة لدرجة تجعلنا لا يمكن أن نجرح الأقليات، أو نثيرهم. اسأل الناس، ما أهم الأشياء التي تريدون تحقيقها في هذا البلد؟ الناس يريدون السعادة. أليس كذلك؟ ألم تسمع مرارًا قول بعضهم: أريد أن أكون سعيدًا؟ ولكن أليسوا سعداء فعلاً؟ ألم نجعلهم يتحركون طوال الوقت. ألم نوفر لهم وسائل الترفيه؟ هذا هو كل ما نعيش من أجله، أليس كذلك؟ نعيش من أجل المتعة. نريد ما يدغدغ حواسنا طوال الوقت. ولا تنكر أن هذا متوفر بكثرة في ثقافتنا.

ـ نعم.

قرأ «مونتاج» حركات الشفاة التي أصدرتها «ميلدريد» وهي تقف على باب الغرفة، إلا أنه لم ينظر إليها خشية ان ينظر بيتي إليها هو الآخر، وينجح في قراءة حركات شفاهها.

ـ الملونون لا يحبون «سامبو الأسود الصغير»، احرق! البيض لا يرتاحون لكوخ «العم توم»، احرق! شخص ما أصدر كتاب عن التبغ والسجائر وعلاقتها بسرطان الرئتين. أصحاب مصانع السجائر يبكون؟ احرق الكتاب. السكينة يا «مونتاج». السلام يا «مونتاج». تخلص من الخلافات. الأفضل أن تحرقها في محرقة القمامة. دفن الموتى طقس حزين ووثني؟ تخلص من الموتى أيضًا. بعد خمس دقائق من وفاة أي شخص، يكون في طريقه إلى المحارق المتصلة بخدمة التوصيل في جميع أنحاء البلاد. وبعد عشر دقائق من وفاته يصبح ذرة تراب. دعونا نتوقف عن انتقاد الموتى فوق قبورهم .الأفضل أن ننساهم تمامًا. احرق الجميع. احرق كل شيء. النار لامعة، النار نظيفة.

ـ توقفت الألعاب النارية في الصالون. ولحسن الحظ حدثت المعجزة: توقفت «ميلدريد» عن الكلام في نفس اللحظة التي توقفت فيها الأصوات في الصالون. قال ببطء:

ـ كانت هناك فتاة. ذهبت الآن، على ما أظن، ماتت. لا أستطيع حتى أن أتذكر ملامحها. لكنها كانت مختلفة. كيف؟ كيف تواجدت أصلاً؟

ابتسم «بيتي»، ثم قال:

ـ كلاريس ماكليلان. لدينا تقارير عن أسرتها بالكامل. راقبناهم عن قرب. الوراثة والبيئة المحيطة أشياء مثيرة للضحك. لا تستطيع أن تتخلص من كل البط الصغير المريض في بضع سنوات. بيئة المنزل من الممكن أن تهدم الكثير مما نبنيه في المدرسة. ولهذا السبب نفسه قررنا تخفيض سن التحاق الأطفال بالحضانة عامًا بعد عام حتى أصبحنا الآن

ننتـزعـهم من المهـد. وصلتنا بعض الإنذارات الكاذبة الخـاصـة بأسـرة ماكليلان، عندما كانوا يعيشون في «شيكاغو». لكننا لم نعثر على كتاب واحد. كانت هناك تقارير متضاربة عن العم. ضد المجتمع. أما الابنة، فكانت قنبلة موقوتة. كـانت الأسرة تغذي عقلهـا البـاطن. أنا متأكد من ذلك بناء على ما رأيته من تقارير مدرسية عن أدائها. لم تكن مهتمة بمعرفة طريقة عمل أي شيء، وإنما بمعرفة السبب الذي من أجله نقـوم بعـمله. قـد يسبب هذا الكثيـر من الإحـراج. إذا كنت تسـأل باستـمرار عن سبب حدوث الأشيـاء، فبالتـأكيـد سوف تصـاب بالاكتئاب. ولهذا كان من الأفضل أن تموت هذه الفتاة.

ـ نعم، تموت.

ـ لحسن الحظ أن البشر غريبو الأطوار أمثالهم لا يتكررون كثيراً. فنحن نعرف كيف نقضم أغلبهم وهم لا يزالون داخل البرعم، مبكراً. هل تستطيع أن تبني منزلاً دون مسامير أو أخشاب؟ إذا أردت أن تمنع بناء المنازل، فعليك أن تخفي المسامير والأخشاب. إذا أردت أن يكون الجميع راضين على الصعيد السياسي، فلا تدع أيًا منهم يختار بين إجابتين لسؤال. قَدِّم له إجابة واحدة. بل الأفضل ألا تقدم له السؤال أصلاً. فلينس الجميع أن هناك حربًا. إذا كانت الحكومة فاشلة، على وشك الانهيار، تفرض ضرائب بجنون، فليكن! فذلك أفضل بكثير من أن ينشغل بها الناس. السلام يا مونتاج... السلام. فليفرح الناس بالمكسب في المسـابقـات التي تتطلب أن يعـرفـوا كلمـات الأغـاني المشهورة، أو أسماء العواصم المختلفة، أو محصول أيوا من القمح في العـام الماضي. فليمـتلئ الجميع بالمعلومات غير القابلة للاشتعال. أثقلهم بتلك «الحقـائق»، كي يشعروا بالامتلاء، وبأنهم «عباقـرة»

المعلومات! عندها سيتكون لديهم الإحساس بأنهم يفكرون، وبأنهم يتحركون بينما هم واقفون في أماكنهم. وسوف يشعرون بالسعادة لأن تلك الحقائق لا تتغير. أما أن تعطيهم علومًا هلامية كالفلسفة أو علم الاجتماع وتطلب منهم أن يفسروا من خلالها الأحداث، فإنك بالتأكيد تصيبهم بالاكتئاب. رجل يقوم بفك وتركيب شاشة الحائط التليفزيونية ـ و معظم الناس الآن يستطيعون القيام بذلك ـ هو أسعد بكثير من رجل آخر يحاول أن يحسب مساحة العالم. لا أحد يستطيع أن يحسب مساحة العالم دون أن يشعر بالضآلة والوحدة. أنا أعرف هذا الشعور، فقد عشته بنفسي. فلنكثر من النوادي والحفلات والأكروبات والسحرة، وليأت المتهورون، والمتسابقون في سباق السيارات والموتوسيكلات، والطائرات الهليكوبتر. وأهلاً بالجنس والهيروين وأي شيء يعتمد على رد الفعل الآلي. إذا كانت التمثيلية رديئة، أو الفيلم لا يقول شيئًا، أو المسرحية تافهة... فلتقم الأجهزة الكهربية بدورها ولتعمل الذبذبات على إيهامي بأنني مستمتع بالمسرحية. لا يهمني أن أكون مستمتعًا في الحقيقة، المهم هو المتعة فحسب.

نهض «بيتي» واقفًا، ثم قال:

ـ يجب أن أنصرف الآن. انتهت المحاضرة، وأتمنى أن أكون قد أوضحت الأمور. أهم شيء يجب أن تتذكره دائمًا يا «مونتاج» هو أننا رجال الإسعاد، أنا وأنت وباقي الرجال. نحن نقف في وجه ذلك التيار لتلك القلة من الناس التي تحاول أن تصيب الناس بالاكتئاب بما تتبناه من نظريات و أفكار تتناقض و تتصارع مع بعضها بعضًا. نحن بأيدينا نصنع السد الذي يحجب الطوفان. فاصمد يا «مونتاج»، ولا

تدع سيل الحزن الجارف والفلسفة الكئيبة يُغرق عالمنا. نحن نعتمد عليك. لا أظن أنك تدرك مدى أهميتك... أهميتنا من أجل أن نحافظ على عالمنا سعيداً كما هو الآن.

شد «بيتي» على يد «مونتاج» المرتخية. كان الأخير لا يزال يجلس في مكانه على السرير، و كأن المنزل ينهار من حوله وهو لايقوى على الحركة. كانت «ميلدريد» قد اختفت تمامًا بعد أن كانت تقف على الباب.

ـ شيء أخير أود أن أقوله لك: كل رجل إطفاء يمر بلحظة شك ولو لمرة واحدة في حياته. فيتساءل عما تقوله الكتب! ولكي تتخلص من الشك، ماذا تفعل؟ صَدِّقني يا مونتاج، لقد اضطررت لقراءة القليل منها في حياتي، ووجدتها لا تقول أي شيء! لا شيء يمكن أن تُعلِّمَه غيرك أو تؤمن به. فالكتب تحكي عن أناس غير موجودين. حواديت من الخيال إذا كان الكتاب رواية. وإن لم يكن فالأمر أسوأ: مفكر يتهم مفكرًا آخر بالغباء، أو فيلسوف يصرخ في وجه فيلسوف آخر. وجميعهم يتحركون في كل مكان، يطفئون النجوم ويحجبون ضوء الشمس. وفي النهاية تشعر معهم بأنك تائه.

ـ عظيم، ولكن ما العمل إذا أخذ رجل إطفاء ـ عن طريق المصادفة، ودون ترتيب ـ كتابًا إلي منزله؟

ارتعد «مونتاج»، وشعر أن للباب المفتوح عينًا واسعة فارغة تحدق فيه. قال «بيتي»:

ـ خطأ عادي. حب استطلاع لا أكثر ولا أقل. ونحن لا نبالغ في القلق أو الغضب، وإنما نترك رجل الإطفاء يحتفظ بالكتب لمدة أربع

وعشرين ساعة، بعدها إذا لم يحرقها هو بنفسه، فسوف نذهب نحن إليه لنقوم ببساطة بإحراقها نيابة عنه.

ـ بالطبع. كان حلق «مونتاج» جافًا.

ـ الآن يا «مونتاج»، هل ستقوم بتعويض الغياب بأخذ وردية عمل بديلة في السهرة اليوم؟ سنراك الليلة، أليس كذلك؟

ـ لا أعرف.

ـ ماذا؟

بدا «بيتي» مندهشًا بعض الشيء. أغمض «مونتاج» عينيه، ثم قال:

ـ سأحضر متأخرًا، احتمال.

قال «بيتي» وهو يفكر بينما يضغ غليونه في جيبه.

ـ سنفتقدك بالتأكيد إذا لم تحضر.

قال «مونتاج» لنفسه: لن أحضر أبدًا. أخيرًا قال بيتي:

ـ سلامتك، حافظ على صحتك.

ثم انصرف خارجًا من الباب المفتوح.

نظر مونتاج من النافذة فرأى «بيتي» ينطلق بسيارته البيتل اللامعة بلونها الأصفر الناري وعجلاتها السوداء بلون الفحم.

على الناحية الأخرى من الطريق، وقفت البنايات بواجهاتها المسطحة. لاحظت «كلاريس» ذلك ذات مساء. ماذا قالت؟ «لم يعد هناك مكان للجلوس في مداخل البيوت. يقول عمي: إن الناس قديمًا

كانوا كثيراً ما يجلسون في مداخل البيوت ليلاً، يتحدثون إذا أرادوا التحدث، أو ربما يجلسون على كرسي هزاز يفكرون، يقلبون الأشياء على وجوهها المختلفة. عمي يقول: إن المهندسين توقفوا عن بناء المداخل المتسعة؛ لأنها من وجهة نظرهم لا تبدو أنيقة. ويرى عمي أن هذه مجرد حجة، وأن السبب الحقيقي، الذي يختفي خلف هذه الحجة، هو أنهم ربما لا يريدون أن يجلس الناس هكذا، دون أن يفعلوا أي شيء. لا يريدونهم أن يتأرجحوا ولا أن يتكلموا مع بعضهم بعضًا. لم يكن ذلك النوع من الحياة الاجتماعية لائقًا. ولهذا فقد ألغيت أروقة الجلوس في المداخل، وألغيت معها الحدائق العامة. لم تعد هناك حدائق عامة ليجلس فيها الناس. وانظر إلى الأثاث. لم تعد هناك كراس هزازة. فهي مريحة جداً. والمطلوب ألا يجلس الناس طويلاً، وإنما أن يركضوا من مكان إلى آخر! عمي يقول. . . عمي. . . عمي. . . عمي» اختفي صوتها شيئًا فشيئًا.

استدار «مونتاج» ونظر إلى زوجته التي كانت تجلس في منتصف الصالون تتحدث إلى أحد المذيعين، فيرد عليها ويتحاور معها. «مدام مونتاج» ثم يقول تلك الكلمة، أو ذاك ويعود ليناديها «مدام مونتاج»، ثم يقول كلمة أو كلمتين. كان المحول المتصل بالتليفزيون، والذي كلفهم شراءه مائة دولار، يقوم بإدخال اسمها كلما توجه المذيع بالكلام لجمهوره. كان المذيع يترك اسم المخاطب خاليًا حتى يقوم الجهاز المتصل بالتليفزيون بإدخال اسم صاحبه أو صاحبته، بينما تعمل التكنولوجيا المتقدمة على تغيير صورة وجه المذيع قليلاً حول شفتيه بحيث يبدو وكأنه نطق بالفعل حروف اسم المتفرج الجالس أمامه. كان المذيع صديقًا لا شك في ذلك، صديقًا حميمًا. فجأة قال: «مدام مونتاج. انظري إليّ الآن».

التفتت إليه. إلا أنه كان من الواضح أنها لم تنصت لما يقول.

قال مونتاج:

ـ هذه مجرد خطوة. اليوم لا أذهب، ثم أتغيب في الغد أيضًا. ثم أعتزل العمل في مبنى المطافئ إلى الأبد.

ـ ولكنك ستذهب اليوم. أليس كذلك؟

ـ لم أقرر بعد. كل ما أشعر به الآن هو أنني أريد أن أحطم الأشياء وأقتل.

ـ فلتأخذ السيارة البيتلز.

ـ أشكرك، لا أحتاجها.

ـ ستجد المفاتيح على الكومود. عندما ينتابني هذا الإحساس، فإنني أشعر بميل لأن أقود السيارة بسرعة. انطلق على سرعة ٩٥ وستشعر براحة غريبة. أحيانًا أقود السيارة طوال الليل، ثم أعود دون أن تشعر بغيابي. شيء ممتع للغاية. فقد تصدم تحت العجلات أرانب، أو كلاب. خذ البيتلز، صدقني سوف تستمتع.

ـ لا، لا أريد الآن. أريد فقط أن أتمسك بهذا الشعور الغريب. يا إلهي. إنه يكبر. لا أعرف ماذا يحدث لي. أنا حزين جداً. وغاضب جداً، ولا أعرف السبب. أشعر وكأن وزني يزداد. أشعر أني بدين. أو كأنني ظللت طويلاً أدخر أشياء كثيرة لا أدري ما هي. ربما سأبدأ قريبًا في قراءة الكتب.

ـ سوف يضعونك في السجن، أليس كذلك؟

نظرت إليه وكأنه يقف خلف الحائط الزجاجي.

بدأ في ارتداء ملابسه، وأخذ يتحرك في أنحاء الحجرة في قلق.

ـ نعم، السجن. وقد تكون هذه فكرة جيدة، قبل أن أسبب أذى لأحد. ألم تسمعي «بيتي»؟ هل أنصت له جيداً؟ إنه يعرف الإجابات لكل الأسئلة. وهو محق، فالسعادة مهمة. المتعة هي كل شيء. لكنني جلست طويلاً أقول لنفسي: «أنا لست سعيداً، أنا لست سعيداً».

ابتسمت «ميلدريد» ابتسامة عريضة، ثم قالت:

ـ أنا سعيدة... وأنا فخورة بذلك.

ـ سأقوم بعمل شيء ما. لا أعرف الآن بالتحديد ما هو هذا الشيء، لكني أعرف أنه شيء عظيم.

ـ لقد مللت هذا الكلام الفارغ.

قالت «ميلدريد» ذلك ثم التفتت بعيداً عن «مونتاج» ونظرت مرة أخرى إلى المذيع. لمس «مونتاج» زرار التحكم في الصوت فسكت صوت المذيع. ثم قال:

ـ ميللي.

سكت قليلاً ثم قال:

ـ هذا منزلك كما هو منزلي. وأشعر أن من العدل أن أخبرك الآن بشيء ما. كان من الواجب عليّ أن أخبرك قبل ذلك، لكني لم أكن قد صارحت نفسي بهذا الشيء. هناك شيء يجب أن تريه، شيء أخفيته عنك طوال العام الماضي، وكان يزيد من وقت لآخر. لا أعرف لماذا فعلت ذلك. ولكني فعلته، ولم أخبرك.

أمسك بمقعد، له ظهر مستقيم، ثم جره ببطء واتزان إلى الصالة القريبة من الباب الأمامي، وقف فوق المقعد لدقيقة وكأنه تمثال فوق قاعدته، بينما وقفت زوجته تحته تنتظر. مد يده وأزاح القضبان التي تغطي التكييف المركزي، ثم أدخل يده أبعد إلى اليمين ثم أزاح لوحًا آخر من المعدن، وأخذ كتابًا. دون أن ينظر إلى الكتاب تركه يسقط على الأرض، ثم أدخل يده ثانيةً وأخرج كتابين، ثم تركهما يسقطان على الأرض. وظل هكذا يدخل يده ثم يخرجها بالكتب، ويترك الكتب تسقط على الأرض. كتبًا صغيرة، وأخرى كبيرة نوعًا ما... كتبًا صفراء، وأخرى حمراء أو خضراء. عندما انتهى، نظر إلى أسفل ليرى ما يقرب من عشرين كتابًا ترقد تحت قدمي زوجته.

ـ أنا آسف. لم أفكر في الأمر. والآن يبدو وكأننا شريكان فيه.

رجعت «ميلدريد» في فزع وكأنها رأت جيشًا من الفئران خرج من تحت الأرض. كان يستطيع أن يسمع صوت أنفاسها تتلاحق، كان وجهها شاحبًا، وعيناها مفتوحتين على اتساعهما. نطقت باسمه مرتين... ثلاث مرات. ثم تأوهت، وجرت إلى الأمام... التقطت كتابًا، ثم اتجهت به إلى محرقة القمامة.

أمسك بها، فراحت تصرخ. منعها من الحركة فحاولت أن تتخلص من قبضته باستخدام أظافرها.

ـ لا يا «ميلي». لا تفعلي ذلك! انتظري! كُفِّي! أنت لا تعرفين. كفي!

صفعها على وجهها، أمسك بها مرة أخرى، وأخذ يهزها. نطقت اسمه مرة ثم انفجرت في البكاء. قال:

ـ «ميلي». اسمعي. هل لك أن تمهليني دقيقة واحدة؟ لا يمكن أن نحرق هذه الكتب. أريد أن أتصفحها أولاً، ولو لمرة واحدة. فإذا وجدنا أن ما يقوله الكابتن حقيقي فسوف نقوم أنا وأنت معًا بحرقها. صدقيني. سنقوم معًا بحرقها. يجب أن تساعديني.

نظر في وجهها، أمسك بذقنها، ثم احتضنها بقوة. عاد لينظر في وجهها، لم يكن ينظر إليها فحسب، وإنما كان يحاول أن يرى نفسه في وجهها، ويحاول أن يرى فيه ما يجب أن يفعله.

ـ أبيْنا أم رضينا، نحن الآن قد تورطنا. لم أطلب منك الكثير خلال كل هذه السنوات. لكنني أطلب منك الآن، بل أرجوك. علينا أن نبدأ من هنا. نحاول أن نفهم السر في تلك الفوضى التي نعيشها. أنت وليالي الأقراص المهدئة، والسيارة، وأنا ووظيفتي. نحن نسير نحو الهاوية، يا «ميلي». لا أريد أن أتراجع تمامًا. لن يكون هذا سهلاً. ليس لدينا ما نعتمد عليه في معيشتنا. لكن نستطيع أن نكمل بعضنًا البعض، ونفهم ما حولنا، ونساعد بعضنا بعضًا. أنا أحتاج إليك بشدة الآن. لا أستطيع أن أعبر. إذا كنت تحبينني فعلاً فسوف تتحملينني. أربع وعشرين ساعة، ثمان وأربعين ساعة. هذا هو كل ما أطلبه منك، بعدها سينتهي كل شيء. أعدك. أقسم لك! ربما يكون هناك شيء ما وسط هذه الفوضى، شيء ما نستطيع أن نعلمه لشخص آخر غيرنا.

كانت قد توقفت عن مقاومته، فقرر أن يتركها، فإذا بها تضعف وتترك جسمها ينزلق على الحائط إلى أن جلست على الأرض تنظر إلى الكتب. لمست قدمها أحد الكتب، فجذبته بسرعة وهي تنظر إليه.

ـ تلك المرأة يا «ميلي»، لم تكوني معي. لم تشاهدي وجهها. و«كلاريس»، لم تتحدثي إليها. أنا تحدثت إليها. ورجال مثل «بيتي»

يخافونها. لا أفهم ذلك. لا أفهم لماذا يخافون فتاة مثل كلاريس. أخذت أقارنها برجال الإطفاء وأنا معهم بالأمس، واكتشفت فجأة أنني أكره رجال الإطفاء، وأكره نفسي، وقلت في نفسي ربما يكون من الأفضل أن نشعل النار في رجال الإطفاء.

ـ جاي.

كان صوت الباب الأمامي ينادي في هدوء: «مدام «مونتاج»، مدام «مونتاج». شخص ما بالباب. شخص ما بالباب. مدام «مونتاج»، مدام «مونتاج». شخص ما بالباب». التفتا لينظرا إلى الباب، بينما كانت الكتب مبعثرة في أكوام في كل مكان.

قالت «ميلدريد»

ـ بيتي!

ـ لا يمكن أن يكون هو.

همست:

ـ لقد عاد.

نادى الباب ثانية في صوت منخفض: «شخص ما بالباب».

ـ لن نفتح.

قال «مونتاج» ذلك وهو يستند إلى الحائط ثم غاص لينزل إلى الأرض ويجلس القرفصاء. أخذ يدفع الكتب بأصابعه. كان يرتعد وهو يفكر أن عليه أن يدفع الكتب مرة أخرى إلى مخبأها في فتحة التكييف المركزي، لكنه كان متأكداً أنه لن يستطيع أن يواجه «بيتي» مرة أخرى. ربض، ثم جلس وهو يستمع إلى صوت الباب مرة بعد مرة دون

توقف. التقط «مونتاج» مجلدًا صغيرًا من الأرض، ثم فتحه قائلاً: «من أين نبدأ، أعتقد أن علينا أن نبدأ من البداية؟ قالت ميلدريد:

ـ سوف يأتي، ويحرقنا نحن والكتب.

أخيرًا، توقف الصوت الصادر من الباب. ساد الصمت، لكن «مونتاج» شعر بأن شخصًا ما يقف خلف الباب، ينتظر، ويسترق السمع، بعدها سمع صوت خطواته وهي تبتعد عبر الممشى المفضي إلى الخارج.

ـ هيا بنا نكتشف ما لدينا.

كان يتكلم بحرص وبطء شديدين. قرأ الكثير من الصفحات من هنا وهناك حتى وصل إلى مقطع يقول: «ثبت حسابيًا أن أحد عشر ألف شخص قد لقوا حتفهم بصورة متتالية مفضلين ذلك على اختيار الحل الأسهل بكسر البيضه من ناحية رأسها»[1].

كانت «ميلدريد» تجلس أمامه في الصالون. قالت:

ـ ماذا يعني هذا الكلام؟ ليس له معنى على الإطلاق. الكابتن كان محقًا!

ـ الآن سنبدأ من البداية مرة أخرى.

---

(١) كتب جوناثان سويفت في روايته الشهيرة «رحلات جاليفر» (١٧٢٦) أن إمبراطورًا أصدر فرمانًا يلزم جميع الرعية أن يكسروا البيض من ناحية رأسها، وذلك لأن ابنه الصغير كان قد جرح يده وهو يكسر بيضة من ناحية قاعدتها! ثار الناس على هذا الفرمان مما عرض حياتهم للخطر.. وفي هذا الجزء الذي يقتبسه برادبري، يحكي سويفت على لسان جاليفر أنه قد لقى أحد عشر ألف شخص منهم حتفهم بدلاً من أن يمتثلوا لهذا الفرمان.

الجزء الثاني

المنخل والرمال

ظلا يقرأان الكتب طوال المساء. كانت أمطار نوفمبر الباردة تسقط من السماء على المنزل الصامت. جلسا في الصالة لأن الصالون كان فارغًا رمادي اللون بعد أن غابت الألوان والأضواء من حوائط كانت دائمًا متلألئة بالبرتقالي والأصفر، والدوائر الذهبية، والصواريخ، والنساء بملابسهن الشبكية اللامعة، والرجال بملابسهم القطيفة اللامعة يخرجون الأرانب من قبعات فضية مقابل مائة من الجنيهات لكل أرنب.

كان الصالون قد مات، ظلت «ميلدريد» تنظر إليه نظرة فارغة، بينما مشى «مونتاج» بخطوات ثابتة ثم جلس على الأرض وظل يقرأ صفحة واحدة بصوت عالٍ عشرات المرات:

«لا نستطيع أن نحدد اللحظة التي تُولَدُ عندها المحبة. يمتلئ الإناء قطرة تلو الأخرى، وفي النهاية، وعند قطرة ما، يفيض الإناء. كذلك المحبة، تدفع بالحسنة تلو الأخرى حتى يمتلئ القلب ويفيض حبًا».
صمت «مونتاج» وأخذ يستمع إلى صوت المطر.

«هل هذا ما وجدته عند تلك الفتاة، جارتنا؟ لقد حاولت جاهدًا أن أتبيَّنه».

«الفتاة جارتنا ماتت، لأجل السماء دعنا نتكلم عن الأحياء».

لم ينظر «مونتاج» ناحية زوجته، وإنما قام ومشى وهو يرتعد عبر الصالة متجهًا إلى المطبخ. وهناك وقف طويلاً يشاهد المطر وهو يضرب النوافذ قبل أن يعود مرة أخرى في الضوء الرمادي عبر الصالة. انتظر حتى هدأت رعشته ثم فتح كتابًا آخر.

«ذلك الموضوع المفضل لدىَّ: ذاتي».

نظر إلى الحائط بعين شبه مغلقة وكرَّر: «ذلك الموضوع المفضل لدي: ذاتي».

قالت «ميلدريد»: «أستطيع تَفَهُّم ذلك».

لكن موضوع «كلاريس» المفضل لم يكن ذاتها. لم تكن تهتم بذاتها وإنما بكل من حولها، وبي. مرت سنوات عديدة لم أحب خلالها أحدًا كما أحببتها. كانت أول من نظر إلي بجدية وأشعرني بأن لي قيمة». أمسك بالكتابين: «لقد مات هذان الكتابان منذ زمن بعيد، إلا أن كلماتهما تشير بشكل أو بآخر إلى «كلاريس».

سمعا صوت صرير خافت عند الباب، وسط المطر.

تجمد «مونتاج». رأى «ميلدريد» تلهث وقد دفعت بنفسها إلى الحائط:

«هناك شخص ما بالخارج ـ يقف عند الباب ـ لماذا لم يعمل صوت الباب كالمعتاد فينبهنا أن شخصًا ما...».

ـ لقد قمت بإغلاقه.

سمعا صوت تنفس بطيء يأتي من تحت عتبة الباب، كان الزفير يشبه اندفاع البخار من آلة كهربائية.

ضحكت «ميلدريد» قائلة:

- إنه كلب. مجرد كلب. هل تحب أن أطرده بعيداً.

- ابق في مكانك!

ساد الصمت. كانت الأمطار الباردة تسقط. وكانت رائحة الكهرباء الزرقاء تنفذ عبر عتبة الباب المغلق. قال «مونتاج» في هدوء:

- فلنعد إلى العمل.

ركلت «ميلدريد» كتاباً ثم قالت:

- الكتب ليست حية. عندما تقرأ لي، أنظر حولي باحثة عن شخص حي يتكلم، لكن لا أحد هناك.

أخذ يحملق في حجرة الصالون الرمادية الخامدة، وكأنها مياه بحر كبير ساكن، تنتظر أن يضغط أحد على زر شمسها الكهربائية كي تموج بالحياة.

- العائلة حية. أفراد عائلتي يكلمونني؛ أضحك لهم ويضحكون لي، وكل تلك الألوان!

- أعرف، أعرف.

- علاوة على ذلك، فإن كابتن «بيتي» لو عرف بأمر هذه الكتب...

كانت الفكرة كفيلة بأن تجعلها تندهش بل ترتعد.

... قد يأتي ويحرق المنزل و«العائلة». شيء فظيع. فكر في أملاكنا؟ لماذا أقرأ؟ ما الذي سيعود علي إن قرأت؟

ـ لماذا؟ ما الذي سيعود عليّ؟ أنا أقول لك: في ليلة من الليالي رأيت أفظع ثعبان في العالم. كان ميتًا وحيًا في الوقت نفسه. كان يرى ولا يرى. هل تحبين أن تشاهدي هذا الثعبان؟ إنه هناك، في قسم الطوارئ في المستشفى حيث يوجد ملف يضم تقاريرعن كل النفايات التي امتصها من داخلك! هل تحبين أن تطلعي على الملف؟ ابحثي تحت «جاي مونتاج»، أو تحت الخوف أو الحرب. هل تحبين أن تزوري ذلك المنزل الذي احترق ليلة أمس؟ لتبحثي تحت الرماد عن تلك السيدة التي أشعلت النيران بنفسها في منزلها! وماذا عن «كلاريس ماكليلان»؟ أين نبحث عنها؟ في المشرحة؟ اسمعي!

كانت قاذفات القنابل تقطع السماء، ثم تقطعها مرة أخرى فوق المنزل. كانت القاذفات تلهث، وتهمس، وتصفر كأنها مروحة عملاقة غير مرئية تدور في الفراغ.

قال مونتاج:

ـ يا يسوع الإله. عشرات الطائرات في السماء كل ساعة. بحق الجحيم، كيف لهذه الطائرات أن تنطلق في كل ثانية من حياتنا؟ ولا أحد يريد أن يعترض على ذلك؟ منذ عام ١٩٩٠، قمنا بشن حربين ذريتين و انتصرنا في كلتيهما! ولا أحد يتكلم. هل نسينا العالم الخارجي لأننا ننعم في بلادنا بكل متع الحياة؟ هل لأننا أغنياء، والناس في العالم فقراء، ونحن لا نهتم بفقرهم؟ لقد قرأت شائعات تفيد بأن العالم يموت جوعًا، بينما نحن نشعر بالشبع. هل حقًا أن العالم يعمل بينما نحن نلهو؟ هل لهذا السبب نحن مكروهون؟ لقد سمعت أيضًا شائعات عن الكراهية، كانت تتردد كل فترة على مدار السنين. هل تعرفين السبب؟ أنا بالتأكيد لا أعرف. ربما تساعدنا الكتب على الخروج

من الكهف. ربما تستطيع الكتب أن تمنعنا من الوقوع في نفس الأخطاء المجنونة! لم أسمع أيًا من هؤلاء الحمقى أبناء الزنا ممن يظهرون على تلك الشاشات التي في الصالون، يتحدث عن هذه الأشياء. يا إلهي! «ميلي» ألا ترين؟ ساعة في اليوم، أو ساعتين مع هذه الكتب، وربما...

رن جرس التليفون، أمسكت «ميلدريد» السماعة بسرعة. قالت وهي تضحك:

ـ أهلاً آن! نعم، «المهرج الأبيض» سوف تعرض الليلة!

مشى «مونتاج» إلى المطبخ، ثم ألقى بالكتاب وهو يقول:

ـ مونتاج! أنت حقًا أحمق؟ ما الذي ستفعله بعد ذلك؟ هل نقوم بتسليم الكتب، وننساها إلى الأبد؟

فتح الكتاب، وأخذ يقرأ بينما كانت «ميلدريد» لا تزال تضحك. قال في نفسه: «مسكينة «ميلدريد». وأنت أيضًا مسكين يا «مونتاج»، أنت أيضًا غارق في الوحل، أين أجد المساعدة؟ أين أجد معلمًا في هذا الوقت المتأخر»؟ انتظر!

أغمض عينيه. نعم، مؤكد! وجد نفسه يفكر ثانيةً في ذلك اليوم الذي مضى منذ عام حيث كان يجلس في الحديقة الخضراء. كان قد تذكر ذلك اليوم مراراً في الأيام القليلة الماضية، ولكنه اليوم يذكر بالتفصيل كيف أخفى ذلك الرجل العجوز شيئًا ما بسرعة في معطفه.

قفز الرجل العجوز وكأنه سوف ينطلق راكضًا، فصاح «مونتاج»:

ـ انتظر.

صرخ الرجل وهو يرتعد :

ـ لم أفعل أي شيء .

ـ ومن قال : إنك فعلت .

جلسا سويًا تحت الضوء الأخضر الخافت دون أن ينطقا بكلمة واحدة . وبعد قليل تحدث «مونتاج» عن الطقس فأجابه الرجل العجوز بصوت واهن . كان اللقاء هادئًا وغريبًا . اعترف الرجل العجوز بأنه أستاذ لغة إنجليزية متقاعد . تم الاستغناء عن خدماته منذ أربعين عامًا . كان ذلك عندما أغلقت آخر كليات الفنون والآداب أبوابها بعد أن هجرها الطلاب ، ولم تجد راعيًا يدعمها ماديًا . كان الرجل يدعى «فيبر» ، وبمجرد أن زال خوفه من «مونتاج» ، بدأت كلماته تنتظم في إيقاع موزون ، وهو ينظر إلى السماء والأشجار ، و الحديقة العامة ذات اللون الأخضر . وبعد مرور ساعة ، قال الرجل شيئًا لمونتاج ، أدرك «مونتاج» أنه قصيدة من الشعر الحر . بعدها ، تجرأ الرجل العجوز وقال شيئًا آخر ، قصيدة أخرى . كان «فيبر» يضع يده فوق الجيب الأيسر لمعطفه وهو يهمس بتلك الكلمات ، وكان «مونتاج» متأكدًا من أن ديوان شعر يختبئ في جيب المعطف ، وأن بمقدوره إذا مد يده أن يمسك بهذا الديوان ، لكنه لم يمد يده ، كانت يداه لا تزالان في مكانهما فوق ركبتيه ، وقد أصيبتا بالخدر ولم تعد لهما فائدة . قال فيبر :

ـ أنا لا أحدثك الآن عن أشياء ، وإنما أحدثك عن معنى الأشياء ، فأنا أجلس في مكاني ها هنا وأنا على يقين بأنني حي .

كان هذا كل ما حدث ، حقًا . ساعة من المونولوج ، قصيدة ، تعليق ، ثم أخيرًا ، ودون الإشارة إلى حقيقة أن «مونتاج» رجل إطفاء ، كتب فيبر عنوانه على قصاصة من الورق ، وهو يقول :

ـ احتفظ بهذه، فربما تحتاج إليها إذا قررت معاقبتي.

ـ لا أريد معاقبتك.

هكذا أجاب «مونتاج»، وهو مندهش.

بدت ضحكات «ميلدريد» الآتية من غرفة الصالون وكأنها صراخ، بينما اتجه «مونتاج» إلى خزانة غرفة النوم وأخذ يبحث في حافظته عن الجيب الذي يحمل عنوان «للاستعلام لاحقًا». كان اسم «فيبر» هناك، لم يكن قد أبلغ عنه، ولم يكن قد تخلص من الورقة.

اتصل بالرقم... سمع الهاتف على الجانب الآخر يردد اسم «فيبر» عدة مرات حتى قام الأستاذ بالرد بصوت واهن:

ـ السيد «مونتاج»؟

ـ بروفيسير «فيبر». عندي سؤال عجيب أود أن أسأله لك. كم نسخة من الكتاب المقدس لا تزال موجودة في هذا البلد؟

ـ لا أعرف أي شيء عما تتكلم عنه.

ـ أريد أن أعرف إن كانت هناك أية نسخة باقية على الإطلاق.

ـ هذه بالتأكيد محاولة لإيقاعي في فخ! أنا أرفض الكلام على الهاتف هكذا مع شخص مجهول.

ـ كم نسخة لشكسبير؟ وكم لأفلاطون؟

ـ لا توجد أي نسخ! أنت تعلم ذلك أفضل مني! لا توجد أي نسخ.

أغلق «فيبر» السماعة، وكذلك «مونتاج». لا توجد نسخ. هذا ما

كان يعرفه مسبقًا من خلال القوائم، إلا أنه أراد أن يسمعها بأذنه من «فيبر» نفسه.

في غرفة الصالون، كان وجه «ميلدريد» تغمره النشوة:

ـ عظيم، السيدات آتيات.

قال «مونتاج» وهو يعرض عليها كتابًا:

ـ هذا هو العهد القديم، والعهد الجديد.

ـ لا تبدأ مرة أخرى في هذا الكلام!

ـ قد تكون هذه هي النسخة الوحيدة الباقية في هذا الجزء من العالم.

ـ إذن فعليك أن تسلمها الليلة، أليس كذلك؟ كابتن «بيتي» يعلم أنها بحوزتك. أليس كذلك؟

ـ لا أعتقد أنه يعرف أي الكتب سرقت. ولكن هل يمكن أن أختار كتاب آخر لأسلمه؟ من الممكن أن أسلم كتابًا «لجيفرسون»، أو «لثورو»! أيهما أقل قيمة؟ هناك مشكلة أخرى: لو كان «بيتي» يعلم بالتحديد أي الكتب سرقت، بينما سلمته أنا كتابًا آخر، فسوف يظن أن لدي هنا مكتبة كاملة!

تقلصت عضلات فم «ميلدريد» وهي تقول:

ـ أرأيت ما ستفعله بنا؟ سوف تدمرنا! من أهم بالنسبة لك؟ أنا؟ أم هذا الكتاب المقدس؟

كانت قد بدأت في الصراخ، و بدت كأنها عروس من الشمع تنصهر تدريجيًا بفعل الحرارة.

كان صوت «بيتي» يتردد في أذنيه :

ـ هيا يا «مونتاج»، اجلس ومتع نظرك. كأوراق الورد، اشعل برفق أول صفحة، ثم الثانية. وهكذا لتصبح كل منها فراشة سوداء. رائع، أليس كذلك؟ اشعل الصفحة الثالثة بالثانية وهكذا. . . سلسلة الحرق، فصل تلو الآخر. فلنتخلص من كل السخافات التي تحملها الكلمات. . . كل الوعود الزائفة، كل الأفكار المستهلكة، والفلسفات التي أكل عليها الدهر وشرب.

كان «بيتي» جالسًا، يتنفس في رقة، بينما كانت الأرض تحت قدميه مكسوة بآلاف الحشرات السوداء التي صعقتها العاصفة.

توقفت «ميلدريد» عن الصراخ فجأة كما بدأت فجأة. لم يكن «مونتاج» يستمع لها. قال :

ـ هناك شيء مهم يجب عمله الآن، وقبل أن يحل الظلام : قبل أن أسلم هذا الكتاب لكابتن «بيتي»، يجب أن أحصل على نسخة منه.

ـ يجب أن تكون هنا قبل أن يبدأ عرض «المهرج الأبيض»، السيدات سيأتين لمشاركتنا المشاهدة.

تسمَّر «مونتاج» عند الباب، وقد أدار ظهره لميلدريد، ثم خاطبها قائلاً :

ـ ميلي.

ساد صمت قبل أن ترد عليه قائلة :

ـ ماذا تريد؟

ـ ميلي. . . هل يحبك المهرج الأبيض؟

لم تكن هناك إجابة للسؤال.

ـ ميلي . . . هل . . .

بلَّلَ «مونتاج» شفتيه ثم قال:

ـ هل العائلة تحبك؟ تحبك حبًا جمًا، تحبك من كل قلبها وروحها؟

دون أن ينظر إليها، شعر بأنها تغمض عينيها وتفتحهما ببطء قبل أن تقول:

ـ لماذا تسأل سؤالاً بهذا السخف؟

شعر بأنه يريد أن يبكي، لكن شيئًا لم يحدث لعينيه، ولا لفمه. قالت له ميلدريد:

ـ إذا صادفك ذلك الكلب بالخارج، فلتركله نيابة عني.

تردد «ميلدريد» قبل أن يتحرك إلى الخارج، ثم فتح الباب و خطا إلى الخارج. كانت الأمطار قد توقفت وكانت الشمس تغرب في سماء صافية. كان الشارع الرئيس خاليًا وكذلك الطريق المفضي إلى المنزل. سمح للشهيق أن يتغلغل داخله في تنهيدة عميقة، ثم أغلق الباب خلفه.

وبينما هو على محطة مترو الأنفاق، شعر بخدر في وجهه؟ متى بدأ هذا الشعور؟ متى بدأت أفقد الإحساس بوجهي وجسمي؟ يوم ركلت زجاجة الدواء في الظلام . . . نعم يومها . . . و كأني اصطدمت بمنجم أثري.

قال في نفسه: سوف يذهب هذا الخدر إلى غير رجعة، سيستغرق ذلك بعض الوقت، ولكنني سوف أتخلص منه، فيبر سوف يخلصني

منه. إنسان ما... في مكان ما من العالم سوف يمنحني وجهي القديم ويعيد يداي إلى ما كانتا عليه في الماضي. ويعيد ابتسامتي، تلك الابتسامة القديمة التي احترقت، وراحت إلى الأبد. أنا ضائع بدونها.

كان النفق يجري أمام عينيه، سيراميك سمني اللون، ثم ظلام أسود كالفحم، سيراميك سمني، ظلام كالفحم، أرقام، ثم ظلام يليه ظلام ويتكرر نفس الترتيب.

في يوم من الأيام في طفولته، جلس فوق تل رملي صغير على شاطئ البحر في منتصف يوم حار من أيام الصيف ذات اللون الأزرق. أخذ يحاول أن يملأ منخلاً بالرمال، لمجرد أن ولدًا شريرًا من أبناء عمه قال له: «سأعطيك «دايم»[1] إذا استطعت أن تملأ هذا المنخل بالرمل!»

كان كلما اجتهد في سكب الرمال، انسابت بسرعة من خلال الثقوب محدثة صوتًا كالهمس. كان الرمل يغلي وكانت يداه قد أصابهما التعب، بينما المنخل لم يزل فارغًا. حينئذ أحس وهو يجلس هناك في منتصف شهر يوليو، بالدموع تجري على خَديه دون أن يصدر عنه أي صوت.

وبينما كان مترو الأنفاق يهزه بعنف، ويقذف به إلى كل سراديب الموت في المدينة، إذا به يتذكر المنطق العجيب لذلك المنخل، وإذا به يكتشف أنه يمسك بالكتاب المقدس وقد فتحه ليقرأه. كان هناك ركاب في عربة المترو، لكنه ظل ممسكًا بالكتاب مفتوحًا، وطرأت على رأسه فكرة عجيبة: كلما قرأت أسرع، وإذا قرأت كل شيء... ربما يمكن

---

(١) عملة تستخدم في أمريكا وكندا وتساوي عشرة سنتات (المترجمة).

الاحتفاظ ببعض الرمال في المنخل. وأخذ يقرأ، لكن الكلمات أخذت تنساب هاربة. شعر بالخوف، فبعد قليل سيكون هناك كابتن بيتي، وسيكون عليّ أن أقوم بتسليم الكتاب. مستحيل أن تضيع مني عبارة واحدة، يجب أن أحفظ كل سطر عن ظهر قلب. سوف أعقد العزم على الحفظ. قبض بشدة على الكتاب بكلتا يديه. دوّى صوت البوق معلنًا عن سلعة ما: «معجون أسنان دنهام». قال «مونتاج» في نفسه: اصمتوا قليلاً، وتأملوا زهور السوسن في الحقول[1] «معجون أسنان دنهام».

ـ إنها لا تكدح.

ـ معجون دنهام...

ـ تأمل زهور السوسن، اخرس... اخرس.

ـ معجون أسنان!

تصفح «مونتاج» الكتاب بعنف، وأخذ يتحسس الأحرف وكأنه كفيف. تأمل شكل الأحرف دون أن تطرف عيناه.

ـ دنهام تكتب دال ـ نون ـ هاء...

ـ لا تكدح، ولا تجوب الأرض...

---

(١) «تأملوا زهور السوسن في الحقول» كلمات قالها السيد المسيح عليه السلام لأتباعه يحثهم بها على الزهد في الدنيا والثقة بالله، يقول المسيح عليه السلام: لم تفكرون في ثيابكم ويشغلكم أمر سكناكم؟ فلتنظروا إلى زهور السوسن في الحقول، هل تكدح أو تجوب الأرض كي تكتسي بذاك المظهر الخلاب الذي لم يبلغه سليمان في بهائه.

صوت الهمس الصادر عن انسياب الرمل من المنخل الفارغ.

ـ دنهام يستطيع...

ـ تأمل زهور السوسن... السوسن... السوسن

ـ مطهر الفم دنهام.

ـ اخرس... اخرس... اخرس!

كان «مونتاج» يرجو المذيع أن يصمت، يتوسل إليه، يصرخ في ألم جعله يهب واقفًا على قدميه دون أن يشعر، بينما وقف ركاب العربة في ذعر وقد تراجعوا إلى الخلف وهم يحملقون في ذلك الرجل العجيب ذي الوجه المحتقن، والفم الجاف، والكلام غير المفهوم، والكتاب المفتوح. هؤلاء الناس الذين كانوا منذ لحظات يجلسون في هدوء يهزون أرجلهم على موسيقى معجون أسنان دنهام، مطهر الفم الأول... معجون أسنان دنهام... معجون أسنان دنهام... واحد، اثنين... واحد، اثنين، ثلاثة... واحد، اثنين... واحد، اثنين، ثلاثة. هؤلاء الناس الذين كانوا يحركون شفاههم باسم المعجون دنهام... دنهام، تقيأت الإذاعة الداخلية في المترو خليطًا من الموسيقى الصاخبة بآلات من الصفيح والنحاس والفضة والكروميوم، وكأنها تنتقم منه شر انتقام. أما الركاب فقد اضطروا للخضوع. لم يلجأوا للجري، لم تكن هناك مساحة تسمح بالجري. وأخيراً استقر مترو الأنفاق الطائر في مهبطه داخل النفق.

ـ السوسن في الحقول.

ـ معجون دنهام.

ـ قلت لكم السوسن.

أخذ الناس يحملقون في وجهه، ثم قال أحدهم:

ـ استدعوا الشرطة.

ـ هذا الرجل...

ـ نول فيو. (صوت عالٍ يعلن).

ـ معجون دنهام (صوت يهمس).

ـ السوسن (تحركت شفتا مونتاج).

انفتح الباب مُصدرًا صوت صفارة، فوقف «مونتاج». تنفس الباب قبل أن يبدأ في الإغَلاق. وهنا قفز مونتاج أمام الجميع، وهو يصرخ سرًا، ثم اندفع خارجًا من الباب في الوقت المناسب. أخذ يجري عبر الأنفاق، غير عابئ بالمصاعد الكهربائية، فقد كان يريد أن يحس قدميه تتحركان، وذراعيه تتأرجحان، ورئتيه تنقبضان وتنبسطان، وحنجرته تعود لحالتها الأولي بفعل الهواء.

كان هناك صوت يطارده: «معجون دنهام... معجون دنهام»، سمع حفيف المترو وكأنه ثعبان، ورآه وهو يختفي داخل الجحر.

ـ من الطارق؟

ـ أنا «مونتاج».

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد الدخول.

ـ لم أفعل شيئًا.

ـ جئت وحدي.

ـ أتقسم بالله على ما تقول؟

ـ نعم، أقسم.

فتح الباب الأمامي ببطء، خرج «فيبر» وقد جعله الضوء يبدو هرمًا وخائفًا وشديد الهزال. كان مظهره يوحي بأنه لم يخرج من المنزل منذ سنوات. كانت بشرته بيضاء بلون الورق اللاصق الذي يغطي حوائط المنزل من الداخل. كان اللون الأبيض يكسو شفتيه، وخديه، وشعره، بينما أوشكت عيناه أن تختفي تمامًا، وقد اختلط فيهما الأبيض بالأزرق الباهت. وبمجرد أن وقعت عيناه على الكتاب تحت ذراع «مونتاج»، بدأ مظهره يتغير فبدا أصغر سنًا، وأقل ضعفًا. وبدأ خوفه يزول شيئًا فشيئًا.

ـ أعتذر، ولكن يجب على المرء أن يتوخى الحذر.

نظر مرة إلى الكتاب تحت ذراع مونتاج، ولم يستطع أن يتوقف:

ـ إذن فإن الأمر جدي.

دخل «مونتاج» إلى المنزل، وأغلق الباب خلفه.

ـ تفضل بالجلوس.

هكذا قال «فيبر»، وهو يتراجع إلى الوراء وعيناه على الكتاب خشية أن يختفي لو أدار بصره بعيدًا. في الخلف، كان باب حجرة النوم مفتوحًا، وبدت من خلاله ورشة تعج بأدوات وآلات تناثرت هنا وهناك. لم تتح لمونتاج الفرصة ليتبين ما بالداخل، فقد تنبه «فيبر» وأغلق الباب بسرعة وظل ممسكًا به بيد ترتعد. عاد ينظر في قلق إلى مونتاج، الذي كان قد جلس ووضع الكتاب على فخديه.

ـ هذا الكتاب. . . من أين جئت به؟

ـ سرقته.

رفع «فيبر» حاجبيه، ولأول مرة نظر مباشرة في عيني «مونتاج»، ثم قال:

ـ أنت شجاع.

ـ لا، لست شجاعًا، وإنما فقط وجدت زوجتي تحتضر، وأحد أصدقائي توفي بالفعل، وإنسانة أخرى ـ كان من الممكن أن تصبح صديقة ـ ماتت محترقة منذ أقل من أربع وعشرين ساعة. وأنت الإنسان الوحيد الذي يملك مساعدتي لكي أرى. . . لكي أرى. . .

شعر «فيبر» بحكة في كلتا يديه فرفعهما من فوق ركبتيه، وهو يقول:

ـ هل لي أن. . .

قال «مونتاج» وهو يناوله الكتاب:

ـ آسف.

ـ مضى وقت طويل. أنا لست بالرجل المتدين، ولكن مضى وقت طويل جداً. أخذ «فيبر» يقلب الصفحات، ويتوقف هنا أو هناك لكي يقرأ، ثم قال:

ـ آه. إنه هذا الكتاب نفسه الجميل الذي أحتفظ به في ذاكرتي. يا إلهي، لكم تم تحريفه هذه الأيام في تلك المسلسلات التي تعرض في غرف الصالون. المسيح الآن هو أحد أفراد «العائلة». أحيانًا أسأل نفسي هل يستطيع الرب أن يتعرف إلى ابنه وهو على تلك الصورة التي

رسمناها له؟ أو بالأحرى في تلك المرتبة التي أنزلناه إليها؟ فقد تم اختزاله في عصى من السكر والنعناع تشبه عصا الراعي أو في شاب أنيق كثيراً ما يقوم بالإعلان - بشكل غير مباشر - عن بعض المنتجات التي بالتأكيد يشعر كل من يعبد الرب بالحاجة إليها.

تشمم «فيبر» رائحة الكتاب، ثم قال:

- هل تعرف أن رائحة الكتاب تشبه رائحة جوزة الطيب أو رائحة بهار ما من بلاد بعيدة؟ عندما كنت صغيراً كنت أعشق تلك الرائحة. يا إلهي، لقد كان لدينا الكثير من الكتب في يوم من الأيام، ثم فرطنا فيها وتخلينا عنها.

قلب «فيبر» الصفحة، ثم قال:

- أتعرف يا مستر «مونتاج»، أنت الآن تتكلم مع رجل جبان. لقد كنت هناك بينما كان كل شيء يتغير، لكنني ظللت صامتاً. كان هناك الأبرياء والمذنبون، وكنت أنا أحد هؤلاء الأبرياء الذين كان من الممكن أن يتكلموا ويعبروا عن أنفسهم في وقت لم يكن أحد ليستمع للمذنبين. لكنني لم أتكلم فأصبحت مذنباً. وعندما أقاموا هذا النظام لحرق الكتب - بالاستعانة برجال الإطفاء - زمجرت أكثر من مرة ثم هدأت، فلم يكن هناك من يزمجر أو يصرخ معي. أما الآن فلا فائدة من أي شيء.

أغلق «فيبر» الكتاب المقدس، ثم قال:

- والآن، فلنفترض أنك أخبرتني بالسبب الذي جئت من أجله.

- لم يعد أحد يستمع إلى ما أقول. لا أستطيع أن أكلم الحوائط، لأنها تصرخ في وجهي. ولا أستطيع أن أتكلم مع زوجتي لأنها

تستمع إلى الحوائط. أنا في حاجة شديدة إلى أن أتكلم، وأريد شخصًا ما يستمع إلى ما أقوله، ربما إذا تكلمت طويلاً، سيصبح لكلامي معنى. أنا أيضًا في حاجة إليك لكي تعلمني معنى ما أقرأ.

نظر «فيبر» في وجه «مونتاج» الهزيل ذي الخدين المائلين إلى الزرقة، ثم سأله:

ـ ما الذي جعلك تتردد، ما الذي أسقط المشعل من يدك؟

ـ لا أدري. لدينا كل ما يجعلنا سعداء، لكننا لسنا سعداء. هناك شيء ما مفقود. نظرت حولي فوجدت أن الشيء الوحيد الذي اختفي من حياتنا هو الكتب التي أقوم بإحراقها منذ عشر أو ربما اثنى عشر عامًا. لهذا أعتقد أن الكتب ربما تكون مفيدة.

ـ أنت رومانسي بائس. ما تقوله قد يبعث على الضحك لولا أنك تقوله بجدية شديدة. الكتب ليست بالتحديد هي ما نحتاج إليه، وإنما نحن في حاجة شديدة إلى أشياء كانت يومًا ما توجد في الكتب. كان من الممكن أن نجد تلك الأشياء في « حجرة الصالون في مسلسل العائلة»، وكان بوسعنا أن نبث التفاصيل الدقيقة، والحس المرهف من خلال الراديو والتليفزيون، لكننا في الواقع لا نفعل ذلك. لا، لا، ليست الكتب هي ما نبحث عنه! بل أشياء كان من الممكن أن نجدها في تسجيلات الفونوغراف والأفلام القديمة، والأصدقاء القدامى. ابحث عنها في الطبيعة، أو ابحث عنها بداخلك. أما الكتب فما هي إلا مستودعات لحفظ ما نخشى نسيانه من أشياء. ليس هناك سحر في الكتب، وإنما السحر فيما تقوله الكتب، في ذلك الرداء البديع الذي تحيكه الكتب من قصاصات العالم. أنت طبعًا لا تعرف ذلك، أنت لا تفهم ما أعنيه عندما أقول لك هذا الكلام. لكنك محق

بالفطرة، وهذا ما يهم. هناك ثلاثة أشياء مفقودة: أولاً: هل تعلم لماذا تكتسب هذه النوعية من الكتب أهمية كبيرة؟ لأنها ذات جودة عالية. وهل تعلم ماذا تعني لي الجودة؟ إنها بالنسبة لي تعنى الحياة. هذا الكتاب له مسام، وله ملامح. لو وضعت هذا الكتاب تحت الميكروسكوب، فإنك تستطيع أن ترى الحياة تتدفق بغزارة تحت الزجاج. وكلما زادت المسام... وكلما كثرت تفاصيل الحياة التي سجلتها يد الكاتب بصدق في كل بوصة مربعة من صفحات الكتاب، ارتفعت قيمة الكتاب «الأدبية». هذا هو تعريفي للأدب على أي الأحوال. تفاصيل ذات مغزى، تفاصيل طازجة. الكاتب الجيد يستطيع أن يتحسس الحياة في مواضع مختلفة، بينما الكاتب الأقل مهارة يمرر يده عليها في عجالة، أما الكاتب السيء فهو يغتصب الحياة ثم يتركها للذباب. فهل فهمت الآن سر خوف الناس من الكتب وكراهيتهم لها؟ لأن الكتب تكشف ما في وجه الحياة من مسام. ولكي يشعر الإنسان بالراحة، فإنه لا يريد أن يرى سوى وجوه ملساء كقمر مصنوع من الشمع، ليس به مسام، ولا شعر، ولا تعبير. نحن نعيش في زمن تَودُّ فيه الأزهار أن تتغذى على الأزهار، بدلاً من أن تعيش على مياه الأمطار والطمي ذي اللون الأسود. حتى المفرقعات الملونة، فعلى الرغم من جمالها وهي تزين السماء، تصنع من كيمياء الأرض. وعلى الرغم من ذلك، فكثير من الناس يعتقدون أننا نستطيع أن نعيش على الأزهار والمفرقعات دون أن نكمل دورة الحياة عائدين إلى الأرض. هل تعرف أسطورة «هرقل» و«أنتياس»؟ كان أنتياس مصارعًا عملاقًا، وكانت قوته خارقة طالما كان واقفًا بثبات على الأرض، لكنه كان يضيع تمامًا إذا ما حمله هرقل في الهواء بعيدًا عن جذوره الأرضية. إذا كنت لا أستطيع فهم مغزى تلك الأسطورة بالنسبة لنا

اليوم، في هذا الزمان وهذا المكان، فإنني بالتأكيد قد فقدت عقلي تمامًا. حسنًا، هذه هي أول الأشياء الثلاثة المفقودة: الجودة، تفاصيل الحياة التي تحملها سطور الكتب.

ـ ما الشيء الثاني، إذن؟

ـ وقت الفراغ.

ـ وقت الفراغ؟ ولكننا اليوم نحصل على إجازات كثيرة.

ـ صحيح أن لدينا إجازات، ولكن ليس لدينا مساحة للتفكير. فأنت إما أن تقود سيارتك بسرعة مائة ميل في الساعة على طريق كالشريط تخشى أن تسقط من فوقه، فلا تستطيع أن تفكر في شيء إلا في كيفية أن تصل سالمًا، وإما أن تستغرق تفكيرك إحدى اللعب الإلكترونية... وإما أن تجلس في واحدة من تلك الغرف ذات الحوائط التلفازية المجسمة، فتستمع للممثلين والمذيعين دون أن تناقشهم؟ لماذا؟ لأنهم يعرضون «الحقيقة»، ولأنهم أمامك في تلك اللحظة، بالأبعاد الطبيعية. ولهذا فأنت تتركهم يُمْلُون عليك طريقة التفكير ويقذفون بها فوق رأسك. وهي بالتأكيد الطريقة المثلى للتفكير! فهي تبدو صائبة! وهي تلاحقك بسرعة وتدفعك نحو نتائج محددة، بينما لا تتاح لعقلك الفرصة لأن يعترض قائلاً: «ما هذا الهراء!».

ـ ولكن في مسلسل العائلة أناسًا حقيقيين.

ـ ماذا قلت؟

ـ تقول زوجتي: إن الكتب ليست حقيقية.

ـ الحمد لله على هذا، فأنت بمقدورك أن تغلق الكتاب قائلاً له:

«اصمت لحظة»، في حالة الكتاب أنت تلعب دور السيد، أما في غرفة الصالون أمام الحوائط التليفزيونية فأنت العبد. من منا يستطيع أن يُخَلِّص نفسه من تلك القبضة بعد أن يرمي بذرة في غرفة التليفزيون، تنمو هذه البذرة بداخلك فتتشكل أنت تبعًا لها. فكل ما يحيط بك كأنه حقيقي كالعالم. وما يقدم لك يصبح هو الحقيقة بعينها. الكتب يمكن أن تغلبها بالمنطق، أما تلك الصالونات بفرقتها الموسيقية المكونة من مائة عازف، وألوانها المتلألئة، وصورها المجسمة التي تجعلك تذوب فيها وتصبح جزءًا منها، فكيف لك أن تغلبها؟ كما ترى، لا يوجد عندي في صالوني سوى ثلاثة حوائط من الجبس، وهاتان (قال وهو يمسك بسدادتين من المطاط) هاتان لأذنيّ عندما أركب مترو الأنفاق.

أغمض «مونتاج» عينيه وهو يردد: «معجون أسنان دنهام، لا تكدح ولا تجوب الأرض. . .» ثم قال لفيبر:

ـ إذن فماذا نفعل الآن؟ هل ستساعدنا الكتب على الخروج من المأزق؟

ـ فقط إذا كان لدينا الشيء الثالث المهم. تَذَكَّرْ أول شيء هو جودة ما نتعلمه في الكتب، والثاني هو وقت الفراغ لكي تتمكن من استيعاب ما نتعلم، والثالث هو الحق في اتخاذ مواقف بناء على ما نتعلم من أولاً وثانيًا. والحقيقة أنني لا أعتقد أن رجلاً طاعنًا في السن ورجل إطفاء ثائر يستطيعان أن يغيرا الكثير الآن في هذا الوقت المتأخر من المباراة.

ـ ولكني أستطيع جلب الكتب.

ـ أنت تغامر بحياتك.

ـ هذا هو أجمل ما في الموت، فعندما لا يكون لديك ما تخشى أن تخسره، فإنك تصبح أكثر قدرة على المغامرة بأي شيء.

ـ ها أنت تقول أشياء ذات قيمة دون أن تكون قد قرأتها من قبل.

ـ هل تحتوي الكتب على مثل هذه الأقوال، ولكنها خطرت ببالي دون أي ترتيب.

ـ وهذا يجعلها أفضل، فأنت لم تؤلفها من أجلي، ومن أجل شخص آخر، ولا حتى من أجل نفسك.

مال «مونتاج» إلى الأمام ثم قال:

ـ اليوم فقط خطرت ببالي فكرة: إذا ثبت أن الكتب نافعة، فلماذا لا نقوم نحن بطبع نسخ إضافية مما لدينا من كتب.

ـ نحن؟

ـ نعم. أنا و أنت.

اعتدل «فيبر» في جلسته ثم قال:

ـ لا... لا... لا.

ـ دعني فقط أشرح لك خطتي.

ـ إذا كنت مصراً على الشرح، فأنا مضطر أن أطلب منك أن تنصرف من فورك.

ـ ولكن ألا تجد الأمر شيقًا؟

ـ لا، خاصة إذا ما كنت ستستمر في الحديث عن تلك الخطة التي ربما تعرضني للحرق مقابل ما أقوم به من عمل. من الممكن أن أستمع

إليك في حالة واحدة فقط: إذا احترق ذلك الكيان المسمى برجال الإطفاء. فمثلاً، إن كنت تقترح أن نطبع نسخًا من الكتب ثم نقوم بالتخطيط لوضعها سرًا في بيوت رجال الإطفاء على طول البلاد وعرضها، من أجل أن نزرع في الناس بذور الشك في هؤلاء الحارقين، فسأستطيع - هنا - أن أقول لك براو!

- نزرع الكتب في بيوت رجال الإطفاء، ثم نبلغ عنهم، ثم نشاهد بيوتهم وهي تحترق. أليس هذا ما تقصد؟

رفع «فيبر» حاجبيه ونظر إلى «مونتاج» وكأنه يراه لأول مرة، ثم قال:

- كنت أمزح.

- إذا كنت ترى أنها خطة تستحق الجهد وأنها سوف تخرجنا من المأزق، فأنا أصدقك وأثق فيما تقول.

- لا أستطيع أن أضمن شيئًا كهذا، فالإنسان عندما كانت لديه كل الكتب التي يحتاج إليها، أصر على أن يصل إلى أعلى قمة ويقفز من فوقها. لكننا ما زلنا بحاجة إلى المعرفة، وربما بعد ألف عام من الآن، سوف يبحث الإنسان عن قمم أقل ارتفاعًا ليقفز من فوقها. لقد خلقت الكتب لكي تذكرنا بأننا حمقى. الكتب تقوم بدور الجنود الذين دافعوا عن قيصر، كانوا يهمسون في أذنه بينما يسير في الموكب: «فلتذكر يا قيصر أنك إلى زوال». أغلب الناس لا يستطيعون التجوال في كل مكان كي يتحاوزوا مع باقي البشر، وكي يشاهدوا كل المدن في جميع أنحاء العالم. لا يوجد لدينا ما يكفي لذلك من نقود، ولا وقت، ولا أصدقاء. كل ما تبحث عنه يا «مونتاج» موجود في

العالم ولكن الكتاب هو الطريقة الوحيدة التي يستطيع من خلالها رجل متوسط الحال أن يرى تسعًا وتسعين بالمائة من هذه الأشياء. لا تطلب مني ضمانات، ولا تطمح في أن يتحقق الخلاص من خلال شيء ما أو شخص ما أو ماكينة أو حتى مكتبة كاملة. عليك أن تسعى إلى شاطئ النجاة بنفسك، فإذا لم تنج، وشعرت أنك تغرق، فأنت على الأقل تموت وأنت تعرف أنك متجه نحو الشاطئ.

وقف «فيبر» وأخذ يمشي في الحجرة بخطوات هادئة.

ـ إذن ماذا ترى؟

ـ هل أنت جاد فيما تقول؟

ـ جاد جداً.

ـ إنها خطة تنطوي على غدر.

ـ نظر «فيبر» إلى باب غرفة نومه في قلق ثم أكمل كلامه قائلاً:

ـ أن يحرق رجال الإطفاء أنفسهم بأيديهم في كل مكان... أن تحترق بيوتهم كأوكار للخيانة... هكذا يأكل السمندر ذيله، يا إلهي.

ـ لديّ عناوين رجال الإطفاء في كل مكان، ونستطيع أن نستعين بـ....

ـ للأسف لا يمكن أن نثق بأي إنسان، وهذا سيكون مرهقًا للغاية. أنا وأنت فقط سوف نشعل النيران، من سيكون معنا؟

ـ هل يوجد أي من زملائك من أساتذة الجامعة، أو الكتاب، أو المؤرخين أو علماء اللغة ممن يمكن الاستعانة بهم؟

ـ لا ، فمعظمهم ماتوا أو أصبحوا أثريين .

ـ التقدم في السن ميزة وليس عيبًا ، فكلما تقدم الشخص في السن ، ابتعد عن الشبهات . أنت بالتأكيد تعرف الكثيرين منهم ، اعترف .

ـ آه بالطبع هناك الكثير من الممثلين الذين لم يقدموا مسرحيات بيرانديللو أو «شكسبير» أو «شو» منذ سنوات ، لأن هذه المسرحيات «على دراية» بالحياة . نستطيع أن نستغل سخطهم ، كما نستطيع أن نستغل أيضًا غضب هؤلاء المؤرخين الذين لم يسجلوا حرفًا منذ أربعين عامًا . كذلك نستطيع تنظيم برامج في التفكير والقراءة .

ـ فعلاً !

ـ ولكن المشكلة أن هذا سوف يعمل فقط على تسوية الأطراف ، بينما جوهر حياتنا هو ما يحتاج إلى العلاج ، الهيكل العظمي نفسه في حاجة إلى إعادة تشكيل . يا إلهي ، المسألة ليست العودة إلى كتاب كنت قد وضعته جانبًا منذ نصف قرن مضى . تذكر يا «مونتاج» أننا لم نعد بحاجة إلى رجال لإحراق الكتب ، فالناس أنفسهم قد توقفوا عن القراءة بإرادتهم . وأصبح دور رجال الإطفاء هو تقديم عرض كعروض السيرك من وقت إلى آخر يقومون فيه بحرق منزل يجتمع الناس حوله للاستمتاع بألوان النار . لا يتعدى دور رجال الإطفاء الآن إلى ما أبعد من ذلك ، ولا أهمية لوجودهم في حفظ النظام ، فلم يعد هناك متمردون باستثناء قلة . وأغلب هؤلاء يشعرون بالرعب من أقل شيء . هل تستطيع أن ترقص أسرع من المهرج الأبيض؟ أو ترفع صوتك أعلى من صوت «مستر بميك» أو أفراد العائلة؟ إذا كنت تستطيع

فسوف تكسب يا «مونتاج»، وفي كل الأحوال، أنت أحمق! فالناس سعداء ولا ينقصهم شيء!

ـ سعداء بالانتحار؟ بالقتل؟

بينما كانا يتحدثان، كانت طائرة قاذفة للقنابل تتحرك شرقًا... شعرا وكأن صوتها يهز أعماقهما. وهنا قال «فيبر»:

ـ فلنصبر يا «مونتاج»، وسوف تتولى الحرب مهمة إسكات العائلة! فحضارتنا تمزق نفسها بنفسها. فقط علينا أن نبتعد عن قوة الطرد المركزية وقت الانفجار.

ـ ولكن يجب أن يكون هناك منقذ مستعد لعمل شيء حين تأتي الساعة.

ـ من؟ رجال يحفظون «ميلتون» عن ظهر قلب؟ أشخاص يذكرون أبياتًا من «سوفوكليس»؟ أناس يذكرون الناجين بأن الإنسان بداخله أيضًا خير. هؤلاء لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا، سيقومون فقط برمي بعضهم بعضًا بالحجارة. «مونتاج»، عد إلى منزلك، إلى سريرك. لماذا تضيع الساعات الأخيرة وأنت تدور في القفص؟ لماذا تنكر أنك مجرد سنجاب ضعيف؟

ـ إذن فالأمر لم يعد يعنيك؟

ـ يعنيني... ويعييني.

ـ ولن تساعدني؟

ـ تصبح على خير. تصبح على خير.

أمسكت يدا مونتاج بالكتاب المقدس... رأى ما فعلت يداه وأصابته الدهشة.

ـ هل تريد الاحتفاظ بهذا الكتاب؟

ـ خذ ذراعي واتركه لي .

وقف «مونتاج» ينتظر لا يغلم ما سوف يحدث . وفجأة، بدأت يداه من تلقاء نفسها، تمزق صفحات الكتاب، كانتا تعملان معًا وكأنهما رجلان يتعاونان في عمل ما . بدأتا بتمزيق صفحة العنوان، ثم الصفحة الأولى فالثانية . صرخ «فيبر» :

ـ أحمق . ماذا تفعل؟

قفز «فيبر» كمن لدغه عقرب، وأمسك بمونتاج الذي تخلص منه وترك يديه تعملان مرة أخرى . سقطت ست صفحات من الكتاب المقدس على الأرض، قام «مونتاج» بالتقاطها ثم أمسك بها في قبضة يده أمام عيني فيبر . قال الرجل العجوز :

ـ لا تفعل ذلك . لا تفعل ذلك .

ـ من يملك أن يمنعني . أنا رجل إطفاء، أنا أستطيع أن أشعل فيك النيران!

نظر إليه «فيبر»، ثم قال :

ـ لن تستطيع .

ـ بل أستطيع .

ـ الكتاب، لا تمزقه أكثر من ذلك .

غاص «فيبر» في أحد الكراسي، وقد ابيض وجهه، وكان فمه يرتعد، وهو يقول :

ـ لا ترهقني أكثر من ذلك . ماذا تريد؟

ـ أحتاج إليك كي تعلمني.

ـ حسنًا، سوف أعلمك.

هنا وضع «مونتاج» الكتاب، وبدأ يسوي الأوراق التي تجعدت ويبسطها، بينما أخذ «مونتاج» يشاهده وقد أصابه الإعياء. وفجأة تكلم مونتاج وهو يهز رأسه كمن يريد أن يفيق من النوم:

ـ مونتاج، هل لديك أية نقود؟

ـ لديّ بعض النقود. أربعة، بل خمسة آلاف دولار. لماذا تسأل؟

ـ أحضر هذه النقود. تعرفت إلى رجل كان يطبع الكتب وينشرها في الكلية التي كنت أعمل بها منذ نصف قرن من الزمان. كان ذلك بالتحديد في نفس العام الذي فوجئت فيه في بداية الفصل الدراسي بأن طالبًا واحدًا فقط قد سجل اسمه في البرنامج الذي كنت أقوم بتدريسه وعنوانه: «المسرح منذ إيسكيليس إلى أونيل»، وكأني أشاهد تمثالاً رائعًا من الثلج وهو يذوب في الشمس. ما زلت أذكر كيف ماتت الجرائد اليومية، وسقطت كأنها ذبابات عملاقة. لم يكن أحد يتمنى عودتها للحياة. لم يفتقدها أحد. بعدها أدركت الحكومة كم هو جميل ألا يقرأ الناس في أي موضوع سوى القبلات الحارة والقبضة القوية، فقامت بالسيطرة على القراءة عن طريق إحراق الكتب. المهم الآن يا «مونتاج»، نستطيع أن نستخدم الناشر العاطل. نستطيع أن نبدأ ببعض الكتب ثم ننتظر حتى يتغير شكل الحياة باندلاع الحرب. قنابل معدودة وسوف تختفي كل العائلات من فوق جدران الصالونات في كل البيوت، وكأنها الفئران المضحكة تهرع إلى الجحور. وفي هذا الصمت سوف تخلو الساحة ويستمع الناجون لما نهمس به.

وقف الرجلان ينظران إلى الكتاب المُلْقَى على المنضدة، قال مونتاج:

- أحاول أن أتذكر، ولكن، اللعنة لا أستطيع. يا إلهي، لكم تمنيت أن يكون لديّ ما أَرُدُّ به على الكابتن. إنه قرأ الكثير، ولديه إجابة لأي سؤال، أو هكذا بدا لي. كان صوته يشبه الزبد. أخشى أن تردني مناقشاته إلى ما كنت عليه. فمنذ أسبوع واحد كنت أمسك بخرطوم الكيروسين وأنا أقول في نفسي: «يا إلهي، يا لها من متعة!!»

هز الرجل العجوز رأسه، وهو يقول: «من لا يبني، فعليه أن يحرق. هكذا الحال منذ القدم، ولهذا السبب ينحرف الصغار».

- وهذا هو حالي أنا.

- هذا هو حالنا جميعًا إلى حد كبير.

توجه «مونتاج» نحو الباب الأمامي، وهو يقول:

- هل تستطيع أن تحميني من الكابتن بأي وسيلة هذه الليلة، أنا في حاجة إلى مظلة تحميني من الأمطار، وإلا سأغرق إذا أمسك بي مرة أخرى.

لم يرد الرجل العجوز ولكنه نظر مرة أخرى في قلق إلى حجرة نومه. فهم «مونتاج» معنى النظرة هذه المرة.

- إذن؟

أخذ الرجل العجوز نفسًا عميقًا، ثم حبسه بداخله، ثم أخرجه. أخذ نفسًا آخر، وقد أغمض عينيه، وزمَّ شفتيه، وأخيرًا أخرج زفيرًا، ثم قال:

ـ «مونتاج»، لا تضيِّع وقتك. كان من المفروض أن أطردك من بيتي، فأنا في الحقيقة مجرد رجل عجوز جبان أحمق.

فتح «فيبر» باب حجرة النوم، وأخذ بيد «فيبر» إلى غرفة صغيرة بها منضدة عليها عدد من الآلات المعدنية، وحولها فوضى من الأسلاك الميكروسكوبية، والبكرات واللفات الصغيرة والبلورات.

ـ ما هذا؟

ـ هذا هو الدليل على أني جبان. لقد عشت وحيداً لسنوات طويلة، أرسم الصور على الجدران في مخيلتي. ألعب بالإلكترونيات، كانت هوايتي المفضلة هي الإرسال الإذاعي. وقد بلغ بي الجبن مبلغًا، وكان يسير جنبًا إلى جنب مع الثورة التي تشتعل بداخلي، ولهذا فقد قمت بتصميم هذه.

أمسك بجهاز معدني أخضر صغير، لا يتعدى حجمه رصاصة مقاس ٢٢ . أكمل «فيبر» حديثه:

ـ تحملت تكاليف كل هذا. كيف؟ كنت أضارب في البورصة، طبعًا، فالبورصة هي الملجأ الأخير المتاح لمفكر خطر ممن قد أوقفوا عن العمل. على أية حال فقد ضاربت في البورصة و صممت كل هذا ومكثت أنتظر. انتظرت طويلاً لمدة تقترب من نصف عمر على أمل أن يتصل بي أحد، انتظرت وأنا أرتعد من الخوف، ولم أجرؤ أن أتصل أنا بأي إنسان، حتى جاء اليوم الذي قابلتك فيه في الحديقة، وجلسنا سويًا. يومها تأكدت أنك ستأتي إلي في يوم من الأيام إما أنْ تشعل حريقًا وإمّا أن تبحث عن صديق. لم يكن بوسعي أن أخمن. وأعددت هذا الشيء، وها هو جاهز للاستعمال منذ شهور، لكنني كدت أتركك تمضي، لأنني خائف لهذه الدرجة.

ـ يبدو وكأنه راديو قوقعة البحر .

ـ هو كذلك أكثر . فهو لا يرسل فقط وإنما أيضًا يستقبل ! فإذا وضعته في أذنك ، فإنني أستطيع يا عزيزي «مونتاج» أن أجلس مرتاحًا في منزلي ، تنعم بالدفء عظامي الخائفة ، بينما أنا أستمع وأحلل لك ما يقوله رجال الإطفاء . سأساعدك أن تضع يدك على الخلل فيما يقولون دون أن أعرض نفسي للخطر . سأصبح أنا ملكة النحل تجلس في مأمن داخل الخلية ، بينما تصبح أنت ذكر النحل الكسول ، مجرد أذن . وربما أستطيع في النهاية أن أضع جهازًا كهذا في كل مكان في المدينة ، في آذان رجال كثيرين ، أستمع وأقيِّم ما أسمع . فإذا مات ذكور النحل ، أظل أنا حيًا في خليتي ، أتعهد خوفي بأعلى قدر من الرعاية ، وأقل قدر من المخاطرة . أترى إلى أي حد بلغ حرصي؟ أترى إلى أي حد وصلت حقارتي؟

وضع «مونتاج» الرصاصتين الخضراوين في أذنيه ، بينما وضع الرجل العجوز في أذنه جهازًا شبيهًا ، وجعل يحرك شفتيه .

ـ مونتاج .

كان الصوت يتردد داخل رأس «مونتاج» الذي قال «لفيبر» :

ـ أنا أسمعك بوضوح .

ضحك الرجل العجوز ثم قال :

ـ أنا أيضًا أسمعك بوضوح شديد ! !

كان «فيبر» يهمس ، ولكن صوته كان واضحًا جدًا في رأس «مونتاج» :

ـ فلتذهب إلى مبنى المطافئ عندما يحين الوقت ، وسأكون معك .

فلنستمع إلى الكابتن «بيتي» هذا سويًا، الله أعلم، لعله يصبح واحدًا منا في يوم من الأيام. سألقنك أشياء لتقولها، سنقدم له عرضًا رائعًا. والآن قل لي: هل أنت تكرهني بسبب هذا الجبن الإلكتروني؟ ها أنا ذا أرسل بك في الظلام، بينما أنا أتحصن خلف خط النار، تساعدني هاتان الأذنان اللعينتان كي أصغي إلى صوتك قبل أن يقطعوا رأسك.

ـ فليعمل كل منا قدر استطاعته.

قال «مونتاج» ذلك ثم وضع الكتاب المقدس في يدي الرجل العجوز، ثم أردف قائلاً:

ـ ها هو الكتاب. سأغامر بطباعة نسخة... غدًا.

ـ سأحاول الاتصال بصديقي القديم الناشر العاطل. لن يمنعني الجبن من أن أفعل ذلك.

ـ تصبح على خير يا أستاذ.

ـ لم تنته الليلة بَعْدُ. فأنا سأرافقك طوال الليل، وكأنني البعوضة التي تقضم أذنيك كلما احتجت إلي المساعدة. لكن تصبح على خير وحظ سعيد في كل وقت على أي حال.

انفتح الباب ثم أغلق. أما «مونتاج» فقد سار مرة أخرى في الشارع المظلم ينظر إلى العالم من أمامه.

تستطيع في تلك الليلة أن تستشعر الحرب وقد استعدت في السماء، السحب تتحرك جانبًا ثم تعود، وشكل النجوم، ملايين النجوم تسبح بين السحب كأنها الأطباق الطائرة أرسلها الأعداء. كان هناك شعور بأن السماء قد تسقط فوق المدينة وتحولها إلى تراب

كمسحوق الطباشير، بينما ارتفع القمر إلى أعلى في سماء حمراء كالنار، هكذا بدت تلك الليلة.

مشى «مونتاج» خارجًا من نفق المترو وقد وضع النقود في جيبه (كان قد سحب النقود من البنك المفتوح طوال الليل بفضل الصرافين الآليين الذين يلبون طلبات العملاء في أي وقت) وبينما هو يمشي في الطريق كان يستمع إلى مذيع راديو قوقعة البحر بإحدى أذنيه يقول: «لقد قمنا بإرسال مليون جندي. النصر السريع حليفنا إذا ما حلت الحرب»، بعد ذلك انهمرت الموسيقى لتغطي على صوت المذيع. في الأذن الأخرى، كان صوت «فيبر» يهمس: «عشرة ملايين أرسلوا إلى الحرب، ولكن قل مليونًا واحداً فهذا أدعى للسعادة».

ـ فيبر؟

ـ ماذا؟

ـ أنا لا أفكر. أنا فقط أنفذ ما يقال لي، كما كنت في الماضي. أمرتني بأن أسحب النقود، فسحبتها. لم أتوصل للفكرة بنفسي. متى؟ متى سيكون بمقدوري أن أفكر بمفردي؟

ـ لقد بدأت بالفعل تفكر، وها أنت تصل بتفكيرك إلى مثل هذا السؤال. عليك فقط أن تطمئن لي.

ـ لقد كنت مطمئنًا للآخرين.

ـ وماذا حدث؟ انظر إلى أين نحن ذاهبون؟ لذا فعليك أن تترك نفسك لي وتمنحني الفرصة، وها هي ذراعي لتستند إليها.

ـ لا أريد أن أغير مبادئي لأظل في النهاية تابعًا أفعل ما يملى عليّ. فليس هناك معنى إذًا للتغيير.

ـ ولكنك الآن واع بما تفعل ولست تابعًا .

شعر «مونتاج» بقدميه تحركه نحو منزله ، وهو يقول لفيبر :

ـ لا تتوقف عن الحديث .

ـ هل تحب أن أقرأ لك؟ سأقرأ لك حتى لا تنسى . أنا أنام خمس ساعات فقط بالليل . وليس لديّ ما أفعله . لذا ، فإذا أردت فسوف أقرأ لك حتى وأنت نائم ، فقد سمعت أن الإنسان يستطيع الانتفاع بالمعرفة حتى وهو نائم، إذا ما همس أحد في أذنه .

ـ موافق .

ـ اسمع . . .

عبر المدينة النائمة ، سافر صوت الصفحة تطوى رقيقًا هامسًا ، وفيبر يقول : «سفر أيوب» .

أشرق القمر في السماء بينما كان «مونتاج» يسير ، شفتاه تتحركان حركة تكاد لا ترى .

كان يتناول عشاء خفيفًا في المساء عندما صرخ الباب الأمامي ، وجرت «ميلدريد» من الصالون الهادر وكأنها الإنسان الأول يهرب من بركان «يزوياس» . دخلت السيدة فيلبس والسيدة باولز من الباب واختفيا في فوهة البركان وفي يد كل منهما زجاجة مارتيني . كانتا كنجفتين عملاقتين تتلألآن بآلاف الأجراس . كان يرى ابتسامتهن وكأنها ابتسامة القطة التشيشرية وهي تظهر وتختفي على أضواء الحوائط التليفزيونية . كانت السيدات الثلاث يتحدثن معًا بصوت كالصراخ يعلو فوق ضجيج الحوائط .

وجد «مونتاج» نفسه أمام باب الصالون بينما لا يزال الطعام في فمه.

ـ ألا يبدو الجميع في أجمل صورة؟

ـ أجمل صورة.

ـ أنت تبدين رائعة يا «ميلدريد».

ـ رائعة حقًا.

ـ الجميع غاية في الجمال.

ـ مال.

وقف «مونتاج» يشاهدهن، بينما يهمس «فيبر» في أذنه:

ـ الصبر.

همس «مونتاج» وكأنه يكلم نفسه:

ـ المفروض ألا أكون هنا الآن. المفروض أن أكون في طريقي عائدًا إليك بالنقود.

ـ على مهلك، إن غدًا لِناظره قريب.

ـ أليس هذا العرض رائعًا يا «مونتاج»؟

ـ رائع!

على أحد الحوائط ظهرت امرأة تبتسم وتشرب عصير البرتقال في الوقت نفسه. تعجب «مونتاج» كيف تبتسم وتشرب في نفس الوقت؟ على الحائط الآخر ظهرت أشعة «إكس راي» تصور رحلة عصير

البرتقال المنعش إلى داخل معدة المرأة المبتسمة! وفجأة طارت الحجرة في رحلة صاروخية داخل السحب، ثم غطست في بحر أخضر تأكل فيه أسماك زرقاء أخرى حمراء وصفراء. بعد ذلك بدقيقة واحدة ظهر ثلاثة مهرجين بيض وأخذوا في تقطيع أعضاء بعضهم البعض بمصاحبة موجات هائلة من الضحك. بعد دقيقتين طارت الحجرة إلى ساحة تدور فيها سيارات سباق جامحة يرتطم بعضها ببعض ثم تبتعد، ترتطم و تبتعد حتى طارت الجثث في الهواء أمام عيني «مونتاج»:

ـ هل رأيت ذلك يا «ميلي»؟

ـ نعم رأيته، رأيته.

دخل «مونتاج» إلى الصالون وقام بفصل الكهرباء عن الحوائط باستخدام مفتاح التشغيل الرئيسي. تسربت الصور من الحوائط وكأنها المياه تجف من حوض ملئ بأسماك هيستيرية. التفتت السيدات الثلاث إلى «مونتاج» في بطء، ونظرن إليه في غيظ ثم في كره لم يتكلفن لإخفائه.

ـ متى ستبدأ الحرب في اعتقادكما؟ فقد لاحظت أن زوجيكما غائبان اليوم.

قالت السيدة (فيلبس):

ـ أوه، إنهما يذهبان إلى الحرب ثم يعودان... يذهبان ثم يعودان. فلتذهب و تجيء يا فينيجان. ١٠ @ استدعوا «يت» بالأمس، وسيعود في الأسبوع المقبل. هكذا يقولون في الجيش. حرب سريعة. ثمان وأربعون ساعة فقط، وسيعود الجميع إلى منازلهم. هذا ما يقولونه في

الجيش. حرب سريعة. استدعوا «يت» بالأمس، وسيعود في الأسبوع المقبل. سريعًا.

تململت السيدات الثلاث في جلستهن ثم نظرن في عصبية إلى الحوائط الخالية بلون الطين. قالت مسز «فيلبس»: «أنا لست قلقة»، سأترك لك مهمة القلق، قهقهت، ثم عادت تقول:

ـ سأترك لك أيتها العجوز مهمة القلق»، أما أنا فلن أقلق. أنا لست قلقة.

قالت «ميلدريد»:

ـ صحيح، فلتتركي القلق كله؟

ـ يقولون: إن المتوفى دائمًا زوج واحدة لا نعرفها.

ـ سمعت هذه المقولة، وتبدو صحيحة. فأنا لا أعرف أيًا من الرجال الذين ماتوا في الحرب... سمعت عن رجال انتحروا من أعلى مبنى ـ مثل زوج «جلوريا» الأسبوع الماضي ـ و لكن ماتوا في الحرب... لا لم أسمع.

ـ ولا أنا... على أية حال، فقد اتفقت مع ?يت على ألا أبكيه أو أحزن عليه. زواجنا هو الزواج الثالث بالنسبة لكل منا، وكل منا له استقلاله عن الآخر، لذا فقد قال لي: «إذا مت في الحرب، فلا تبكي، وإنما تزوجي من فورك ولا تفكري في».

ـ يذكرني هذا بفيلم عاطفي مدته خمس دقائق عرض بالأمس على الحوائط هل شاهدتيه؟ كانت البطلة...

كان «مونتاج» يقف صامتًا ينظر إلى وجوه هؤلاء النسوة، كما كان

ينظر وهو طفل صغير إلى وجوه الراهبات في إحدى الكنائس الغريبة التي دخلها. يومها لم يستطع أن يفهم ما تعنيه تلك الوجوه المطلية بالميناء، على الرغم من أنه تكلم معهم ووقف طويلاً في تلك الكنيسة يحاول أن ينتمي إلى ذلك الدين، ويأمل في أن تدخل رئتيه وأن تمتص دماؤه ذلك البخور الخام وتلك الذرات المميزة للمكان. كان يتمنى أن يتأثر وينشغل بهؤلاء الرجال ذوي الملابس الملونة والنساء ذوات العيون الخزفية، والشفاه كالياقوت الأحمر. ولكن مع الأسف، لم تكن هناك أية مشاعر، وكأنه يتمشى في أحد الأسواق بينما العملة التي معه غير صالحة للتداول. كانت مشاعره باردة حتى وهو يلمس بيديه الخشب والرخام والفخار. كانت هذه هي مشاعره اليوم في صالون منزله، وهؤلاء النسوة يتلوّون في مقاعدهن تحت نظره، يشعلن سجائرهن، وينفثن الدخان، يتلمسن شعورهن التى صبغت بالأحمر فبدت وكأنها احترقت بفعل الشمس، ويتحسسن أظافرهن المتأججة وكأنها التقطت النيران بفعل نظراته الحانقة. شيئًا فشيئًا سكن الصمت وجوههن. أحنَيْنَ رءوسهن يتسمعن صوت ابتلاع «مونتاج» لآخر قضمة من طعامه، وينصتن إلى صوت نفسه المحموم. كانت الحوائط الثلاثة الخالية كأنها حواجب باهتة لوحوش نائمة لا ترى من الأحلام شيئًا. شعر «مونتاج» أنه لو لمس تلك الحواجب لتبللت أصابعه بقطرات عرق مملحة تجمعت مع الصمت والرعشة الخافتة لهؤلاء النسوة اللائى يتململن ويتحرقن من التوتر العصبي. في أي لحظة قد تصدر عنهن فرقعة مرعبة قبل أن ينفجرن. حرك «مونتاج» شفتيه ثم قال:

ـ فلنتبادل الحديث.

تململت السيدات وحملقن في «مونتاج» الذي بادر بالسؤال:

ـ كيف حال الأطفال يا مسز «فيلبس»؟

ـ أنت تعلم أنه ليس لدى أطفال. لا يوجد شخص في رأسه ذرة عقل يقدم على إنجاب أطفال!

لم تكن السيدة «فيلبس» تدرك سبب ذلك الشعور بالحنق الذي انتابها فجأة عندما سألها «مونتاج» هذا السؤال. هنا قالت السيدة باولز:

ـ أنا لا أتفق معك، فقد أنجبت طفلين بعملية قيصرية بالطبع، فالأمر لا يستحق ألم الولادة الطبيعية من أجل طفل. ولكن رأيي أن الإنسان يجب أن يتكاثر، والنسل يجب أن يستمر. إلى جانب ذلك، أحيانًا يكون الابن شديد الشبه بك، وهذا شيء لطيف. بالتأكيد كلفتني العمليتان الكثير واضطررت لتأجير جسدي لاستكمال المبلغ! كان طبيبي أيضًا يرفض في كل مرة إجراء العملية ويقول لي: إن كل شيء طبيعي، و أن حوضي من الاتساع بحيث يؤهلني لولادة طبيعية، لكنني صممت.

ـ قيصرية أو غير قيصرية، الأطفال مدمرون. أنت مجنونة.

ـ أنا على أية حال أرمي أطفالي في المدرسة الداخلية تسعة أيام من كل عشرة، وأتحملهم عندما يزورون المنزل ثلاثة أيام فقط كل شهر، وأعتقد أن هذا ليس سيئًا على الإطلاق. في هذه الأيام الثلاثة من كل شهر أحشرهم في الصالون، وأشغل الحوائط، وكأني أغسل الملابس: فقط ضع الملابس في الغسالة، ثم اقفل الغطاء، واضغط على الزر.

ضحكت مسز «باولز» بصوت عالٍ، استمرت السيدة «فيلبس» تقول:

ـ بالطبع يعبر أطفالي عن رفضهم بأرجلهم!! والحمد لله أني أنا الأخرى أجيد الركل.

ظهرت ألسنة السيدات الثلاث من فرط الضحك. صمتت «ميلدريد» للحظة ثم صفقت بيديها وقد رأت أن «مونتاج» لا يزال واقفًا في مدخل الباب، وقالت:

ـ فلنتكلم في السياسة كي يفرح «مونتاج».

ردت السيدة «باولز» قائلة:

ـ لم لا؟ فقد أدليت بصوتي ككل الناس، وسجلت اسمي كمؤيدة للرئيس «نوبل»، فأنا أرى أنه من ألطف وأجمل من تولى رئاسة الجمهورية في البلاد.

ـ بالتأكيد، فهذا المرشح الآخر لم يكن شيئًا، أليس كذلك؟ قصير، وشكله عادي، ولم يكن أبدًا يجيد حلاقة ذقنه، ولا تسريح شعره.

ـ ما الذي جعل حزب «الخارجين» يرشحونه؟ كيف يقف رجل قصير هكذا أمام آخر فارع الطول؟ غير أنه يغمغم، لم أستطع أن أفهم نصف كلامه، والنصف الآخر سمعته، ولم أفهمه.

ـ كان أيضًا سمينًا، ولم يكن يرتدي ما يخفي سمنته من ملابس. لذا كان طبيعيًا أن يفوز «ونستون نوبل». حتى الأسماء لعبت دوراً. فالفرق شاسع بين «ونستون نوبل» و«هوبرت هوج»، ضع الاسمين جنبًا لجنب وستخمن في عشر ثوان من سيفوز بالرئاسة.

ـ اللعنة!! ما الذي تعرفونه عن «هوج أو نوبل».

ـ نعرفهما طبعًا، كلاهما ظهر على الحوائط منذ أقل من ستة أشهر. كان أحدهما يمسح أنفه طوال الوقت، فيصيبني بالجنون.

قالت السيدة «فيلبس» :

ـ هل تريدنا أن ننتخب رجلاً كهذا يا مستر «مونتاج»؟

وفجأة قالت «ميلدريد» :

ـ لماذا لا تختفي يا «مونتاج» وترأف بأعصابنا .

ذهب «مونتاج» لكنه لم يلبث أن عاد بعد دقيقة واحدة وفي يده كتاب، صرخت «ميلدريد» :

ـ جي!

ـ اللعنة! اللعنة! اللعنة!

رمشت السيدة «فيلبس»، ثم قالت :

ـ ما هذا الذي في يدك؟ كتاب؟ كنت أعتقد أن التدريبات كلها تتم مؤخراً عن طريق الأفلام . أتقرأ عن نظريات الحريق .

ـ نظريات؟ اللعنة على النظريات . أنا أقرأ شعراً .

ـ هل سمعت ما قالوا، هل سمعت هؤلاء الوحوش، وهن يتحدثن عن وحوش أخرى؟ يا إلهي، كم هي قميئة طريقتهن في الثرثرة عن أطفالهن، وعن أنفسهن وعن أزواجهن، وعن الحرب . اللعنة . أنا أقف هنا غير مصدق لما أسمعه .

قالت السيدة «فيلبس» :

ـ لم أقل أي شيء عن الحرب، وعليك أن تعرف ذلك .

قالت السيدة «باولز» :

ـ أما الشعر فأنا أكرهه .

ـ وهل سمعت شعراً قط؟

هنا وصله صوت فيبر يقول:

ـ «مونتاج» أنت تفسد كل شيء. أصمت أيها الأحمق.

كانت السيدات الثلاث قد وقفن، فنهرهن «مونتاج» قائلاً: «اجلسن» فجلسن على الفور. ثم قالت السيدة «باولز»: «يجب أن أعود إلى المنزل»، بينما توسل فيبر إلى مونتاج: «مونتاج، أرجوك يا مونتاج، أستحلفك بالله، ماذا الذي تنوي أن تفعله».

قالت السيدة «فيلبس»:

ـ لماذا لا تقرأ لنا إحدى هذه القصائد التي في كتابك الصغير. أعتقد أنها ستكون ممتعة.

صرخت السيدة فيلبس:

ـ لا، ليس صحيحًا، لا نستطيع أن نفعل ذلك.

قالت السيدة «باولز»:

ـ ولكن انظري إلى السيد «مونتاج»، إنه يريد أن يقرأ لنا، أنا متأكدة من ذلك. لو أحسنا الاستماع، سيسمح لنا السيد «مونتاج» أن نفعل شيئًا آخر.

قالت ذلك وهي تنظر بعصبية إلى الفراغ المحيط بهم في كل الحوائط.

لكزته الخنفساء التي تسكن أذنه قائلة:

ـ إذا كنت ستستمر فيما تفعل، فسوف أقوم بقطع الإرسال، وأختفي تمامًا. ما الفائدة مما تفعل؟ وما الذي تحاول إثباته؟

ـ أحاول أن أصيبهم بالفزع، وأن أجعل رأسهم يشتعل شيبًا من الرعب.

نظرت «ميلدريد» في الفراغ، ثم قالت:

ـ مع من تتكلم يا جي؟

كانت الإبرة الفضية تخترق مخه:

ـ اسمع يا «مونتاج»، لا يوجد غير مخرج واحد. تظاهر بأنك تمزح، تظاهر بأنك لست مجنونًا. ثم توجه نحو المحرقة وألق بالكتاب في قلبها.

كانت «ميلدريد» قد سبقت «فيبر»، وقالت في صوت مرتعش:

ـ سيداتي، كل رجل إطفاء مسموح له أن يأتي إلى منزله كل عام بكتاب واحد من كتب الزمن البائد، وذلك لكي يثبت لأسرته تفاهة تلك الكتب، وقدرتها على أن تجعلك متوترًا بل تفقدك عقلك تمامًا. كانت هذه هي مفاجأة مونتاج لكم الليلة: أن يقرأ لكم عينة من كتاب ليريكم مدى الخلل الذي أصاب الحياة في الماضي، فتتأكدوا أن علينا ألا نشغل رءوسنا الصغيرة بهذه القمامة التي في الكتب، أليس كذلك يا صديقاتي الحبيبات؟

دمَّرَ مونتاج الكتاب في قبضتي يديه، بينما كان «فيبر» يأمره:

ـ قل «هذا صحيح».

تحركت شفتاه كشفتي «فيبر»:

ـ «هذا صحيح».

شدت «ميلدريد» الكتاب من بين يديه وهي تضحك، وقالت:

ـ إليكم الآتي، اسمعوا هذه: لا، لا ليست هذه، فهناك مقطع أكثر سخفًا قرأته لي بصوت عال اليوم. أتحداكم إن فهمتم أي شيء، فهو «سمك، لبن، تمر هندي»، فتلقرأ يا جي، اقرأ تلك الصفحة، يا عزيزي.

نظر «مونتاج» للصفحة المفتوحة أمامه. كانت ذبابة تطن في أذنه وتقول:

ـ اقرأ.

سألت «ميلدريد»:

ـ ما عنوان الكتاب يا عزيزي؟

كان فمه قد أصيب بالخدر، وهو يقول:

ـ شاطئ دورفر[1].

ـ إذن فلتقرأ لنا بصوت واضح جميل، وبطيء.

كانت الحجرة تشتعل من حرارة الجو، وكان هو يحترق ويرتعد في آن واحد. كانت السيدات قد جلسن في صحراء خالية على الكراسي الثلاثة، بينما وقف هو يتأرجح وينتظر أن تتوقف مسز «فيلبس» عن تسوية فستانها، ومسز باولز عن اللعب في شعرها. بعد ذلك بدأ في القراءة بصوت منخفض متعثر، ازداد قوة من بيت إلى آخر. انطلق

---

(١) قصيدة من العصر الفيكتوري للشاعر ماثيو أرنولد تعكس حالة اليأس والحزن التي أصابت الإنسان لفقده الإيمان واليقين بعد الثورة الصناعية ونظرية دارون والنزعة الإمبريالية والتخلي عن المسيحية.

صـوته وسط الـصـحـراء، اصطـدم بالحـوائط البـيـضـاء، وأخـذ يـلف السيدات الجالسات على الكراسي في ذلك الفراغ الساخن الرهيب.

كان بحر الإيمان هو الآخر ذات يوم كاملاً.

يلف شاطئ الأرض كحزام لامع.

لا أسمع اليوم سوى صرختة الحزينة والطويلة الراحلة.

نحو رياح الليل تتنفس هناك.

على الأطراف موحشة، واسعة.

حيث حصى العالم قد تمدد عاريًا.

طقطقت الكراسي تحت السيدات الثلاث، اضطر مونتاج لأن ينهي قراءته للقصيدة.

فلنكن حبيبتي أنا وأنت صادقين!

لأن العالم انكشف أمامنا أرضا من الأحلام.

ملونة جميلة جديدة، لكنها...

لا فرح فيها لا محبة لا ضياء..

لا يقين، لا سلام...

ولا يدًا تساعد العليل..

ونحن قابعون هاهنا كأننا في صحار مظلمة ...

غمرتها صرخات الحرب والفرار...

حيث جيوش جاهلة تصطدم في غياهب الظلام...

كانت مسز «فيلبس» تبكي، أما الأخريات فكن يجلسن في وسط الصحراء وقد أدهشهن بكاؤها الذي ارتفع صوته، ووجهها الذي اعتصر فتغيرت ملامحه تمامًا. لم تلمسها أي منهن وإنما جلسن يشاهدن في ذهول ذلك العرض الذي قدمته. كانت قد فقدت السيطرة على نفسها وهي تنتحب. «مونتاج» نفسه بدا ذاهلاً ومضطربًا.

قالت ميلدريد:

ـ ششش... شش... أنت بخير يا كلارا، ماذا بك؟ اخرجي من هذا الشعور بسرعة. كلارا، ماذا أصابك؟

ـ أ.. أ.. أنا لا أعرف.. لا أعرف ماذا.

نهضت مسز «باولز» من جلستها، وأخذت تحملق في «مونتاج» وهي تقول:

ـ أرأيت؟ أنا كنت أعرف، وهذا ما أردت أن أتأكد منه! كنت أعلم! كنت أعلم ما سيحدث! دائمًا كنت أقول إن الشعر يأتي مع الدموع، الشعر مع الانتحار، مع النحيب، مع المشاعر المفزعة، مع المرض، مع خليط من ذلك كله، والآن تأكدت. أنت قذر. أنت قذر يا مستر «مونتاج».

هنا قال فيبر:

ـ الآن.

وجد «مونتاج» نفسه يستدير، يسير نحو الفتحة الموجودة داخل الحائط، ثم يلقي بالكتاب من خلال السنون النحاسية في اللهب الذي ينتظره. قالت مسز «باولز»:

ـ كلمات سخيفة، كلمات سخيفة، كلمات سخيفة مؤلمة. لماذا يريد الناس أن يعذب بعضهم بعضًا؟ ألا يكفي ما في العالم من عذاب؟ أكان ضروريًا أن تضايق الناس بمثل هذه الأشياء.

أخذت ميلدريد تستجدي مسز باولز، وتشد يدها قائلة:

ـ كلارا، هيا بنا الآن يا كلارا. أرجوك، تعال نفرح، فلنُشغّل @ العائلة الآن. هيا بسرعة. فلنضحك ونفرح الآن... توقفي عن البكاء، سنقيم حفلاً!

ـ لا، أنا ذاهبة مباشرة وفوراً إلى منزلي، تريدين زيارتي في منزلي وتشاهدي «العائلة» عندي، أهلاً وسهلاً. أما أنا فلن آت مرة أخرى إلى هذا البيت المخبول.. بيت رجل الإطفاء!!

ـ عودي إلى المنزل.

قال مونتاج ذلك وقد ركز عينيه عليها في هدوء:

ـ عودي إلى المنزل وفكري في زوجك الأول الذي طُلّقت منه، والثاني الذي قُتل في طائرة، والثالث الذي فقد عقله. عودي إلى المنزل وفكري في العشرات من عمليات الإجهاض التي خضعت لها. عودي إلى المنزل وفكري في العمليات القيصرية اللعينة التي أُجْريت لك، وفي أطفالك الذين لا يطيقون رؤيتك. عودي إلى المنزل وفكِري كيف حدث كل هذا وفيم فعلت أنت لتمنعي حدوثه. عودي إلى المنزل... عودي إلى المنزل قبل أن أحطم رأسك، وألقي بك في الطريق!!

كان «مونتاج» يصرخ، بعدها أغلقت الأبواب وصار المنزل خاليًا.

وقف «مونتاج» وحيداً في برد الشتاء، كان لون الجدران بلون الجليد المتسخ.

كان صوت المياه يأتيه من الحمام، سمع أيضًا صوت زجاجة الحبوب المهدئة تهزها ميلدريد فوق كف يدها، وهي تصرخ:

ـ غبي يا مونتاج، غبي، غبي. آه يا إلهي كم هو غبي وسخيف.

ـ اخرسي!

سحب مونتاج الرصاصة الخضراء من أذنه وحشرها في جيبه، بينما كانت تئز «غبي. . . غبي». راح مونتاج يبحث في كل مكان بالبيت، وجد الكتب وقد كومتها ميلدريد وراء الثلاجة. كانت بعض الكتب قد فُقدت، وتوقع أن تكون ميلدريد قد بدأت في تنفيذ خطة متأنية لتوزيع أصابع الديناميت في أنحاء المنزل، إصبعًا تلو الآخر. لكنه لم يكن منفعلاً الآن، كان فقط مرهقًا وحائرًا. حمل الكتب إلى حديقة المنزل الخلفية، وأخفاها في الحشائش بالقرب من السور المطل على الشارع الضيق. الليلة فقط خطر بباله أنها ربما تقوم بإحراق المزيد من الكتب. عاد بعد ذلك إلى الداخل، وهو ينادي: «ميلدريد؟» كان ينادي عليها وهو يقف بباب حجرة النوم المظلمة. لم يكن هناك رد.

في الخارج، سار فوق العشب في طريقه إلى عمله، حاول أن يتجنب النظر إلى منزل كلاريس ماكميلان، الذي بدا مهجوراً ومظلمًا. في طريقه إلى وسط المدينة، أدرك ما ارتكبه من خطأ، وشعر بحاجة ماسة إلى الدفء الغريب والخير الذي يأتي من ذلك الصوت الرقيق الذي يتكلم في الليل. هكذا في ساعات قليلة، شعر وكأنه يعرف فيبر منذ سنوات طويلة. الآن أصبح يدرك أنه رجلان: فهو

«مونتاج» ـ الذي لم يكن يعرف شيئًا، ولم يكن يرى حماقته، وإنما كان فقط يشك في وجودها ـ وهو أيضًا الرجل العجوز الذي يكلمه ويكلمه بينما ينسحب القطار من أول مدينة الليل إلى آخرها في شهقة واحدة طويلة ومرهقة. في الأيام التالية. . . وفي تلك الليالي الخالية من القمر، والليالي الأخرى التي ينير فيها القمر الطريق، سيظل الرجل العجوز يتكلم. . . كلمة فوق كلمة، قطرة فوق قطرة، حصاة فوق حصاة، قشرة فوق قشرة. وأخيرًا سوف يفيض عقله ولن يصبح مونتاج القديم، هذا ما أكده له ووعده به الرجل العجوز. سيصبح «مونتاج زائد فيبر»، ماء زائد نار، وبهذا ـ وبعد أن يختلط كل شيء جيدًا، ويغلي ويمتزج في صمت ـ لن يكون هناك ماء ولا نار، وإنما شيء جديد خمر. باختلاط شيئين منفصلين ومختلفين ينتج شيء ثالث. وفي يوم من الأيام سينظر هذا الثالث وراءه ويرى الأحمق القديم ويعرفه. بدءًا من اليوم، كان يستطيع أن يرى بداية الرحلة الطويلة، الوداع، ومغادرة تلك الذات التي يسافر مبتعدًا عنها.

كان الاستماع لهمهمة الخنفساء ممتعًا. طنين بعوضة ناعس. . . غمغمة ناعمة كالزركشة الرقيقة، هكذا كان صوت الرجل العجوز الذي بدأ بتأنيب مونتاج على ما فعل، ثم بمواساته في آخر الليل وهو يخرج من النفق المعبأ بالبخار إلى مبنى المطافئ بعالمه الخاص.

ـ الرحمة بهم يا «مونتاج». . . الرحمة، لا تعنفهم وتشق عليهم، فمنذ أيام كنت أنت نفسك واحدًا منهم. فهم متأكدون من كونهم خالدين إلى الأبد. ولكنهم ليسوا كذلك. فهم لا يعلمون أن ما يرونه مجرد شهاب ساطع له ضوء لامع جذاب في السماء، ولكنه في يوم من الأيام سوف يتحطم في الفضاء ويحترق. هم لا يرون إلا الضوء

اللامع، النار الجذابة، التي كنت أنت أيضًا لا ترى سواها. أنا أعرف يا مونتاج، أنّ أمثالي من العجائز ليس من حقهم أن يوجهوا النقد، ولكنك كدت تهدم كل شيء ونحن في بداية الطريق. فلتكن حذراً. وأنا معك، تذكر أنني معك. أنا أعرف كيف حدث كل ما حدث. لا أنكر أن غضبك الأعمى بعث الروح في نفسي الميتة ـ يا إلهي لكم شعرت بالشباب ـ ولكن الآن أريدك أنت أن تصبح عجوزاً. . . أن تنزل عليك قطرات من جُبني هذه الليلة. ففي الساعات القليلة القادمة، عندما تلتقي بكابتن بيتي، عليك أن تجاوره. لذا فسوف أسمع ما يقوله نيابة عنك، وأقرر ما سنقوله بدلاً منك. فالنجاة هي جواز المرور. انسَ الآن السيدات السخيفات المسكينات.

ـ أشعر بأنني قد سببت لهن من الحزن ما لم يشعرن به طوال السنوات الماضية. لقد صدمت لرؤية مسز «فيلبس» تبكي. ربما كُنّ على حق، ربما من الأفضل ألا نواجه الواقع وإنما نجري بعيداً ونلهو. أشعر بتأنيب الضمير.

ـ لا، لا يجب أن تشعر بذلك. فلو لم تكن هناك حروب، لو كان هناك سلام، لقلت لك: حسنًا فلنلهو ونلعب! لكن يا مونتاج كل شيء ليس على ما يرام في العالم، فلا ترتد إلى كونك رجل إطفاء.

تصبب العرق من مونتاج، ولم يتكلم.

ـ مونتاج، هل تسمعني؟

ـ قدماي، لا أستطيع تحريكهما. أحس بشعور سخيف جداً. قدماي لا تتحركان.

قال الرجل العجوز في هدوء:

ـ فلتسمعني. اهدأ الآن. أنا أعرف. أنا أعرف. أنت خائف من ارتكاب الأخطاء. لا تخف. فالأخطاء ممكن الاستفادة منها. يا رجل: عندما كنت صغيراً، كنت ألقي بجهلي دفعة واحدة في وجوه الناس. كانوا يضربونني بالعصيّ، ولهذا فقد بلغت الأربعين وقد تحول النصل الكليل لسلاحي إلى سن حاد قاطع ونافع. والخلاصة أنك إن حرصت على إخفاء أخطائك، فلن يضربك أحد، ولن تتعلم. والآن، قف على قدميك، وأنا معك لندخل مبنى المطافئ. فنحن توأم، ولن يعيش أي منا بمفرده بعد اليوم. لسنا منفصلين عن أحدنا الآخر في صالونين مختلفين بلا وسيلة اتصال تربط بيننا. عندما تحتاج للمساعدة بينما يحدق «بيتي» في وجهك، ستجدني بجوارك بل داخل طبلة أذنك أنا وإرشاداتي.

شعر «مونتاج» بقدمه اليمنى تتحرك، ثم اليسرى.

ـ أيها الرجل العجوز، ابق معي.

كان كلب الصيد الآلي قد اختفى. كان بيته خاليًا، وكان المبنى كله يقف في صمت كالجبس بينما ينام السمندر البرتقالي بكيروسينه الذي يملؤ بطنه وقد تقاطعت خراطيمه فوق خصره. دخل «مونتاج» وسط هذا الصمت، لمست يداه العمود النحاسي، ثم تزحلق عليه في الهواء الداكن وهو ينظر إلى بيت كلب الصيد الخاوي. كان قلبه يدق ثم يتوقّف ثم يدق. في هذه الأثناء سكن فيبر في أذنه كفراشة رمادية نائمة.

كان «بيتي» واقفًا أسفل الفتحة ينتظر، لكنه قد استدار وكأنه لا ينتظر، ثم قال مخاطبًا الرجال الذين كانوا يلعبون الورق:

ـ حسنًا. الآن جاء حيوان غريب، هو أحمق بكل لغات العالم.

فتح كفه وكأنه ينتظر هدية، فوضع مونتاج الكتاب عليه. ودون أن

يكلف «بيتي» نفسه عناء النظر إلى عنوان الكتاب، رمى بالكتاب في صفيحة القمامة، ثم أشعل سيجاراً، ثم قال:

ـ «من حصّل العلم القليل هو أكثر الناس حمقًا»[1] مرحبًا بك يا مونتاج، أتمنى أن تبقى معنا اليوم، خاصة وأنك قد شفيت، وذهبت عنك الحُمّى. لماذا لا تجلس معنا وتلعب البوكر؟

جلس الجميع ووزع أحد الرجال الورق. كان «مونتاج» يشعر بما اقترفت يداه من ذنب لمجرد أن بيتي ينظر إليه الآن. كانت أصابعه كالطفل الشقي الذي كسر شيئًا ثمينًا فلم يهدأ، وجعل يختبئ من مكان إلى آخر، هكذا ظلت أصابعه تدق على الطاولة وتخرج من جيوبه وتدخل إليها، وهي في كل الأحوال تتحرك تحت نظرة بيتي المشتعلة بفعل الخمر. لو أن «بيتي» نفث فيهما لذبُلتا، وتسربت منهما الحياة إلى الأبد ودُفنا بقية عمره في أكمام معطفه، حتى نسيهما. ذلك بأنهما هاتان اليدان اللتان تصرفتا من تلقاء نفسيهما، فهما اليوم لا تنتميان إليه. بفعل هاتين اليدين عبّر الضمير عن نفسه واختطف الكتب، واندفع كالسهم يسرق «يعقوب»، و«روُث»، و«ويلي شكسبير»، واليوم وهو في مبنى المطافئ بدت له يديه وكأنها ترتدي قفازاً من الدم.

توقف «مونتاج» عن اللعب مرتين في نصف ساعة لكي يغسل يديه

---

(١) يقتبس بيتي هنا بيتًا من قصيدة حماقة ثلاثية «The Triple Fool» للشاعر الإنجليزي الميتافيزيقي جون دون والتي يتنقد فيها نفسه لوقوعه في الحب، ويعتبر ذلك أولى الحماقات، ثم يندم لاعترافه بحبه وهي الحماقة الثانية، وأخيراً يعيب على نفسه كتابة الشعر عن عذابه في الحب وهي الحماقة الثالثة، حيث يسعد الناس بقراءة تجربته المؤلمة، وتأتي الخاتمة التي تحمل المفارقة فبعلمه القليل عن الحب وعن الشعر يصبح أكثر الناس حمقًا.

في دورة المياه، وكان عندما يعود إلى اللعب يخبىء يديه تحت الطاولة. فجأة ضحك «بيتي» ثم قال:

ـ فلتنعم علينا برؤية يديك يا «مونتاج». نريد أن نراهما لا لأننا لا نثق فيما تفعله بهما ولكن لأن...

ضحك الرجال كلهم، أكمل «بيتي» كلامه:

ـ حسنًا، انتهت الأزمة، وكل شيء الآن على ما يرام. فالخروف التائه قد عاد إلى الحظيرة. كلنا خراف ضلت طريقها يومًا من الأيام. الحقيقة هي الحقيقة، إلى يوم الحساب ولايشعر بالوحدة من كان تفكيره نبيلا[1]. صرخنا قائلين: «غذاء شديد العذوبة من معرفة كتبت بعذوبة»[2] هذه الكلمات «لفيليب سيدني». ولكن، على الجانب الآخر يقول «ألكسندر بوب»: «الكلمات كأوراق الشجر، وحيثما كثُرت، ندُرت ثمار الحكمة». ما رأيك في هذا يا مونتاج؟

ـ لا أعرف.

هنا قال «فيبر» من العالم الآخر الذي يعيش فيه:

ـ حريص.

ـ وما رأيك في هذه:

«من الخطورة أن تجني من العلم القليل.

انهل، ولا ترشف من نبع بيريان.

---

(١) اقتباس من السير فيليب سيدني من كتابه «دفاع عن الشعر».

(٢) اقتباس من المصدر نفسه.

يُذهب قليلُ العلم عقلك، لكن.
إن شربت فارتويت فسوف تصحو[١].

بماذا يذكرك هذا»؟

عض «مونتاج» شفتيه. قال «بيتي» وهو يبتسم وينظر إلى الورق:

ـ أنا أقول لك. لقد ذهب عقلك لفترة قصيرة. تقرأ بضعة أسطر وتنطلق كالمجنون وتقف على حافة الهاوية. أنت مستعد لأن تدمر العالم، تقطع الرءوس، تضرب النساء والأطفال، وتحطم السلطة. أنا أعرف هذه المشاعر جيداً فقد مررت بكل هذا من قبلك.

ـ أنا بخير.

ـ فليتوقف وجهك عن الاحمرار. أنا لا أعذبك، صدقني لا أزيد ذلك. لقد غفوت قليلاً منذ ساعة فرأيت حلمًا. في الحلم كنت أنا وأنت يا «مونتاج» نتناقش بعصبية في موضوع الكتب. وأخيراً انفعلت أنت غاضبًا وأخذت تصرخ في وجهي مستشهداً بمقاطع من الكتب. أما أنا فأخذت أتفادى كل الضربات، وأرد عليك بمقاطع أخرى. فأقول لك مثلاً: «القوة هي الأساس»، وترد أنت مستشهداً ببن جونسون: «المعرفة لا تساوي القوة بل تعلو عليها!»، فأقول أنا: «صحيح، ولكن بن جونسون أيضًا يقول: «ليس الحكيم من يرضي بما لا يعرفه علم اليقين بدلاً لما يعرف يقينًا»[٢] الزم مكانك مع رجال الإطفاء يا «مونتاج». فما عدا ذلك لا يعدو فوضى موحشة.

---

(١) اقتباس من «مقالات في النقد» لألكسندر بوب.
(٢) اقتباس من صامويل جونسون «العاطل».

هنا همس «فيبر»:

ـ لا تنصت إليه، فهو يحاول أن يخلط الأمور ليربكك. إنه مراوغ. احترس.

قهقه «بيتي» ثم أكمل حكي الحلم:

ـ ثم اقتبست أنت: «ستنكشف الحقيقة في ضوء النهار، وجريمة القتل لن تخفى طويلاً»(١). أجبتك في مرح: «يا إلهي، إنه لا يتكلم إلا عن فرسه» وأخيراً، قلت لك: «الشيطان يستطيع أن يستشهد بالكتاب المقدس ليحقق ما يريد»، فهتفت أنت قائلاً:

«ما لهذا الدهر يُكرم السفيه.

إن كان عنده فضل ومال

ويذلُّ كل ذي علم حكيم

ورع ولكن يرتدي الأسمال»(٢)

هنا قلت لك في هدوء: «تضيع الحقيقة من كثرة الجدل»، فصرخت أنت قائلاً: «تنزف الجثة دمًا عند رؤية القاتل»، فقلت لك وأنا أربت على يدك: «ماذا، هل أصيبك بالتهاب في الفم؟» فإذا بك تصرخ مرة أخرى قائلاً: «العلم قوة» ثم تقول: «يستطيع قزم اعتلي كتفي مارد أن يرى أفضل من المارد نفسه»، وأخيراً اختتمت المساجلة باقتباس يُلخّص وجهة نظري في هدوء: «يقول إليرى إن في كل منا ميلاً فطريًا إلى أن

(١) اقتباس من تاجر البندقية الفصل الثاني، المشهد الثاني.

(٢) اقتباس من الشاعر توماس ديكر.

يرى التشبيه حُجّة، و يرى الإسهاب مصدراً للحقائق الكبرى، ويرى نفسه ملهمًا».

أخذت رأس «مونتاج» تدور إلى درجة الإعياء. شعر وكأن ذراعي آلة ضخمة تضربه على حاجبيه وأنفه وشفتيه وذقنه وكتفيه. أراد أن يصرخ بصوت عال، قائلاً: «لا! لا! اخرس! أنت تشوِّش كل شيء! توقف عن هذا» مدَّ بيتي يده لتلتف أصابعه الطويلة الرشيقة حول معصم «مونتاج»، ثم قال:

ـ يا إلهي! ما هذا النبض السريع؟ يبدو أنني تسببت في ذلك. أليس كذلك يا «مونتاج»؟ يا عيسى يا إلهي! لكم يبدو نبضك كأنه طبول الحرب. هل أستمر في حديثي؟ تعجبني نظرة الرعب في وجهك. أنا أحفظ كل الآداب.. أدب إنجليزي.. أدب هندي.. سواحلي.. ذلك الخطاب الرائع الغبي، وأشعار ويلي!

عادت الذبابة تطن في أذن «مونتاج»:

ـ توقف يا مونتاج! إنه يعكر المياه.

عاد بيتي يقول:

ـ أنت تشعر بالرعب بالتأكيد، فما فعلته معك شيء فظيع، فأنا أستخدم الكتب نفسها التي تتمسك بها لكي أُفَنِّدَ على كل نقطة تقولها، وأحبط كل ضربة توجهها. إنها خائنة حقًا تلك الكتب! تظن أنها تقويك وتساندك، فإذا بها تخذلك وتنقلب عليك! فهي متاحة لغيرك أيضًا كي يستخدمها، وهنا تصبح أنت تائهًا في الأحراش، غارقًا في مستنقع من الأسماء، والأفعال، والصفات. في نهاية الحلم يا مونتاج، جئت أنا والسمندر، وقلت لك: «هل ستأتي معي

يا «مونتاج»؟ فركبت معي ووصلنا إلى مبنى المطافئ في صمت ورضا. تلاشى كل ما مضى لتحل مكانه السكينة والصفاء.

ترك «بيتي» معصم «مونتاج»، فسقطت يده في خدر على الطاولة، بينما قال «بيتي»: العبرة بالنهايات»[1].

صمت. جلس «مونتاج» وكأنه تمثال أبيض من الحجر. بدأ صوت المطرقة الذي يتردد في رأسه يختفي بالتدريج وينسحب من ذلك الكهف الذي قبع فيه«فيبر» في انتظار اللحظة المناسبة. وبينما كان الغبار قد بدأ يسكن بعد العاصفة في رأس «مونتاج»، تكلم «فيبر» بصوت ناعم، فقال:

ـ حسن، لقد قال ما عنده، وقد سمعته في الساعات القليلة القادمة سأقول أنا ما عندي، وستسمعني. وستحكم بنفسك، وتقرر إذا ما كنت تريد القفز أم السقوط. أريد أن يكون القرار قرارك أنت، لا قراري أنا، ولا قرار الكابتن. لكن عليك أن تتذكر أن الكابتن ينتمي إلى ألد أعداء الحقيقة والحرية، قطيع الأغلبية الجامد المتحجر. يا إلهي، كم هي مستبدة تلك الأغلبية! كل مِنّا يُغنِّي على ليْلاه، وأنت حر في اختيار الأُذن التي تسمع بها.

كاد «مونتاج» أن يفتح فمه ليرد على «فيبر»، لكن جرس المبنى جاء في الوقت المناسب فأنقذه من خطأ التحدث إلى فيبر في وجود آخرين. كان التنبيه الصوتي الآتي من السقف يغرد. كان هناك أيضًا صوت «تيكرز»، حيث تخرج من ماكينة التليفون ورقة بها عنوان البيت الذي تم الإبلاغ عنه منذ لحظات. مشى كابتن «بيتي» في بطء مبالغ فيه إلى

(١) إشارة إلى مسرحية كوميدية لشكسبير تسمى «العبرة بالخواتيم».

التليفون وهو يمسك بأوراق اللعب الوردية اللون. قطع الورقة التي تحمل العنوان فور انتهاء البلاغ، ثم دفعها في جيبه بعد أن ألقى عليها نظرة روتينية. عاد ثم جلس بينما كان باقي الرجال ينظرون إليه، قال لهم وقد بدت عليه السعادة:

ـ فلينتظر هذا البلاغ أربعين ثانية حتى أستولى على كل النقود التي في جيوبكم.

وضع «مونتاج» أوراق اللعب الخاصة به. فسأله «بيتي»:

ـ هل أنت مرهق يا «مونتاج»؟

ـ نعم.

ـ إذن فلنتوقف. حسن، إذا فكرنا قليلاً فسنجد أننا نستطيع استكمال اللعب لاحقًا. فقط اقلبوا أوراقكم، أحضروا آلاتكم بسرعة. سننطلق على الفور.

استأنف «بيتي» كلامه الموجه إلى «مونتاج»:

ـ مونتاج، لا تبدو على ما يرام. يؤلمني أن أرى الحمى تعود إليك مرة أخرى.

ـ سأكون على ما يرام.

ـ ستكون بخير. هذا البلاغ مميز. هيا، اقفز.

قفز الرجال في الهواء، وتشبثوا بالعمود النحاسي وكأنه الملاذ الوحيد فوق موجة عاتية تكاد تغرقهم. لكن ويا للهول انزلق جميع من تشبث بالعمود إلى الظلام حيث كان التنين الهادر يستعد للانطلاق وقد جعله الوقود يزمجر ويصدر أصواتًا كالسعال والشهيق.

ـ انطلق.

انطلقوا وتجاوزوا منعطفًا وسط هدير المركبة وصراخ صفارة الإنذار، وصرخات المطاط على الأسفلت، وصوت ارتجاج الكيروسين السائل في الخزانات النحاسية اللامعة وكأنه صوت ارتجاج الطعام في معدة مارد عملاق. أخذ «مونتاج» يرج «الدرابزين» الفضي للمركبة بأصابعه، ثم يترك يده تتأرجح في الهواء البارد. كادت الريح أن تمزق شعره بعيداً عن فروة رأسه، وراحت تخترق أسنانه وهي تصدر صفيراً موحشًا، بينما كان طيلة الوقت يفكر في النسوة التافهات يجلسن في صالون منزله، بينما تعصف الرياح بالحقيقة بعيداً عنهن، وهو يقرأ لهن كتاباً! يا لحماقته! إنه كمن يحاول أن يطفئ ناراً بمسدس الماء الذي يلعب به الأطفال. يا للغباء و يا للجنون! كان شعوره بالغيظ من أحد تصرفاته يسلمه لغيظ من تصرف آخر... غيظ على غيظ وغضب على غضب. متى سيكف عن هذا؟ متى سينتهي هذا الجنون وينعم بالهدوء؟ الهدوء التام؟ قطع صوت «بيتي» أفكاره:

ـ إلى الأمام.

نظر «مونتاج»، بيتي لم يتول القيادة من قبل قط، لكن ها هو الليلة يقود السمندر. وكأنه يلهبه بالسوط في الشوارع وحول المنعطفات. يميل إلى الأمام على عرش القيادة، بينما يطير رداؤه المصنوع من المشمع الأسود خلفه، فيبدو وهو يرتديه كأنه خفاش يطير فوق محرك المركبة، وفوق الأرقام النحاسية في مواجهة الريح القوية.

ـ فلننطلق كي يبقى العالم سعيداً.

كانت وجنتا بيتي الوردية الفسفورية تلمعان في الظلام الدامس، وكان يبتسم ابتسامة تنم عن انفعال شديد.

ـ ها نحن قد وصلنا.

دوّى صوت توقف السّمندر الذي أخرج من جوفه الرجال يقفزون ويتعثرون. وقف «مونتاج» وقد ركز عينيه على «درابزين» المركبة اللامع البارد الذي كانت أصابعه قد التفت حوله. قال في نفسه: أنا لا أستطيع، كيف أقدر على الاستمرار في حرق الأشياء. لا أستطيع أن أدخل إلى هذا المكان.

اختلطت رائحة «بيتي» برائحة الريح التي أسرع إليها، ثم قال وهو يكاد يلتصق بذراع مونتاج:

ـ إذن يا مونتاج، ماذا تنتظر؟

بدا الرجال وهم يركضون بأحذيتهم الثقيلة وكأنهم أصيبوا بإعاقة ما . . . وكانت تحركاتهم البطيئة في المكان تشبه حركة العنكبوت وهو يمد خيوطه.

أخيراً رفع «مونتاج» عينيه والتفت خلفه، بينما كان «بيتي» ينظر إلى وجهه، ثم سأله:

ـ ماذا بك يا «مونتاج»؟

أجاب «مونتاج» في بطء:

ـ ماذا بي؟ هذا الذي نقف أمامه هو منزلي أنا!

الجزء الثالث

النيران تتلألأ

طقطقت النيران وفتحت أبواب كل البيوت إلى آخر الطريق كي يشاهد الجميع إجراءات الاستعداد للكرنفال. حملق كل من «بيتى» و«مونتاج» أمامهما في المنزل، كانت نظرة أحدهما ملؤها القناعة، و نظرة الآخر ملؤها الذهول. كان منزل «مونتاج» في تلك الليلة هو الحلبة الرئيسة التي سوف يرقص فيها لاعبو السيرك بالشعلات، ويأكلون النار أمام الجماهير.

ـ والآن، أنت الذي فعلتها. في البداية كنت تحاول أن تطير بالقرب من الشمس، والآن وقد احترق جناحاك اللعينان إذا بك تتساءل لماذا حدث ذلك؟ ألم يكن تحذيري لك كافيًا عندما أرسلت إليك الكلب الآلي يدور حول المنزل؟

بدا وجه «مونتاج» خدرًا خاليًا من أي ملامح. أحس أن وجهه تحول إلى حفر حجري يزين البيت المظلم المقابل لمنزله وقد أحاطت به الزهور المتألقة من كل جانب.

صاح بيتي قائلاً:

ـ لا... لا! هل خدعك ذلك النظام اليومي لهذه الصغيرة

المعتوهة؟ زهور وفراشات وأوراق شجر وغروب شمس. . . آه، ليذهب كل ذلك إلى الجحيم. كل شيء مكتوب في ملفها. لقد عرفت السر في تحولك وأنا متأكد من ذلك تمامًا، انظر كيف تغير وجهك. بعض وريقات العشب، وقمر غير مكتمل؟ يا للهراء! ما الفائدة التي جلبتها لك هذه الفتاة؟

جلس «مونتاج» فوق التنين، وأخذ يحرك رأسه يمينًا ثم يسارًا، ثم يمينًا ثم يسارًا، ثم يمينًا ثم يسارًا. . . ثم قال:

ـ لقد كانت ترى كل شيء. لم تضر أحدًا قط. كانت تترك الناس وشأنهم.

ـ وشأنهم؟ اللعنة! لقد كانت تلتصق بك طيلة الوقت، أليس كذلك؟ كانت واحدة من أولئك الأبرياء الملاعين ذوي النظرة المندهشة الصامتة. كانت الموهبة الوحيدة التي تملكها هي جَعْلُ الآخرين يشعرون بالذنب. عليك اللعنة يا مونتاج! فهذا النوع من البشر يشبه شمس منتصف الليل، تجعلك تتصبب عرقًا وأنت نائم في سريرك.

فُتح الباب الأمامي للمنزل، هبطت «ميلدريد» السلم بسرعة وهي تمسك في إحدي يديها بحقيبة، بدت وهي تجري على درجات السلم وكأنها نائمة باستثناء يدها التي تصلبت بشدة وهي تلتف حول مقبض الحقيبة. . . وبمجرد أن هبطت آخر درجة كانت سيارة أجرة «بيتلز» قد توقفت أمامها تمامًا مُصدرةً صوتًا كالفحيح.

ـ ميلدريد!

جرت أمامه وقد تخشَّب جسدها، وغمر وجهها مسحوق كالدقيق، واختفت شفتاها تمامًا تحت أحمر الشفاة.

ـ «ميلدريد»، لم تبلغي عني؟ أليس كذلك؟

دفعت بالحقيبة إلى داخل السيارة، ثم ركبت وهي تغمغم: «العائلة . . . أفراد العائلة المساكين . . . كل شيء انتهى . . . كل شيء انتهى . . . انتهى . . .».

أمسك «بيتي» بكتف «مونتاج» بينما انطلقت السيارة بسرعة سبعين ميلاً في الساعة، وراحت تبتعد في آخر الطريق . . . ثم تضيع.

شعر «مونتاج» بأن شيئًا ما قد ارتطم ربما تكون بقايا حلم صنع من زجاج ومرايا وشظايا الكريستال. انجرف «مونتاج» إلى الداخل كمن تدفعه عاصفة، فرأى «ستونمان» وبلاك وقد أعملا الفئوس ببراعة لتكسير زجاج النوافذ حتى يستطيعا التنفس وسط الدخان. كانت فراشة رأس الموت تحك طبلة أذنه الباردة: «أنا «فيبر» يا «مونتاج»، هل تسمعني؟ ما الذي يحدث؟».

ـ كل ذلك يحدث لي أنا.

قال «بيتي»:

ـ يالها من مفاجأة. فأنت ككل الناس في زمننا هذا يعتقد كل منهم، بل هو على يقين من أن شيئًا لن يحدث له، يقول في نفسه: «لا يمكن أن يصيبني أنا أي شيء، قد يموت الآخرون، أما أنا فسوف أبقى حيًا آمنًا»، وبهذا تضيع التبعات و المسئوليات كل ما يهم أننا موجودون. ولكن دعنا لا نتكلم عن الآخرين. فلنتكلم عنك أنت. عندما لحقت بك تبعات أعمالك . . . كان الوقت قد تأخر يا مونتاج، ولم يكن بوسعك أن تفعل أي شيء.

هنا سأل «فيبر»:

ـ «مونتاج»، هل تستطيع أن تهرب؟ اركض يا «مونتاج».

بدأ «مونتاج» يمشي، لكنه لم يشعر بقدميه وهي تلمس الأسمنت ولا حشائش الليل الباردة. كان بيتي قد أعمل المشعل، خطفت الشعلة نظره وبدا مبهوراً بها، ثم قال:

ـ ما السر في جمال النار وروعتها؟ ما الذي يشدنا إليها كباراً وصغاراً؟

أطفأ «بيتى» الشعلة ثم أشعلها ثانية وهو يقول:

ـ ربما يكون السر في الحركة الدائمة، كلام الإنسان الدائم. فلو تركت النار تنتشر فإنها سوف تحرق الحياة بأكملها. ولكن ما النار؟ إنها سر كبير. يقول العلماء كلاماً فارغاً عن الاحتكاك والجزيئات، ولكن العلم يظل عاجزاً عن تفسير حقيقة النار. إن جمال النار الحقيقي يكمن في قدرتها على حل المشكلات والتخلص من المسئوليات والتبعات. لديك مشكلة تؤرقك وتشكل عبئًا؟ ألق بها في المدفأة وتخلص منها بالنار. والآن يا «مونتاج»، أنت عبء يثقل كاهلي، لكن النار سوف تزيحك من فوق كتفي. تنظيف فوري. . . نتيجة مؤكدة. . . تطهير دون عودة للميكروب. . .دون الحاجة إلى مضاد حيوي. شيء جميل وعملي.

وقف «مونتاج» ينظر إلى المنزل الغريب والذي بدا أكثر غرابة بفعل الليل، وهمس الجيران، والزجاج المبعثر في الأرض، وأغلفة نُزعت من الكتب وبُعثرت كأنها ريش البجع. تلك الكتب الرائعة التي كان قديمًا لا يرى فيها إلا شيئًا تافهًا سخيفًا لا قيمة له، مجرد طباعة سوداء وورق أصفر وغلاف متهالك. إنها «ميلدريد» بالطبع. مؤكد أنها

شاهدته وهو يخبئ الكتب في الحديقة، فأدخلتها إلى المنزل مرة أخرى. ميلدريد... ميلدريد.

ـ والآن يا «مونتاج»، أريدك أن تقوم بتلك المهمة بمفردك. أريدك أن تحرق هذا المنزل، لا بالكيروسين وعود ثقاب، وإنما قطعة قطعة بإلقاء الشعلة تلو الأخرى. منزلك أمامك... قم بتطهيره.

ـ مونتاج، لماذا لا تجري؟ اهرب يا «مونتاج».

ـ لا... لا أستطيع... كلب الصيد! لا أستطيع بسبب كلب الصيد!

سمع فيبر الرد، وسمعه أيضًا بيتي الذي تصور أنه موجه إليه، فرد قائلاً:

ـ نعم، الكلب الآلي في مكان ما بالقرب من المنزل، لذا فلا تحاول أن تفعل شيئًا. هل أنت جاهز الآن؟

ـ جاهز.

نزع مونتاج غطاء الأمان من فوهة مسدس اللهب.

ـ النار!

اندفع سيل من النيران ليلعق الكتب ويلقي بها صرعى بجوار الحائط. دخل «مونتاج» إلى غرفة النوم وأشعل النيران مرتين فطار السريران التوأم إلى أعلى في همس مفزع، واشتعلا بحرارة وتوهج لم يكن يحلم بأن يشتعلا من قبل فوق أي من السريرين.

أحرق جدران غرفة النوم، وركن التجميل لأنه كان يريد أن يغير كل شيء الكراسي والطاولات وكل شيء في الغرفة. أما في غرفة الطعام

فقد أحرق الفضيات والأطباق البلاستيكية وكل شيء يذكره بأنه عاش يومًا ما في هذا المنزل الفارغ، مع تلك المرأة الغريبة التى ستنساه غداً، التى ذهبت ونسيته بالفعل في هذه اللحظة، فهي الآن تستمع إلى راديو قوقعة البحر وهو يملؤ أذنيها، ويملؤ أذنيها، ويملأ أذنيها وهي تسافر عبر المدينة، وحدها. وكما شعر في الماضي بالمتعة في الحرق، فهو اليوم يشعر بالانطلاق مع الحرق، وها هو الليلة ينزع ويقطع ويمزق بشعلة واحدة. ها هو يتخلص من مشكلاته. إذا لم يكن هناك حل، فلنتخلص من المشكلة ذاتها. النار هي الحل لكل المشاكل.

ـ الكتب يا مونتاج.

قفزت الكتب ورقصت كالطيور المشوية. كانت أجنحتها متوهجة بريش أحمر وأصفر. والآن جاء دور الصالون حيث كانت الوحوش البلهاء تنام على سرير أبيض، ترى في أحلامها صوراً بيضاء باردة كالجليد. رمى سهمًا من النار فوق كل حائط من الحوائط الثلاثة فرد عليه فراغها بصوت كالفحيح . . . وأصدر فضاء الغرفة فحيحًا أقوى وصرخات لا معنى لها. كان يحاول أن يفكر في صمت الحوائط حيث لم تكن هناك برامج أو أفلام، لكن لم يكن لديه وقت للتفكير. كتم أنفاسه حتى لا يدخل الفراغ إلى رئتيه، قام بفصل الكهرباء عن ذلك الصمت، ثم تقهقر إلى الوراء وقدم للغرفة كلها هدية هي زهرة صفراء لامعة من النار ملأت المكان. تمزقت الطبقة البلاستيكية اللامعة التي تغطي كل شيء وبدأ المنزل يرتعد من اللهب. كان «بيتي» يقف خلف «مونتاج»، فقال:

ـ عندما تنتهي تمامًا. مطلوب القبض عليك.

سقط المنزل كومة من الفحم الأحمر والرماد الأسود، ثم غطى نفسه

بطبقة رمادية مائلة إلى الحمرة تزينها ريشة من الدخان تعلو وتتمايل ببطء يمينًا ويسارًا في السماء. انفض الجمع وعاد الجيران إلى منازلهم، لملم اللاعبون خيمة السيرك وانتهى العرض بكومة من الرماد والأنقاض.

وقف «مونتاج» وفي يده الخدرة مسدس اللهب، وقد رسم العرق على ملابسه جُزرًا، وتلطخ وجهه بالسخام. كان رجال الإطفاء الآخرون قد وقفوا ينتظرون في الظلام، وقد لمعت وجوههم وسط الدخان. حاول مونتاج أن يبدأ كلامه مرتين، فلم يستطع. وأخيرًا نجح في تجميع أفكاره:

ـ من الذي أبلغ عنّي؟ زوجتي؟

أومأ بيتي برأسه، ثم قال:

ـ أجل، ولكن صديقتيها كانتا قد سبقتاها بالإبلاغ ولم ألتفت لبلاغهما. كان لا بد أن تسقط يا مونتاج بشكل أو بآخر. كم كان سخيفًا أن تلقي الشعر في كل مكان بكل حرية وسلاسة، إنه تصرف لا يصدر إلا عن شخص تافه متعجرف... حفظ بيتين من الشعر فظن أنه قد أصبح سيد العالم كله .العالم يعيش في سلام في غياب مثل هؤلاء الأغبياء. انظر إلى الوحل الذي سقطت فيه بسببهم، ذلك الوحل الذي لو حركته قليلاً بإصبعي لأغرقتك!

لم يستطع «مونتاج» أن يتحرك. كان زلزال قوي قد هدم منزله وسواه بالأرض، ودُفنت تحت الأنقاض ميلدريد، بل حياته بأكملها، بينما هو لم يحرك ساكنًا. بداخله كان الزلزال يهز كل شيء... كل ما بداخله كان يرتجف ثم يتهاوى بينما وقف ساكنًا وقد انثنت ركبتاه تحت

عبء ثقيل من الدهشة والغضب والإرهاق. كيف ترك بيتي يضربه هكذا دون أن يرفع يداً يدافع بها عن نفسه.

ـ كيف فعلت ذلك يا مونتاج؟ يا لك من أحمق! كيف فعلت ذلك؟

لم يسمع مونتاج أي شيء، فقد كان عقله قد ذهب ركضاً إلى مكان بعيد، اختفى تماماً تاركاً جسده الملطخ بالسواد يترنح أمام أحمق آخر لكنه هائج. قال فيبر:

ـ لماذا لم تهرب يا مونتاج.

وبينما كان «فيبر» يهمس في أذن «مونتاج» من خلال الرصاصة الخضراء، وكان مونتاج يحاول أن يستمع، وجّه إليه «بيتي» ضربة دفعته إلى الخلف وهو يترنح. فجأة سقطت الرصاصة فوق الرصيف ليراها «بيتي» الذي التقطها على الفور وأمسك بها بالقرب من أذنه وهو يبتسم ابتسامة صفراء. سمع «مونتاج» صوت «فيبر» وهو ينادي:

ـ مونتاج؟ هل أنت بخير؟

أغلق «بيتي» الرصاصة الخضراء ودسَّها في جيبه، وهو يقول:

ـ شيء جميل... ما خفي كان أعظم! كنت أراك تميل برأسك، فأظن أنك تستمع إلى راديو قوقعة البحر. ولكن عندما رأيتك تتصرف بذكاء أحياناً، راودني الشك. والآن فإننا سوف نتتبع مصدر الصوت ونقبض على صديقك.

ـ لا!

نزع «مونتاج» الغطاء عن مسدس اللهب، التفت «بيتي» بسرعة إلى أصابع «مونتاج» واتسعت عيناه قليلاً من الدهشة. رأى «مونتاج» تلك

الدهشة فنظر بدوره إلى يديه ليرى ماذا فعلت مجدداً دون علمه؟ كان كلما تذكر تلك اللحظة فيما بعد، يتساءل: هل كانت يداه، أم نظرة «بيتي» المندهشة ليديه هي التي شجعته على القتل؟ وأخيراً انتهى الزلزال بانهيار أضخم كتلة في الجبل فسقطت وهي تتدحرج على بُعد شعرة واحدة منه.

ظل «بيتي» مبتسماً ابتسامته الساحرة، ثم قال:

ـ جميل جداً، يا لها من طريقة رائعة تحصل بها على جمهور من المستمعين. تشهر سلاحًا في وجه إنسان وتجبره على الاستماع إلى خُطبك. فلتخطب. ما موضوع الخطبة اليوم؟ لماذا لا تتجشأ أبياتًا من شكسبير في وجهي أيها الأبله المضطرب؟

«وعيدُك كاسيوس لا يدعو إلى فزع

فقد اتخذتُ الحق درعًا واقيًا

فمضى وعيدك كالرياح الفارغة

وأنا أمامك لن أُوقّره»

ما رأيك في هذه الأبيات؟ الآن هيا يأيها المثقف الضئيل. اسحب الزناد.

تقدم «بيتي» خطوة إلى الأمام نحو «مونتاج» الذي لم ينطق إلا بكلمات قليلة: «لم نحرق أبداً ما يستحق الحرق. . . » تحجرت ابتسامة «بيتي» وهو يقول: «سلم هذا السلاح يا مونتاج»، بعدها تحول إلى لهب يصرخ. . . وبدا كأنه دمية بالحجم الطبيعي تقفز وتغمغم وتتلوى في اللهب على الحشائش، بينما كان «مونتاج» يقذفها بالمزيد من النار

السائلة. كان هناك صوت كفحيح اللُعاب يلامس سطحًا ساخنًا، وكانت هناك رغوة كتلك التي تخرج عندما يغمر الملح كائنًا بحريًا أسود عملاقًا فيتميع ويترهل ويخرج منه سائل أصفر وهو يفور. أغمض مونتاج عينيه، ثم صرخ وصرخ وحاول أن يصم أذنيه حتى لا يسمع الصوت المفزع. تقلب «بيتي» مرتين أو ثلاثًا قبل أن يلتوي كعروسة من الشمع ثم يسكن إلى الأبد.

لم يتحرك رجلا الإطفاء الآخران.

سيطر «مونتاج» على شعوره بالألم مؤقتًا كي يستطيع أن يوجه مسدس اللهب نحو الرجلين وهو يقول: «استديرا إلى الخلف!».

استدار الرجلان، كان العرق يتصبب منهما وبدا وجهاهما وكأنهما قطعتا لحم بيضاويتان.. ضرب «مونتاج» رأسيهما بقوة فسقطت الخوذتان، ثم سقط الرجلان دون حركة، وكأن ورقتي شجر سقطتا في الخريف من هبة هواء. التفت «مونتاج» فإذا بكلب الصيد الآلي أمامه. كان قد عبر العشب المحيط بالمنزل، أتي من حيث الظل وكان يتحرك بسلاسة جارفة وكأنه سحابة متماسكة من الدخان الرمادي المائل إلى الأسود هبت علي مونتاج فجأة في صمت. قفز قفزة أخيرة في الهواء ثم هبط أمامه من ارتفاع ثلاثة أقدام. كانت أرجله العنكبوتية تمتد في كل مكان والإبرة المخدرة تخرج من الناب الوحيد في فمه الغاضب. تلقى «مونتاج» الكلب الآلي بنار حامية قد تفتحت كزهرة كبيرة يانعة أوراقها صفراء وزرقاء وبرتقالية. نمت تلك الزهرة حول الكلب المعدني لتغطيه تمامًا بينما كان قد هجم على مونتاج ودفعه إلى الوراء بقوة ليطير مسافة عشرة أقدام ويرتطم بساق شجرة دون أن يفلت من يديه مسدس اللهب. شعر «مونتاج» بكلب الصيد يخدش، ثم يمسك بساقه و يغرس

فيها الإبرة المخدرة للحظة واحدة قبل أن تمسك النيران بالكلب وترفعه إلى أعلى في الهواء. فجّرت النيران عظام الكلب المعدنية عند المفاصل، وأخيراً عصفت بأحشائه الحديدية في انفجار أحمر اللون وكأنه صاروخ تسمر في الطريق. وقف «مونتاج» يشاهد ذلك الكائن «الميت الحي» وهو ينحني في الهواء ثم يموت. شعر بمزيج من الراحة والرعب عندما كادت سيارة ـ تنطلق بسرعة تسعين ميلاً في الثانية ـ أن تقتله لكنها لم تصب إلا ركبته حيث تراجع في اللحظة المناسبة .خشي أن يعجز عن النهوض أو يفقد قدمه تمامًا حيث إن ساقه كانت مخدرة. تخدير فوق تخدير فوق تخدير!

والآن؟

كانت الشوارع خالية، وكان المنزل قد احترق وكأنه قطعة ديكور مسرح بالية. كانت المنازل الأخرى مظلمة. كان كلب الصيد يرقد، وإلي جواره يرقد «بيتي»، وفي بقعة أخرى يرقد رجلا الإطفاء الآخران. والسمندر؟ نظر إلى الآلة الضخمة. كان يجب أن تختفي هذه أيضًا.

والآن ـ قال «مونتاج» لنفسه ـ فلنر إلى أي مدى تدهورت حالتك. انهض على قدميك. مهلاً. . . مهلاً. . . حسن.

وقف أخيراً، لكن لم يكن لديه إلا ساق واحدة. كانت الأخرى كلوح خشبي متفحم قطع من شجرة صنوبر. كان عليه أن يحمل ذلك اللوح المتفحم ليكفر عن خطيئة ما لا يعرفها. ترك حمل جسمه لساقيه، فإذا بوابل من الإبر الفضية يتدفق من أسفل الساق إلى الركبة. بكى. هيا تحرك! تحرك !لا . . لا تستطيع أن تبقى هنا.

أضـاءت منازل مـعـدودة أنوارها على طول الطريق. لـم يعـرف «مونتاج» السبب في ذلك. ربما شعر أصحاب تلك المنازل بالأحداث، وربما أرهبـهم الصـمت الـذي تلاها. قـفـز «مـونتـاج» على قـدم واحـدة وسط الأنقاض ممسكًا بساقه المريضة كلمـا تلكأت. كان يكلمها ويتذمر منها ويعنفها وهو يوجهها يمينًا أويسارًا. كان يلعنها تارة، ويتوسل إليها تارة أخرى أن تساعده الآن إنقاذًا لحياته. سمع بعض الناس يصيحون ويصرخون في الظلام. وصل إلى حديقة منزله الخلفية والشارع الضيق الملاصق لهـا. آه يا «بيتي»! لم تعد تمثل مشكلة بالنسبة لي الآن. أنت طالما قلت لي: «لا تواجـه المشاكل، وإنما احرقـهـا». هـا أنا قد جـربت الطريقتين. مواجهة المشكلة، وإحراقها. مع السلامة يا كابتن «بيتي».

تعثر على طول الشارع الضيق في الظلام.

كانت طلقة رصاص تنفذ في ساقه كلما وضعها على الأرض. قال لنفسه: «إنك أحمق. أحمق ملعون. أحمق لدرجة مهولة. أبله. أبله لدرجة مهـولة. أبله ملعون. أرأيت ما تسببت فيه؟ لقـد انسكب كل شيء على الأرض! أين الممسحة؟ ماذا ستفعل؟ كبرياؤك اللعين وعدم قدرتك علـى التحكم في أعـصابك. لقـد سكبت القـمـامـة كلهـا. منذ البداية تقيَّأت على كل من حولك وعلى نفسك. كل شيء مرة واحدة. كل شيء فوق بعضه بعضـا. بيـتي والسيدة و«ميلـدريد» و«كـلاريس» وكل شيء. لا عـذر لك. لا عـذر لك. أحـمق. أحمق ملعـون لأنك تركت نفسك هكذا.

لا، سوف أنقذ ما يمكن إنقاذه. سنفعل ما نستطيع. إذا كان لا بد أن نحترق، فهناك من يجب أن يحترق معنا. هنا!

تذكـر الكتب التي كـان قد دفنها في الحديقة الخلفية، فعاد إليها.

«ميلدريد» مشكورة لم تأخذ كل الكتب. كان هناك أربعة لا يزالون مدفونين في الحديقة. كانت أصوات تصفر في الليل كالعويل، وكانت دوامات من أضواء الكشافات اليدوية تتقاطع في السماء. سمع مونتاج أصوات محركات سمندرات أخرى ما زالت بعيدة، وعربات الشرطة تشق طريقها عبر المدينة بصفافير الإنذار. أخذ مونتاج الكتب الأربعة المتبقية، ثم أخذ يقفز وينزع ساقه عبر الطريق الضيق إلى أن سقط على الأرض وكأن رأسه قد طارت، ولم يبق منه إلا جسده. شيء ما بداخله أوقفه فجأة وأسقطه على الأرض. رقد حيث سقط وانخرط في البكاء. التفت ساقاه، وانكب وجهه على الأرض الخشنة دون أن يرى شيئًا.

كان بيتي «يريد أن يموت».

بينما كان يبكي شعر مونتاج أنه متأكد من أن بيتي كان يريد أن يموت. كيف وقف هكذا دون أن يحاول أن ينجو بنفسه؟ وقف يسخر مني ويوخزني بالإبر. هدأت تلك الفكرة من روع «مونتاج» فتوقف عن البكاء للحظة واستطاع أن يتنفس. ياله من شيء عجيب... عجيب. أن تتمنى الموت لهذه الدرجة! لدرجة أن تقف في مواجهة رجل مسلح غاضب، وبدلاً من أن تصمت وتبقى حيًا، فإنك تظل تصرخ في وجهه وتسخر منه حتى يفقد أعصابه وبعدها.

سمع من بعيد صوت أقدام شخص يجري.

جلس «مونتاج». فلنخرج من هنا. انهض! انهض! لا يمكن أن تجلس هكذا! ولكنه كان لا يزال يبكي.

والآن كان لابد أن يكف عن البكاء. كانت الدموع قد بدأت تجف،

فهو لم يكن يريد أن يقتل أحداً، حتى بيتي نفسه. كان جلده يتمزق من الألم وينكمش وكأنه قد ألقي في سائل حمضي لاذع. تقيأ في ألم. تراءى له «بيتي» كأنه شعلة لا تتحرك لكنها ترتعش على العشب الأخضر. عض أصابعه وهو يقول: أنا آسف يا بيتي... آسف... يا إلهي... آسف.

حاول أن يربط الأحداث، أن يعود إلى حياته الطبيعية، أن يرجع بذاكرته أياماً قليلة إلى الوراء... إلى ما قبل المنخل والرمال... إلى ما قبل معجون أسنان دنهام، وصوت البعوضة، والإنذارات والرحلات... يا لها من أحداث! ثلاثة أيام لا تكفي لكل هذه الأحداث! بل إن عمراً كاملاً لا يكفي!

في آخر الطريق كانت هناك أقدام تجري.

«انهض»، كان «مونتاج» يكلم نفسه، ويوجه كلامه بالأخص لساقه المريضة «اللعنة! تحركي!» كان الألم كالأشواك تنغرز في ركبته، ثم أصبح كإبر الخياطة، وأخيراً كالدبابيس. وبعد أن قفز خمسين قفزة وزيادة، وبعد أن امتلأت يده بشظايا خشبية من ألواح السور، كان الألم قد أصبح كرذاذ من الماء المغلي لرشاش موجه إلى ساقه. وأخيراً عادت إليه ساقه. كان يخشى إذا جرى أن ينكسر كاحله، لكنه أطلق ساقيه إلى الريح، وفتح فمه ليدخل كل هواء الليل الداكن في رئتيه ويخرج باهتاً تاركاً اللون الأسود في أعماقه. كان يجري بسرعة ثابتة، وهو يحمل الكتب في كلتي يديه.

كان يفكر في «فيبر». كان فيبر هناك تحت كومة سوداء يصدر منها دخان، ليس لها اليوم شكل ولا اسم ولا هوية. لقد أحرق «فيبر» أيضاً. أفزعته تلك الفكرة لدرجة أنه خشي أن يكون «فيبر» قد مات

بالفعل، مطهواً كسمكة مشوية في تلك الكبسولة الصغيرة الخضراء المفقودة في جيب رجل هو الآن مجرد هيكل عظمي ملفوف بخيوط من الأسفلت المنصهر.

الآن يجب ألا تنسى: احرق قبل أن يحرقك الآخرون، شيء في منتهى السهولة.

بحث في جيوبه، كانت النقود لا تزال بداخل أحد الجيبين، وفي الجيب الآخر، كان يحتفظ براديو قوقعة البحر العادي الذي عن طريقه كانت المدينة تكلم نفسها في ذلك الصباح البارد.

«تنبيه مهم من الشرطة». مطلوب القبض على رجل هارب في المدينة. ارتكب جريمة قتل وجرائم أخرى ضد الدولة. اسمه «جاي مونتاج»، ويعمل رجل إطفاء. كانت آخر مرة ظهر فيها الهارب عندما...

جرى «مونتاج بثبات»، عبر ست بنايات بعدها انفتح الشارع على طريق سريع بسعة عشر حارات، بدا تحت الأضواء البيضاء المنحنية وكأنه نهر تجمد خلي من القوارب. قال لنفسه: ستموت غرقًا إذا فكرت أن تعبر. كان فسيحًا... كان مفتوحًا. كان مسرحًا واسعًا بلا ديكور يدعوه أن يعبر فتسهل رؤيته في الضوء الساطع، ويسهل القبض عليه، ويسهل قتله.

كانت قوقعة البحر تغمغم في أذنه: «ترقبوا رجلاً يهرب! ترقبوا الرجل الهارب! ترقبوا رجلاً يجري بمفرده، على قدميه... ترقبوا!

اختبأ «مونتاج» مرة أخرى في الظل. كانت أمامه مباشرة محطة للوقود... كتلة من الثلج البورسليني تلمع، وسيارتان «بيتلز» لونهما

فضي تدخلان للتزوُّد بالوقود. لابد أن يبدو نظيفًا ومهندمًا حتى يستطيع أن يسير بهدوء بدلاً من أن يجري عبر هذا الطريق الواسع. لو اغتسل ومشّط شعره، سيصبح لديه متسع من الطمأنينة قبل أن يكمل طريقه إلى . . . إلى أين؟

سأل نفسه: «إلى أين أنا هارب؟».

لم يستطع أن يجيب عن السؤال. ليس هناك ملجأ. ليس هناك صديق حقيقي يستطيع اللجوء إليه سوى «فيبر». وهنا أدرك أنه كان بالفعل يتجه نحو منزل «فيبر» دون أن يدري. ولكن «فيبر» لا يستطيع أن يخبئه. كانت مجرد المحاولة تعني الانتحار. لكنه كان ذاهب إلى فيبر على أية حال. كان يريد أن يراه ولو لدقائق معدودة. كان بيت «فيبر» هو المكان الوحيد الذي يستطيع أن يتزوَّد فيه بالثقة في قدرته على البقاء حيًا. كان مخزونه من تلك الثقة قد أوشك على النفاد، وكان ضروريًا أن يزوده «فيبر» بمدد منها. كان يحتاج أن يتأكد أن الحياة مازال فيها رجل مثل «فيبر»، وأنه حي ولم يحترق هناك داخل جسد آخر. كان يجب أن يترك بعض النقود مع فيبر ليصرفها بعد أن يهرب «مونتاج». فربما يستطيع أن ينجو بنفسه خارج المدينة ويعيش في مأمن بالقرب من الأنهار أو الطرق السريعة أو الحقول والهضاب البعيدة.

صوت يدور في السماء جعله ينظر إلى أعلى. كانت طيارات الشرطة الهليكوبتر تعلو وكأنها زهور برية جافة طارت رءوسها في السماء. العشرات منها كانت تطير وترتعش بلا وجهة محددة لمسافة ثلاثة أميال، كالفراشات الحائرة في فصل الخريف. ثم كانت تهبط رأسيًا على الأرض، الواحدة تلو الأخرى، هنا وهناك في أماكن

متفرقة وكأنها أياد تُدلك الأرض في رقة. بعد ذلك تتحول كل هليكوبتر منها إلى سيارة «بيتلز»، وفجأة تصرخ وهي تنطلق على الطريق، أو تعود مرة أخرى إلى الجو وتواصل البحث.

وصل «مونتاج» إلى محطة الوقود، كان صاحبها مشغولاً بالحديث مع الزبائن. دخل «مونتاج» من المدخل الخلفي ودلف في هدوء إلى دورة المياه. جاءه صوت المذيع من خلال الحائط الألومنيوم: «تم إعلان الحرب». كانت مضخات الوقود تعمل دون توقف في الخارج. كان الرجال في السيارات البيتلز يتحاورون، وكان عمال المحطة يتحدثون عن المحركات ونوع الوقود، وتكلفة الخدمة. وقف «مونتاج» يحاول أن يستشعر صدمة الإعلان عن الحرب، لكنه لم يشعر بأي شيء. فلتنتظر الحرب حتى يأتي إليها بنفسه بعد ساعة أو ساعتين من الآن.

كان قد غسل يديه ووجهه وجفف نفسه دون أن يصدر صوتًا يذكر. خرج من دورة المياه وهو يغلق الباب خلفه في حرص شديد ثم مشى في الظلام ووقف مرة أخرى على حافة الشارع الواسع. انبسط الشارع أمامه كلعبة يطمح أن يفوز فيها. كان النهار البارد قد بزغ، فبدا الشارع الخالي نظيفًا كحلبة مصارعة الثيران قبل بداية اللعب بدقيقتين، لا يستطيع أحد أن يتنبأ باسم الضحية ولا بهوية القتلة في تلك الحلبة الواسعة. كان الهواء فوق ذلك النهر الأسمنتي الواسع يرتعد من الحرارة التي يشعها جسم مونتاج. لم يكن يصدق أن حرارة جسمه كفيلة بتغيير حرارة الجو .كان قد تحول إلى جسم فوسفوري مشع. كان يعلم ذلك جيداً، ويشعر به. والآن كان عليه أن يتحرك.

على بعد ثلاث بنايات كانت الأنوار تتلألأ. أخذ «مونتاج» نفسًا

عميقًا. كانت رئتاه كمكنستين من القش تحترقان داخل صدره. كان فمه قد جف تمامًا بسبب الجري، وكان يشعر بطعم الحديد في حنجرته، بينما شعر أن قدميه كالمعدن الصدئ.

ماذا عن هذا الضوء البعيد؟ بمجرد أن تبدأ في عبور الطريق، عليك أن تقدر سرعة هذه السيارات «البيتلز». احسب المسافة إلى الرصيف المقابل. مائة ياردة تقريبًا. قد لا تكون مائة، ولكن بالتقريب، وبما أنه سوف يمشي ببطء شديد ـ في نزهة لطيفة ـ فإنه سوف يقطع تلك المسافة في حوالي ثلاثين أو أربعين ثانية. وماذا عن السيارات البيتلز؟ بما أنها قد انطلقت، فإن بمقدورها أن تقطع مسافة ثلاث بنايات في خمس عشرة ثانية تقريبًا. إذن، فحتى لو ركض من منتصف الطريق، فإن. . . ؟

مد رجله اليمنى ثم اليسرى ثم اليمنى. كان يمشي في الطريق الخالي. لا يمكن أن تشعر بالأمان وأنت تعبر مثل هذا الطريق، فمن الممكن أن تظهر فجأة إحدى السيارات، تراها على بعد أربع بنايات، لتدهسك تمامًا قبل أن تتنفس عشر مرات متلاحقات.

قرر ألا يعد خطواته، لم ينظر يمينًا ولا يسارًا. بدا ضوء أعمدة الإنارة ساطعًا وكاشفًا كأنه شمس منتصف النهار بنورها وحرارتها. سمع صوت سيارة تسرع على بعد بنايتين على يمينه. كانت مصابيحها تتحرك بسرعة إلى الأمام وإلى الخلف، وأخيرًا أمسك ضوؤها بمونتاج.

استمر في السير.

ترنح، ثم أمسك بالكتب، وأجبر نفسه على ألا يتجمد. وجد نفسه

يجرى لبضع خطوات، ثم خاطب نفسه بصوت عال وحاول أن يعود للمشي مرة أخرى. لكن البيتلز كانت تزأر وتعويّ وهي ترفع من سرعتها.

إنها الشرطة طبعًا، إنهم يرونني، اهدأ الآن. . . اهدأ. . . لا تجر. . . لا تنظر خلفك. . . لا تنظر. . . لا تظهر قلقك. تقدم مشيًا إلى الأمام. . . تقدم. . . تقدم.

كانت «البيتلز» تنطلق، كانت «البيتلز» تزأر، كانت «البيتلز» ترفع سرعتها، كانت البيتلز تعوي. كانت البيتلز ترعد رعدًا هادرًا. كانت «البيتلز» تصرخ وكأنها طلقة مدفع خفي. كانت سرعتها تقترب من ١٢٠ ميلاً في الساعة. لا، بل ١٣٠ على الأقل. عض مونتاج على فكيه. لسعت حرارة مصابيح البيتلز خديه وألهبت جفونه، وأسالت قطرات العرق المالحة من رأسه إلى قدميه.

بدأ يتخبط كالأبله ويكلم نفسه، وفجأة انهارت مقاومته وبدأ يجري. مد ساقيه إلى أقصى مسافة يمكنهما الوصول إليها، ثم أنزلهما فمدهما. . . فأنزل فمد. . . فأنزل فمد. يا إلهي! يا إلهي! سقط منه كتاب، فتعثرت خطواته، وكاد يلتفت وراءه، لكنه عدل عن الفكرة واستمر في الجري وهو يصرخ في الفضاء الأسمنتي، و«البيتلز» تعدو خلف طعام يجري. كانت على بعد مائتي قدم. . . مائة قدم. . . تسعون. . . ثمانون. . . سبعون. كان «مونتاج» يلهث، يقذف بيديه وساقيه إلى أعلى وإلى أسفل، اقتربت. . . اقتربت. سمع صوت بوق البيتلز ينادي. كانت عيناه قد ابيضت بعد أن أحرقها ضوء البيتلز وكانت رأسه تهتز بعنف لتبتعد عن الضوء الحاد. كانت البيتلز تختفي

تارة في قلب أضوائها، وتارة أخرى تصبح شعلة واحدة تندفع في أعماقه. كانت صوتًا، كانت ضوءًا! والآن كادت تجثم فوقه. تعثر مونتاج ثم سقط. لقد انتهيت! انتهى كل شيء!

لكنه كان سقوطًا مختلفًا، فقد انحرفت «البيتلز» المتوحشة قبل أن تدهمه بدقيقة واحدة، ثم اختفت! كان «مونتاج» منبطحًا على وجهه وقد غمرته ضحكات المارة التى اختلطت بعادم البيتلز الأزرق.

كانت يده اليمنى ممددة فوقه. رفعها فإذا بخط أسود يكسو طرف إصبعه الأوسط. خط باهت لا يزيد على ست عشرة بوصة من إثر إطار «البيتلز» وهو يلمس يده! نظر إلى ذلك الخط وهو لا يصدق ما يرى بينما كان ينهض ليقف على قدميه.

قال لنفسه: هذه لم تكن سيارة شرطة!!

نظر أمامه إلى الشارع. اتضح الأمر الآن. إنها سيارة يقودها أطفال من مختلف الأعمار. الله أعلم بأعمارهم. اثنا عشر أو ستة عشر. كانوا يطلقون صفيرًا، ويصرخون، ويهللون، فقد رأوا رجلاً على قدميه! وهذا مشهد خارق حقًا! صاح أحدهم قائلاً: «فلنمسك بهذا الرجل». لم يكونوا على علم بأنه مستر «مونتاج» الرجل الهارب، فهم مجرد أطفال وجوههم بلون الجليد خرجوا ليزأروا بالسيارة لخمسة أو ستة أميال، في ليلة طويلة، ثم يعودون فجرًا أو لا يعودون، أحياء أو أموات، وهذا هو مصدر الإثارة والمتعة!!

قال «مونتاج» لنفسه: لكنهم كادوا يقتلونني. اختل توازنه، كان الهواء لا يزال ممزقًا، والتراب لا يزال ثائرًا من حوله. بلا سبب! كادوا يقتلونني بلا سبب!

مشى نحو الرصيف البعيد وهو يأمر كل قدم من قدميه بالمشي. لم يعرف متى أو كيف انحنى لالتقاط الكتب. لم يكن يذكر أنه لمس أيًا منها. أخذ ينقلها من يد إلى أخرى وكأنها أوراق لعب في حلقة للقمار.

ربما يكون هؤلاء هم الذين قتلوا «كلاريس». توقف ثم كرر عقله ما قاله لكن بصوت مرتفع هذه المرة: «ربما يكون هؤلاء هم الذين قتلوا كلاريس». أراد أن يتعقبهم جريًا على قدميه وهو يصرخ. ابتلت عيناه بالدموع.

كان ما أنقذه هو أنه انبطح أرضًا. ربما أدرك قائد السيارة من تلقاء نفسه احتمال أن تنقلب السيارة وتلقي بمن فيها لو أنه سار فوق جسم رجل بهذه السرعة الرهيبة. ما الذي كان سوف يحدث لو أن «مونتاج» ظل هدفًا قائمًا...؟

كان مونتاج يلهث.

على مرمى البصر في نهاية الطريق، كانت «البيتلز» تبطئ من سرعتها، ثم استدارت على عجلتين فقط، وها هي الآن تطير عائدة. انحرفت لتسير في الاتجاه العكسي من الطريق وأخذت سرعتها في الازدياد.

لكن «مونتاج» كان قد اختفى، كان يختبئ مطمئنًا في شارع ضيق مظلم. ومن هنا بدأ رحلة طويلة. منذ ساعة أو ربما من دقيقة مضت... كان يرتعد في الظلام وهو ينظر إلى السيارة «البيتلز» وهي تطير ثم تعود مرة أخرى إلى وسط الطريق... ودوامة من الضحكات... ذهبت الآن إلى غير رجعة.

كلما تقدم «مونتاج» في السير في الظلام، كان يرى طائرات الهليكوبتر وهي تنزل وتنزل كرقائق من ثلج الشتاء الطويل الذي لم يأت بعد.

كان المنزل ساكنًا.

دخل «مونتاج» من الخلف. تسلل في هواء الليل الندي المعطر برائحة كثيفة من النرجس البري والزهور والحشائش المبللة. لمس الباب الشاشة في خلف المنزل فوجده مفتوحًا، ودلف إلى الداخل. عبر الرواق وهو يرهف السمع.

تساءل: «مسز بلاك، هل أنت نائمة؟» هذا سؤال غريب، فطالما فعلها زوجك مع آخرين دون أن يسأل أو يتساءل أو يشعر بالقلق. والآن، وبما أنك زوجة لرجل إطفاء، فقد جاء دورك. من أجل كل البيوت التي أحرقها زوجك، وكل الناس الذين تسبب في جرحهم دون أن يفكر.

لم يرد عليه المنزل.

أخبأ الكتب في المطبخ، ثم تحرك من المنزل ليعود إلى الشارع الضيق. نظر خلفه... كان المنزل لا يزال مظلمًا، هادئًا، نائمًا. في طريقه عبر المدينة، كانت طائرات الهليكوبتر ترفرف في السماء كقصاصات ورق صغيرة. من أمام متجر لم يفتح أبوابه بعد، اتصل من «كشك» تليفون وحيد ليحرر بلاغًا. ظل بعد ذلك ينتظر في الليلة الباردة حتى سمع صفارات الإنذار تنطلق، ورأى السمندر وهو يستعد لإحراق منزل مستر بلاك بينما كان الرجل في عمله، بعد قليل سوف تقف زوجته ترتعد في هواء الصباح بينما يتحرك سقف المنزل ويسقط في النيران. أما الآن فهي نائمة .تصبحين على خير يا مسز «بلاك».

«فيبر!».

طرقة ثانية على الباب، ثم نداء هامس، ثم انتظار. ثم بعد دقيقة، لمع ضوء خافت داخل البيت الصغير. وبعد وقفة أخرى، انفتح الباب الخلفي.

وقفا ينظر كل منهما للآخر في نصف ضوء. «فيبر» و«مونتاج»، وكأن كلاً منهما يشك في أن الآخر ما زال حيًا. مد «فيبر» يده وأمسك «بمونتاج»، وأدخله، وأجلسه، ثم عاد ووقف بالباب، وأرهف السمع. كانت صفارات الإنذار تعوي من بعيد. دخل فيبر وأغلق الباب خلفه.

ـ لقد كنت أحمقًا على طول الخط. لا يمكن أن أعيش طويلاً. أنا في طريقي... والله وحده أعلم إلى أين أسير.

ـ هوِّن عليك! حتى لو كنت أحمق فإنك كنت تدافع عن حق. ولكن ظننت أنك مت. الكبسولة السمعية التي أعطيتك...

ـ احترقت.

سمعت الكابتن يتحدث إليك، بعدها انقطع الاتصال، ولم أسمع شيئًا. كدت أخرج كي أبحث عنك.

ـ لقد مات الكابتن. اكتشف الكبسولة السمعية وسمع صوتك، وكان ينوي أن يتعقبك، لكني قتلته بمسدس اللهب.

جلس «فيبر» ولم يتكلم لبعض الوقت، قطع «مونتاج» الصمت وهو يقول:

ـ يا إلهي. كيف حدث هذا؟ منذ ليال قليلة كان كل شيء على ما

يرام، بعدها وجدت نفسي أغرق. كم مرة يستطيع الإنسان أن يغرق ويظل حيًا؟ أنا لا أستطيع أن أتنفس. مات «بيتي»، وقد كان يومًا ما صديقي. وضاعت «ميلي»، وأظنها كانت زوجتي. وتفحم منزلي، وضاعت وظيفتي، وأنا الآن هارب من الشرطة، وبينما أنا في طريقي إليك قمت بوضع كتاب في منزل أحد رجال الإطفاء. يا للمسيح الكريم!! لقد فعلت كل هذا في أسبوع واحد.

ـ لقد كنت مضطراً أن تفعل ما فعلت. شيءٌ ما ظل ينمو بداخلك لسنوات طويلة حتى فعلت ما فعلت.

ـ هذا صحيح. أنا على يقين ـ حتى لو كان هو اليقين الوحيد ـ من أنني ظللت أدخر شيئًا يومًا بعد يوم حتى حدث ما حدث... كنت أشعر أن شيئًا ما ينمو بداخلي. لسنوات طويلة كان ما أفعله شيئًا وما أشعر به شيئًا آخر تمامًا. يا إلهي كان كل شيء مخبأ بداخلي، فكيف لم تظهر علاماته كما تظهر الدهون في كل مكان بالجسم؟ وها أنذا اليوم، أدمر حياتك أنت أيضًا. فربما تعقبوني إلى هنا.

ـ هوِّن عليك، فأنا أشعر بأنني حي لأول مرة منذ سنوات. أشعر بأنني أفعل اليوم ما كان يجب أن أفعله طيلة حياتي. أخيراً لا أشعر بالخوف. ربما لأنني أفعل الصواب لأول مرة في حياتي. ربما لأنني أتهور، وأحاول ألا أبدو جبانًا في عينيك. أعتقد أنني يجب أن أفعل أشياء أكثر عنفًا، وأن أعلن عن نفسي حتى لا أتقهقر مرة أخرى وأعود جبانًا فزعًا. ما خططك القادمة؟

ـ أن أظل هاربًا.

ـ هل تعرف أن الحرب قد بدأت.

ـ سمعت الأخبار.

ـ يا إلهي! أليس ذلك مضحكًا؟ يبدو الأمر كأنه شيء لا يهمنا، لأن لدينا مصيبتنا الخاصة.

ـ صحيح فأنا لم يكن لدي أي وقت لأفكر في الأمر.

أخرج «مونتاج» من جيبه مائة دولار، ثم قال:

ـ أريدك أن تحتفظ بهذه النقود. استخدمها بالشكل الذي ترى فيه فائدة بعد أن أرحل.

ـ ولكن...

ـ قد أكون ميتًا ظهر اليوم. استخدمها.

هز «فيبر» رأسه، وقال:

ـ من الأفضل أن تتجه نحو النهر إن استطعت. سر بمحاذاته، وإن استطعت أن تصل إلى خط المترو القديم الذي يتجه إلى الريف تتبعه. فبالرغم من أن كل المواصلات الآن محمولة هوائيًا ولا تحتاج إلى خطوط حديدية فتلك الخطوط ما زالت هناك، لكنها بالطبع أصبحت صدئة. وقد سمعت أن معسكرات الهاربين تنتشر في الريف في كل مكان. يسمونها معسكرات السائرين على الأقدام! وإذا استطعت أن تواصل السير على قدميك وعيناك مفتوحتان، فسوف تصل إلى مجموعة من خريجي «هارفارد» الهاربين على الخطوط الحديدية بيننا وبين «لوس أنجيليس». معظمهم مطلوب القبض عليهم ومطاردون في المدن. ولكنهم لا يزالون أحياء، على ما أعتقد. لم يبق الكثير منهم، والدولة لم تعد ترى فيهم الخطورة التي تجعلها تتعقبهم وتقضي عليهم. لذا فإنك تستطيع أن تختبئ معهم لبعض الوقت وتتصل بي في «سانت لويس». سأتجه إلى هناك بالأوتوبيس في الصباح لألتقي بالناشر

المتقاعد الذي حدثتك عنه. سأخرج من مخبئي إلى النور أخيرًا. هذه النقود ستعود بنفع كبير. أشكرك وليباركك الرب. هل تريد أن تنام لدقائق قليلة.

ـ لا، من الأفضل أن أسرع.

ـ دعني ألقي نظرة على الطريق.

جذب «فيبر» «مونتاج» بسرعة إلى غرفة النوم، ثم أزاح جانبًا لوحة داخل إطار ليكشف عن شاشة تليفزيونية في حجم كروت المراسلة، ثم قال:

ـ أردت دائمًا شاشة بهذا الحجم. شاشة أسير حتى أصل إليها، بدلاً من أن أجلس ضعيفًا وهي تصرخ في وجهي كعملاق ضخم. شاشة أستطيع أن أتفاداها بكف يدي عند الضرورة. والآن، دعنا نتابع ما يحدث.

لمس فيبر الشاشة فأضاءت الشاشة وانطلق صوت يقول:

«مونتاج ...MONTAG إم ـ أوه ـ إن ـ تي ـ إيه ـ جي ي. جاي مونتاج. لا يزال هاربًا. الطائرات الهليكوبتر ما زالت تبحث. تم استدعاء كلب آلي إضافي من منطقة أخرى».

نظر «مونتاج» و«فيبر» أحدهما للآخر.

«الكلاب الآلية لا تخطئ. لم يفشل أبدًا هذا الاختراع الخارق منذ استخدامه في مطاردة الهاربين. والليلة تفخر المحطة بمتابعة الكلب الآلي بطائرة هليكوبتر مزودة بكاميرات منذ بداية المطاردة...».

ملأ «فيبر» كأسين بالويسكي وهو يقول:

ـ سوف ينفعنا هذا.

شرب الرجلان.

ـ . . . له أنف حساسة، فهو يستطيع أن يحتفظ في ذاكرته ويتعرف على عشرة آلاف رائحة مختلفة لرجال مختلفين دون الحاجة لإعادة ضبط.

ارتعد «فيبر» في الرشفة الأخيرة من الكأس، ثم أخذ يجول بعينيه في المنزل: الجدران. . . البابُ. . . مقبض الباب. . . الكرسي الذي يجلس فوق مونتاج. رأي «مونتاج» نظرات فيبر. أخذ الرجلان ينظران إلى كل مكان في المنزل. وشعر «مونتاج» بأن فتحة أنفه قد اتسعت وكأنه يحاول أن يشم رائحته. نشطت أنفه وهي تحاول أن تتبع مساره في منزل فيبر ورائحة قطرات العرق التي علقت بمقبض الباب. قطرات متناهية الصغر لكنها كانت تتلألأ كالكريستال في نجفة مضيئة. كان قد تحول إلى سحابة مشعة. . . أو أصبح كالشبح الذي يجب أن تتوقف أمامه الأنفاس. رأى «مونتاج» «فيبر» وهو يحاول أن يكتم أنفاسه خشية أن يدخل ذلك الشبح إلى رئتيه ويتسرب إلى جسده فيصبح مشبعًا بطيف أنفاس ورائحة رجل هارب.

ـ «الآن يتم إنزال الكلب الآلي بواسطة الهليكوبتر في موقع الحريق!».

ظهر المنزل المتفحم على الشاشة وقد تجمع الناس حوله، كما ظهر في الصورة أيضًا شيء ما مغطى بملاءة. في السماء كانت الطائرة الهليكوبتر ترفرف كزهرة خرافية. قال مونتاج لنفسه: «إذن يجب أن يضعوا بأنفسهم نهاية للعبة. ويجب أن تستمر عروض السيرك، حتى وإن كانت الحرب ستبدأ في خلال ساعة».

كان يتفرج على المشهد مبهوراً، لم يكن يريد أن يتحرك، بدا له المشهد بعيداً وكأنه لا يخصه بالمرة، وكأنه يشاهد مسرحية مدهشة لا تخلو من إثارة غريبة. كل هذا بسببي! كل ما يحدث بسببي أنا! يا إلهي.

يستطيع ـ إن أراد ـ أن يتريَّث ويجلس مسترخيًا ليشاهد المطاردة على الشاشة ويستمتع بكل مراحلها المشوقة عبر الشوارع الضيقة والطرق السريعة، فيرى نفسه وهو يعبر الشوارع والحدائق والملاعب، سيتوقف بالطبع هنا أو هناك من أجل الفواصل الإعلانية التي لا غنى عنها، ثم يعود يجري عبر شوارع أخرى حتى يصل إلى منزل «مستر ومسز بلاك»، وأخيراً ينتهي به المطاف إلى هذا المنزل الذي يجلس فيه الآن. سيرى نفسه على الشاشة يجلس بجوار «فيبر» يشربان الخمر بينما يقف الكلب الآلي في الخارج يتشمم آخر محطة، يقف صامتًا كأنه الموت نفسه ويتدحرج ليقف أمام هذه النافذة. يستطيع «مونتاج» عندئذ أن يسير إلى النافذة بينما لا تزال عيناه على التليفزيون، ثم يفتح النافذة، وينظر من خلالها، ثم يعاود النظر إلى الشاشة ليشاهد المعالجة المسرحية لحياته. حياته التى تخضع الآن للوصف والتحليل والتهويل بينما هو يقف منكمشًا باهتًا بجوار وهج تلك الشاشة الصغيرة. كان يعرف أنه كان يظهر ـ في صالونات المدينة الأخرى ـ على الجدران بالحجم الطبيعي والألوان والأبعاد الطبيعية! لو استطاع أن يتحمل للنهاية، وأن يشاهد العرض حتى آخر لحظة قبل أن يفقد وعيه، يمكنه أن يرى ثقبًا في رأسه من خلال البث المباشر. بالتأكيد سوف يسعد هذا المشهد آلاف المشاهدين الذين استيقظوا لتوهم على صوت صفارات تنطلق من جدران صالوناتاهم تدعوهم إلى مشاهدة المطاردة الشيقة،

الكرنفال الذي يقوم ببطولته رجل واحد. هل ستكون لديه الفرصة أن يقول كلمة وهو بين أنياب الكلب الآلي ليخاطب بها العشرة ملايين مشاهد أو ربما العشرين أو الثلاثين مليون مشاهد في كل مكان؟ هل يستطيع في هذه الكلمة أن يلخص حياته كلها . . . تلك الحياة التي عاشها في أسبوع واحد فقط؟ لن يكون لديه متسع من الوقت، لذا يجب أن يحسن اختيار جملة واحدة أو ربما كلمة واحدة بحيث تظل في ذاكرة المشاهدين طويلاً بعد أن يقبض عليه الكلب بين فكين من حديد، ويهرول به في الظلام بينما تظل الكاميرا مثبتة على ذلك الوحش الآلي الضخم وهو يختفي تدريجيًا من مجال الرؤية. مشهد رائع حقًا! ولكن الآن يجب عليه أن يفكر في كلمة واحدة مؤثرة، أو ربما بضع كلمات لها القدرة أن تلفح الوجوه وتوقظ النيام.

فجأة همس «فيبر»: «انظر».

نظر «مونتاج» فرأى جسمًا غريبًا ينزلق من الهليكوبتر، ليس آلة ولا حيوانًا، ليس ميتًا ولا حيًا. كانت له لمعة خضراء باهتة وهو يقف بالقرب من الأنقاض المتفحمة في بيت مونتاج. جاء الرجال بمسدس اللهب الذي تركه مونتاج وراءه ووضعوه تحت أنف ذلك الجسم الغريب. إنه الكلب الآلي، وهو الآن يزمجر ويطقطق ويقرقع. هز مونتاج رأسه ثم نهض. شرب ما تبقى في كأسه من شراب، ثم قال:

ـ لقد حان الوقت، أنا آسف لما سيحدث لك بسببي.

ـ آسف من أجلي أنا؟ أنا لا أستحق أسفك. فلتهرب لأجل الرب. ربما أستطيع أن أعطلهم هنا.

ـ لحظة! لماذا ندعهم يقبضون عليك بعد رحيلي؟ احرق مفرش السرير هذا الذي لمسته بيدي، وهذا المقعد الذي جلست عليه.

احرقهما في المحرقة الالكترونية التي في غرفة المعيشة. وامسح الأثاث كله بالكحول. امسح مقابض الأبواب. واحرق السجادة التي في غرفة الصالون. ثم قم بتشغيل المكيف على أعلى درجة في كل الغرف، وإن كان لديك مبيد حشري قم برش جميع الحجرات. يمكنك أيضًا تشغيل الرشاشات الآلية في الحديقة بأعلى اندفاع حتى تغمر المياه الممرات كلها. ربما نستطيع أن نمحو الرائحة من المنزل تمامًا.

هز «فيبر» رأسه ثم قال:

ـ لا تقلق سأفعل كل هذا. حظ سعيد لك. لو كنا في صحة جيدة في الأسبوع المقبل، فلنلتقِ في الأسبوع الذي يليه في «سانت لويس». للأسف لن يمكنني أن أسيرَ معك عبر سماعة الأذن. كانت مريحة لكل منا، ولكن للأسف ليس لدي كبسولة خضراء أخرى. لم أتوقع أن أحتاج هذا الاختراع. رجل غبي. لم يكن لدي عقل أفكر به. غبي. غبي. الآن انطلق!

ـ مطلب أخير. بسرعة. أحضر شنطة واملأها بملابسك. أكثر ملابسك تشبعًا بالعرق. بدلة قديمة. كلما كانت متسخة كان أفضل. قميص. حذاء رياضة قديم وشراب. . .

اختفى «فيبر» ثم عاد بعد دقيقة واحدة بحقيبة الملابس المطلوبة، ثم أخذ يعمل مع «مونتاج» لإحكام إغلاقها بشريط لاصق شفاف. تصبب منه العرق وهو يقول: «هكذا تظل رائحة فيبر العجوز بالداخل». رش «مونتاج» الحقيبة من الخارج بالويسكي وهو يقول:

«لا أريد أن يلتقط الكلب الآلي رائحتين في الوقت نفسه. هل تسمح لي ببقية الويسكي؟ سأحتاجه لاحقًا. يا إلهي. أرجو أن تنجح هذه الخطة.

شد كل منهم على يد الآخر مرة أخرى. بينما كان «مونتاج» يتجه ناحية الباب، ألقى نظرة على الشاشة. كان كلب الصيد في طريقه تتابعه الكاميرات المحمولة على الهليكوبتر. كان الكلب يشم هواء الليل في صمت... وفي صمت اتجه نحو الشارع الجانبي الضيق.

- إلى اللقاء!

خرج «مونتاج» في خفة من الباب الخلفي، وجرى وهو يحمل الحقيبة النصف مملوءة. سمع خلفه صوت رشاشات المياه في حديقة فيبر تملؤ الهواء المظلم بالأمطار. كانت قطرات المطر تسقط في رفق على الممرات فتغسلها قبل أن تنصرف في نظام وهدوء إلى الشارع الضيق. حمل وجهه بضع قطرات من هذه الأمطار، خُيِّل إليه أنه سمع صوت فيبر يقول: «إلى اللقاء». لكنه لم يكن متأكدًا.

جرى بسرعة كبيرة بعيدًا عن المنزل، واتجه نحو شاطئ النهر.

* * *

ظل مونتاج يجري

كان يشعر بالكلب الآلي يأتي باردًا وجافًا وسريعًا كريح قوية صامتة لا تحرك الحشاش، و لا تهز الزجاج، ولا تزعج ظل الشجر على الممرات. لم يكن الكلب الآلي يلمس أي شيء. كان يحمل صمته معه. تستطيع أن تشعر بثقل الصمت وهو يتضاعف من خلفك

عبر المدينة. شعر «مونتاج» بالثقل يزداد، فواصل الجري. توقف في طريقه إلى النهر ليأخذ نفسًا. نظر إلى البيوت، بنوافذها ذات الضوء الخافت في بداية اليوم، وقد أيقظ سكانها لتوِّهم ووقفوا أمام جدران صالوناتهم يشاهدون الكلب الآلي. كان يلمع على الشاشة كخيوط العنكبوت في مكان تلو الآخر. هو الآن في «إلم تيراس»، ثم في «لنكولن»، ثم «أوك»، ثم «بارك»، ثم في الشارع الضيق المؤدي لمنزل «فيبر». قال «مونتاج» لنفسه: «تقدم بسرعة. لا تتوقف. لا تنظر خلفك!».

على الشاشات ظهر منزل فيبر برشاشاته التي تنبض في هواء الليل.

توقف كلب الصيد ثم ارتعد.

لا! أمسك مونتاج بالنافذة. هذا الطريق! هنا!

كانت إبرة «البروسين» تخرج وتدخل، ثم تدخل وتخرج، ثم اختفت داخل أنف الكلب الآلي.

أمسك «مونتاج» أنفاسه بقوة، كأنها قبضة مزدوجة في صدره. انحرف الكلب الآلي بعيدًا عن منزل «مونتاج» ثم انطلق نحو الشارع مرة أخرى. نظر «مونتاج» إلى السماء، كانت طائرات الهليكوبتر تقترب. سرب من الحشرات تطير نحو مصدر الضوء.

حاول «مونتاج» جاهدًا أن يذكر نفسه بأن ما يراه ليس حلقات تمثيلية يتسلى بمشاهدتها في طريقه إلى النهر، وإنما هو لعبة الشطرنج التى هو بالفعل قطعة منها، وها هو يتابعها حركة بعد حركة. صرخ لكي يمد نفسه بالقوة ليتحرك بعيدًا عن نافذة ذلك المنزل الأخير، بعيدًا عن جلسة تحضير الأرواح المنعقدة في الداخل. اللعنة! أخيرًا تحرك بعيدًا عن المنزل.

شـارع ضيق، ثم طريق رئيس، ثم شـارع ضيـق، ثـم طريق رئيس، وهكذا حـتى رائحـة النهـر. سـاق إلى الأمـام ثم إلى أسـفل. أمام. . . أسفل. . . أمام. . . أسفل. إذا استطاعت الكاميرا أن تلتقط صـورته الآن، فسيـصبح هناك عشـرون مليون مونتاج يركضـون. عشرون مليونًا يركضون. . . يركضون كما في المسلسلات الكوميدية القديمة الشهيرة حيث البوليس يطارد المجرمين. . . إنها قصة الصياد والفريسة التي رآها ألف مرة. خلفه الآن عشـرون مليون كلب آلي يزحفون على جدران الصالونات. ثلاث كاميرات تغذي الجدران الثلاثة. و تظل الصور تفقز من الجدار الأيمن إلى الأمامي، إلى الأيسر ثم الأيمن فالأمامي فالأيسر، ثم تختفي!

وضع «مونتاج» قوقعة البحر في أذنه:

«توصي الشرطة جميع السكان في منطقة «إلم تراس» بالآتي:

على كل فرد في كل منزل في كل شوارع المدينة أن ينظر من البـاب الخلفي أو الأمامي، أو ينظر من النافذة. لن يستطيع المجرم أن يهرب إذا نظر الجميع إلى الشارع في الدقيقة التالية. هيا!».

يا لهـا من طريقـة مبتكرة! لماذا لم يستخدموها من قبل. الجميع ينظر. الجميع يصحو. الجميع يخرج! لن ينجو «مونتاج» أبدًا. فهو الرجل الوحيـد الذي يجري بمفرده في المدينة المظلمة! الوحيـد الذي يستخدم قدميه!

«الآن سيبدأ العد من واحد إلى عشرة: واحد! اثنان!».

شعر أن المدينة تستيقظ.

«ثلاثة».

شعر أن المدينة تنظر من آلاف الأبواب.

أسرع! أمام... تحت!

«أربعة».

كان الناس يمشون نيامًا في طرقات منازلهم بحثًا عن الأبواب.

«خمسة».

شعر بأيديهم تمسك بمقابض الأبواب.

كانت رائحة النهر باردة كرائحة المطر. كانت حنجرته قد صدأت واحترقت، وكانت عيناه قد جفتا وتحجرتا بفعل الهواء. صرخ وكأن صوته كفيل بأن يحمله ويقذف به عشر ياردات إلى الأمام.

«ستة... سبعة... ثمانية».

تحركت مقابض خمسة آلاف باب.

جرى مبتعدًا عن آخر صف من المنازل، وبدأ ينزل منحدرًا يؤدي إلى كتلة سوداء تتحرك.

«عشرة».

انفتحت الأبواب. تخيل «مونتاج» آلافًا من الوجوه تطل من منازلها إلى الشوارع، ثم إلى السماء. وجوه تختبئ خلف الستائر، وأخرى ابيضَّت من الخوف كالحيوانات الهاربة من كهوف الكهرباء، وأخرى تخدرت وبرزت منها عيون رمادية وألسنة رمادية وأفكار رمادية. لكنه كان قد وصل إلى النهر. لمس مياهه ليتأكد أنه نهر حقيقي. ثم نزل إليه

وخلع ملابسه تمامًا، ثم أخذ يغسل جسمه، وذراعيه، وساقيه، ورأسه بالماء المنعش، شرب منه، واستنشق. ثم ارتدى ملابس فيبر القديمة وحذاءه القديم. تخلّص من ملابسه القديمة في النهر وأخذ يتابعها بنظره وهي تنجرف بعيدًا. بعد ذلك خاض في النهر طويلاً حاملاً الحقيبة الفارغة... لم يعد يشعر بقاع النهر تحت قدميه، وترك نفسه ينجرف في الظلام.

عندما وصل الكلب الآلي إلى حافة النهر، كان «مونتاج» قد توغل داخله لمسافة ثلاث مائة ياردة. كانت الطائرات الهليكوبتر تحدث جلبة فوق رأسه. وفجأة هبت فوق النهر عاصفة من الأضواء. غطس «مونتاج» في الماء تحت الإضاءة الرهيبة، فشعر وكأن الشمس الحارقة قد اختبأت في السحاب. كان النهر يسحبه بعيدًا في مجراه، إلى الظلام. سطعت الأضواء مرة أخرى ولكن على الأرض، دارت طائرات الهليكوبتر لتعود مرة أخرى إلى المدينة، وكأنها مكلفة بمطاردة جديدة. اختفت تمامًا الطائرات من السماء، واختفى الكلب الآلي من فوق الأرض. لم يعد هناك غير النهر البارد، ومونتاج يطفو فوقه في سلام مفاجئ... بعيدًا عن المدينة، والإضاءة، والمطاردة... بعيدًا عن كل شيء.

شعر كأنه ترك خلفه مسرحًا بمن عليه من ممثلين، أو كأنه انسحب من جلسة لتحضير الأرواح تاركًا خلفه الأرواح تتكلم بصوت غير واضح. كان قد ترك خلفه حلمًا مفزعًا، واختار حقيقة بدت كالحلم لأنه لم يعرفها من قبل. شعر بأرض سوداء تنزلق تحت قدميه وهو يخطو نحو القرية تحيط به الهضاب من كل جانب. ولأول مرة منذ سنوات طويلة رأي النجوم تجري فوقه وكأنها حلقات من النار تدور في

السماء. فجأة رأى إلهًا أسطوريًا يتكون في السماء وينذر بأن يتدحرج ويسقط فوقه.

وقع على ظهره عندما امتلأت الحقيبة بالمياه. كان النهر لطيفًا ونشيطًا، عندما ابتعد عن هؤلاء الذين يتناولون خيالات الشاشة على الإفطار وعادم السيارات على الغداء وبخار الطائرات على العشاء. كان كل شيء لديهم غير ملموس. أما النهر فكان ملموسًا وحقيقيًا. حمله برفق، ومنحه الوقت والراحة ليفكر فيما حدث في هذا الشهر، بل هذه السنة، وبل كل السنوات. سمع صوت قلبه يخفق. توقفت أفكاره عن التدفق في شرايينه مع الدماء.

رأى القمر في السماء القريبة. القمر، وضوء القمر. من أين يأتي ضوء القمر؟ من الشمس بالتأكيد. وكيف تضيء الشمس؟ تضيء بالاحتراق الداخلي. وهكذا تستمر الشمس، يومًا بعد يوم في الاحتراق. تحترق ويحترق معها الزمن. الشمس والزمن يحترقان. يحترقان. الشمس وكل الساعات على الأرض. تحترق. انصهرت كل الأشياء في عقله، لتصبح شيئًا واحدًا. أخيرًا بعد سنوات طويلة حملته فيها الأرض على ظهرها، ودقائق قصيرة حمله فيها النهرعلى ظهره، عرف لماذا كان عليه أن يتوقف تمامًا عن الحرق.

فالشمس تحترق كل يوم، وتحرق معها الزمن. العالم يجري بسرعة ويدور حول محوره، بينما الزمن مشغول بحرق الأيام ومن فيها دون أن يدري. لذا، فإذا قام هو ورجال الإطفاء بحرق الأشياء، بينما قامت الشمس بحرق الزمن، فإن معنى ذلك أن كل شيء قد احترق! كل شيء!

يجب أن يتوقف أحد الطرفين عن الحرق، إما الشمس، أو رجال

الإطفاء. وبما أن الشمس بالتأكيد لن تتوقف عن الحرق، فليتوقف مونتاج وهؤلاء الناس الذين عمل معهم حتى ساعات قليلة مضت. في مكان ما من العالم يجب أن يبدأ الاحتفاظ بالأشياء وتدوينها بأية طريقة. . . في كتب، في سجلات، أو حتى في ذاكرة الناس. بأية طريقة من الطرق بحيث تكون بعيدة عن الحشرات والأسماك والعتة التي تأكل الورق، والصدأ والعفن والرجال الذين يحملون أعواد الثقاب. لكم امتلأ العالم بالحرائق بأشكالها المتعددة! والآن جاء دور نقابة عمال الأسبيستوس(١)، وعليهم أن يبدأوا بالعمل فوراً.

شعر بأن كعبيه يلمسان الأرض، شعر بالحصى والصخور تحت قدميه. كان النهر قد أوصله إلى الشاطئ.

نظر إلى ذلك المخلوق الأسود الهائل، الذي ليس له عينان، ولا شكل له، وليس به أي ضوء. ليس له غير الحجم الممتد لآلاف الأميال، دون رغبة في التوقف، والهضاب المعشبة والصحارى التي تنتظر مجيئه.

تردد قليلاً. لم يكن يريد أن يبتعد عن الماء وما يبعثه تدفقه من طمأنينة. كان يتوقع أن يرى الكلب الآلي على الشاطئ، أو أن تهب عاصفة من الطائرات الهليكوبتر فجأة فتقتلع مع على الشاطئ من أشجار. لكن هذا الشاطئ لم يكن عليه إلا رياح خريفية عادية تعلو وتهبط كأنها نهر آخر. لماذا لم يكن كلب الصيد يجري؟ لماذا لم تكن هناك مطاردة؟ حاول «مونتاج» أن يسمع أيًا من تلك الأصوات. لكنه لم يسمع أي شيء.

---

(١) الحرير الصخري: معدن لا يحترق ولا يوصل الحرارة.

ميلي؟ كل هذه القرى. اسمعي. لا يوجد أي صوت. الصمت في كل مكان يا ميلي. هل يا ترى كان من الممكن أن تتحملي هذا الصمت؟ كنت ستصرخين في الصمت كي يتوقف! كي يصمت! ميلي... ميلي. شعر بالحزن.

لم تكن «ميلي» هناك. ولم يكن كلب الصيد هناك. لم يكن هناك سوى رائحة القش الجافة الآتية من أحد الحقول البعيدة. شدت هذه الرائحة «مونتاج»، وشجعته أن يضع قدميه على أرض الشاطئ. ذكرته تلك الرائحة بمزرعة زارها عندما كان صغيراً جداً، كانت مرة من المرات القلائل التي اكتشف فيها أنه في مكان ما من العالم، خلف أحجبة الوهم السبعة، خلف جدران الصالونات والخندق الصفيح الذي يحيط بالمدينة، توجد أبقار تمضغ الحشائش، وخنازير تجلس في ماء دافئ في الظهيرة، وكلاب تجري خلف ماشية بيضاء في الهضاب.

والآن شجعته رائحة القش وحركة المياه على أن ينام بعيداً عن صخب الطريق السريع. وجد مخزناً للحبوب خلف منزل ريفي، فنام هناك تحت طاحونة قديمة صوتها كصوت السنين المنقضية. نام طيلة الليل فوق التبن على رف مرتفع من المخزن. نام على أصوات الحيوانات والحشرات والأشجار تأتيه من بعيد. كان يشعر بأي حركة أو صوت وسط ذلك الهدوء والصفاء.

في وسط الليل خيِّل إليه أنه يسمع صوت أقدام تتحرك. يجلس وينتظر. فيختفي الصوت. يسترخي مرة أخرى ثم ينظر من النافذة في ذلك الوقت المتأخر من الليل، فيرى الأنوار وقد أُطْفِئت في المنزل الريفي، وفي إحدى النوافذ المظلمة تقف امرأة صغيرة وجميلة تضفر شعرها. لم يكن يستطيع أن يرى وجهها، لكنه توقع أن تكون شديدة

الشبه بتلك الفتاة التي عرفها منذ زمن بعيد، فيما يمكن تسميته الآن بماضيه البعيد. . . البعيد جداً. تلك الفتاة التي كانت تستطيع التنبؤ بحالة الجو، وكانت تقرأ ما تقوله زهور الهندباء عندما تحكُّها على ذقنك. اختفت الفتاة من النافذة المظلمة وظهرت بعد قليل في الطابق الأعلى في حجرتها التى ينيرها ضوء القمر. وبينما علا صوت الموت. . . صوت الطائرات النفاثة تشق السماء إلى قطعتين سوداوتين خلف الأفق، كان هو يتمدد في هدوء في مخزن التبن، يشاهد النجوم العجيبة المطلة على حافة العالم وهي تجري هاربة من لون الفجر الناعم.

لم يكن بحاجة إلى النوم في الصباح، فقد كانت الروائح والأصوات في تلك الليلة الريفية الرائعة تهدهد روحه لتنام بينما كانت عيناه مفتوحتين، وفمه مستقراً على نصف ابتسامة.

كانت المفاجأة الكبرى تنتظره أسفل سلم المخزن. نزل بحرص في ضوء الفجر الوردي، وقد شعر بالخوف من فرط إحساسه بالكون من حوله. وقف طويلاً أمام المفاجأة وأخيراً انحنى ليلمسها. كوب من اللبن البارد وبضع تفاحات وثمار كمثرى كانت في انتظاره أسفل السلم.

كان هذا هو بالتحديد ما يحتاج إليه في تلك اللحظة. علامات تطمئنه أن العالم الواسع سوف يقبله ويمنحه الوقت الذي يحتاجه للتفكير في كل ما يستحق التفكير.

كوب لبن، وتفاح، وكمثرى.

بمجرد أن خرج من النهر، هجمت عليه الأرض وانحسر الماء بعيداً.

سحقته ظلمة الليل ومشاهد القرية وملايين الروائح الجديدة تحملها الريح فيصبح جسمه بارداً كالثلج. غمرته النجوم من فوقه كالشهب المشتعلة، فتمنى لو غطس مرة أخرى في النهر ويتركه يهدهده ويحمله إلى مكان آخر. كانت تلك الأرض الداكنة تهيمن عليه بقوة كأنها موجة عاتية. تذكر عندما كان يسبح في البحر في طفولته وصفعته موجة ـ أقوى موجة من الممكن أن يتذكرها إنسان ـ لم يعرف من أين ولا كيف جاءت، لكنه يعرف أنها طرحته في طين مِلْح وظلام أخضر، وأن الماء كان يحرق أنفه و فمه، ويهيج معدته. يومها صرخ «الماء فوق الاحتمال!».

كانت الأرض فوق الاحتمال.

سمع همسًا يأتي من خلف الحائط الأسود الذي أمامه. شيء ما له عينان. هل لليل عينان؟

إنه كلب الصيد!

بعد كل هذا الجري والهروب والعرق والغرق. سافرت بعيداً، وبذلت الجهد المستحيل، وظننت أنك في مأمن وتنهدت في رضا وراحة وتمشيت على الأرض لتجد أمامك. . .

ـ كلب الصيد!

أطلق «مونتاج» صرخة واحدة أخيرة، فما حدث لا يمكن أن يحدث لرجل واحد.

اختفى الشيء في لحظة. اختفت عيناه تمامًا، وانهمرت أوراق الشجر الجافة كأنها المطر.

وقف «مونتاج» وحيداً في الخلاء.

غزال بري.

شم رائحة كالمسك مختلطة برائحة دم الغزال وأنفاسه... انبعثت في كل مكان وكأنها خليط من الحبهان والطحالب وشجيرات العطر يغمره في تلك الليلة الرهيبة التي تذهب فيها الأشجار ثم تجيء، تذهب ثم تجيء مع كل دقة من دقات قلبه.

هناك بالتأكيد أكثر من بليون ورقة شجر على الأرض. غاص بأقدامه في تلك الأوراق التي انطلقت منها رائحة كالقرنفل الساخن والأتربة الدافئة. وروائح أخرى كثيرة! رائحة كالتي تنبعث من البطاطس بعد قطعها، حيث تكون طازجة وباردة وبيضاء من أثر ضوء القمر الذى يكسوها طوال الليل. ورائحة كرائحة المخلل، وأخرى كرائحة البقدونس على المائدة، وأخرى صفراء خافتة كرائحة المستردة، وقد اختلطت برائحة زهور القرنفل في حديقة الجيران.

التصقت إحدى الشجيرات به كأنها طفل صغير. تحسسها بيده، ثم شم أصابعه فوجد فيها رائحة العرقسوس.

وقف وهو يتنفس. كلما تنفس، توغلت الأرض في رئتيه بكل روائحها وكل تفاصيلها. لم يعد خاوياً. كان قد امتلأ أكثر مما ينبغي. كانت الأرض تفيض عليه بالكثير، وسوف يظل لديها دائماً ما تفيض به. مشى وسط موجة غير عميقة من أوراق الشجر، وفي وسط هذا الجو الجديد بالنسبة له، كان هناك شيء مألوف! ارتطمت قدمه بشيء ما أصدر رنة مكتومة. مد يده وحركها ياردة إلى اليمين، وأخرى إلى اليسار. إنه خط السكك الحديدية. الخط الذي كان يأتي

من المدينة في الماضي لكنه الآن مهجور ومكسوٌّ بالصدأ في تلك الأحراش والغابات.

هذا هو الطريق إلى أي مكان يريده. هذا هو الشيء الوحيد الذي يألفه. السحر الذي قد يحتاج إليه قليلاً. يحتاج أن يلمسه، ويشعر بوجوده تحت قدميه وهو يتحرك فوق تلك الأوراق والحشائش وبين بحور الروائح والأحاسيس واللمس وهمس الطبيعة.

مشى فوق الخط الحديدي.

كان متأكداً من أن قدمي «كلاريس» وطأتا المكان نفسه في يوم من الأيام. شعر بالدهشة، فكيف له أن يتأكد من ذلك؟

وبعد نصف ساعة، وبينما كان يشعر بالبرد، ويتحرك في حرص فوق الخط الحديدي، أحس بكل جزء من جسده، أحس بوجهه وبفمه وبعينيه وقد امتلأت بالسواد. أحسَّ بأذنيه وقد امتلأتا بالأصوات، وشعر بوخز أشواك يوقظ قدميه، أخيراً رأى ناراً على مرمى البصر.

كانت النار تروح وتجيء... ثم تروح وتجيء، وكأنها عين تغمز. خشي أن يستمر في السير فتطفئ أنفاسه النار، ولكنها لم تنطفئ. كان قد وصل منهكاً لطول الطريق. كان يحتاج إلى خمس دقائق حتى يصل قريباً منها. وأخيراً وقف لينظر إليها من وراء حجاب. تلك الحركة الرقيقة، ذلك الأبيض والأحمر. نار عجيبة حقاً، فهي بالنسبة له تعني شيئاً جديداً ومختلفاً.

لم تكن تلك النار تحرق، وإنما كانت تدفئ.

رأى أيادي كثيرة تطلب الدفء. أيادي بلا أذرع، فقد اختفت

الأذرع في الظلام. فوق الأيادي كانت الوجوه لا تتحرك من تلقاء ذاتها، وإنما تحركها النار، ويهزها ويشكلها ضوؤها.

لم يكن يعلم أن النار يمكن أن تبدو هكذا. لم يكن يعلم أنها من الممكن أن تعطي كما تأخذ. حتى رائحة تلك النار كانت مختلفة.

لم يعرف كم من الوقت مضى وهو واقف هكذا. راودته فكرة سخيفة و منعشة في فقد رأى نفسه كحيوان من الغابة انجذب إلى النار. شعر كأن له فروًا وحوافر وقرونًا ودماء إن أريقت على الأرض تنبعث منها رائحة الخريف. وقف طويلاً يستمع لطقطقة حنون تنبعث من قلب النيران.

كان هناك سكون حول النار. وكان ذلك السكون ينبعث من الوجوه. كان أمامهم متسع من الوقت. . . وقت كاف ليجلسوا تحت الأشجار، بجوار تلك الخطوط الحديدية الصدئة، ويتأملوا العالم ويقلبوه أمام أعينهم، وكأنه قطعة حديد يمسكونها بأيديهم ويشكلونها في قلب النار على الهيئة التي يريدون. لم تكن النار وحدها هي المختلفة، وإنما السكون أيضًا كان مختلفًا، كان سكونًا خاصًا يهتم بالعالم كله ويحتويه.

بعد ذلك بدأت الأصوات. . . كانوا يتكلمون، لكنه لم يستطع أن يسمع ما تقوله الأصوات، التي راحت تعلو وتخبو، وكأنها هي الأخرى تقلب العالم وتنظر إليه من كل الوجوه. كانت الأصوات تعرف كل شيء. . . تعرف الأرض والأشجار والمدينة التى تقبع هناك على النهر في آخر الخطوط الحديدية. كانت الأصوات تتكلم في كل شيء، وعن كل شيء. لم يكن هناك شيء تجهله هذه الأصوات، بدا

ذلك جليًا من إيقاعها وحركتها ومن تناوبها المستمر بين الفضول والتعجب.

نظر واحد من الرجال إلى «مونتاج»، فرآه للمرة الأولى أو ربما للمرة السابعة، ثم نادى:

«حسنًا، تستطيع أن تأتي الآن!».

رجع «مونتاج» خطوة إلى الوراء في الظل.

«لا تقلق. مرحبًا بك هنا معنا».

مشى «مونتاج» ببطء نحو النار. كان الرجال الخمسة الجالسون حولها كانوا يرتدون بنطلونات زرقاء داكنة من القطن وقمصانًا من نفس اللون وسترات. لم يجد ما يقوله لهم. قال له رجل بدا وأنه قائد تلك المجموعة الصغيرة:

«اجلس. أتريد قليلاً من القهوة؟».

نظر «مونتاج» إلى المشروب الداكن اللون. كان البخار ينبعث منه بينما كان الرجل يصبه في كوب صفيح متهالك ثم يقدمه له في ثوان. رشفه مونتاج بتحفظ، وشعر بأن الرجال ينظرون إليه في فضول. لسّع المشروب شفتيه، ولم يكن ذلك سيئًا. كان كل الرجال من حوله ملتحين، وكانت لحاهم نظيفة ومهندمة. كانت أيديهم أيضًا نظيفة. كانوا قد وقفوا وكأنهم يرحبون بضيف، ثم جلسوا مرة أخرى. رشف مونتاج القهوة، ثم قال:

«أشكركم... أشكركم شكرًا جزيلاً».

«لا داعي للشكر يا مونتاج. أهلاً ومرحبًا بك. أنا اسمي جرار».

أمسك الرجل بزجاجة بها سائل لا لون له، ثم قال: «اشرب هذا أيضًا، سوف تغير من التركيبة الكيميائية لعرقك. في خلال نصف ساعة من الآن سوف تصبح رائحتك كرائحة رجلين آخرين. وسيعجز كلب الصيد الذي يتعقبك عن فك الشفرة».

شرب «مونتاج» السائل المر. قال جرار:

ـ ستصبح رائحتك عفنة كرائحة القط البري، ولكن لا بأس في ذلك!

ـ كيف عرفت اسمي؟

أشار «جرار» برأسه إلى تليفزيون صغير يعمل بالبطارية وضعوه بجانب النار، ثم قال:

ـ لقد كنا نتابع المطاردة. توقعنا أن تتجه جنوبًا بمحاذاة النهر. وعندما سمعنا أنك ضائع في الغابة كغزال يترنح من الخمر، قررنا ألا نختبئ كعادتنا. ساعة أن عادت كاميرات الهليكوبتر إلى المدينة، توقعنا أنك في النهر. هناك شيء مضحك في هذا الموضوع. فالمطاردة ما زالت مستمرة، ولكن في الاتجاه العكسي.

ـ في الاتجاه العكسي؟

ـ نعم. دعنا نتأكد.

ضرب «جرار» بإصبعه الشاشة الصغيرة. كان الإرسال بشعًا. كان الجهاز ينتقل بين الأيدي في الغابة... كتلة من الألوان والأصوات المشوشة. صرخ صوت ما:

«ما زالت المطاردة مستمرة شمالي المدينة! والآن تتجمع طائرات الهليكوبتر فوق شارع ٨٧ في إلم جرار؟».

هز «جرار» رأسه:

ـ إنهم كذابون. لقد هربت منهم في النهر. لكنهم لا يعترفون بذلك. لم يكن بوسعهم أن يحتفظوا بالمشاهدين إذا ما حاولوا أن يبحثوا عنك في النهر الملعون. كانوا يحتاجون لأيام وليال لكي يعثروا عليك. وهم يريدون إنهاء العرض نهاية سريعة. فرقعة! ولهذا فها هم يبحثون الآن عن كبش فداء يوفر لهم تلك الفرقعة. انظر. سوف يقبضون على «مونتاج» في الخمس دقائق القادمة!

ـ ولكن كيف؟

ـ انظر.

كانت الكاميرا تتأرجح في بطن الهليكوبتر، و الآن يتم إنزالها إلى الشارع الخالي. همس «جرانجر»:

ـ هل ترى هذا الرجل؟ إنه أنت. ها هو الضحية يسير في آخر الطريق. هل تتابعون كاميراتنا وهي تطارده؟ نحن نخلق المشهد. يا للتشويق! لقطة من بعيد. الآن. . . في هذه اللحظة قرر رجل مسكين أن يتمشى في هذا الطريق. شيء نادر. شيء غريب. تأكد أن الشرطة تحتفظ بملفات لهؤلاء المجانين. . . هؤلاء الرجال الذين يتمشون في الصباح من أجل المشي لذاته، أو لأنهم مصابون بالأرق. بصرف النظر عن السبب، فالشرطة تحتفظ باسمه منذ شهور، بل ربما منذ سنوات على سبيل الاحتياط. ربما يحتاجون إليه، وها هو ينفعهم اليوم نفعًا كبيرًا. ها هم يحتاجون إليه اليوم لحفظ ماء الوجه. يا إلهي! انظر!

انحنى الرجال المتحلقون حول النار إلى الأمام. على الشاشة كان

الرجل يسير وينحرف يمينًا، بينما كان كلب الصيد الآلي يتبعه. فجأة أرسلت طائرات الهليكوبتر عشرات الأعمدة الضوئية اللامعة التى أحاطت بالرجل وكأنها قفص كبير، وصاح المذيع:

«ها هو مونتاج يسقط! انتهت المطاردة!».

وقف الرجل البريء مذهولاً، احترقت في يده سيجارة. أخذ ينظر في ذهول إلى كلب الصيد، يبدو أنه لم يكن رآه من قبل. نظر إلى السماء، وسمع صفارات الإنذار تعوي. كانت حركة الكاميرا سريعة. تركزت على الكلب الآلي الذي قفز في الهواء في توقيت رائع وإيقاع مبهر. كانت الإبر تخرج منه. لكنها توقفت لدقيقة وكأنها أرادت أن تترك للمشاهدين فرصة للاستمتاع بكل شيء: نظرة البراءة في عينى الضحية. الطريق الخالي تمامًا من المارة، والحيوان الحديدي وهو يشم الهدف. صاح صوت آتى من السماء قائلاً: «لا تتحرك يا «مونتاج»!»

أجهزت الكاميرا على الضحية في نفس اللحظة التي أجهز فيها الكلب الآلي عليه. الكاميرا والكلب أمسكا معًا بالضحية، كأنهما معًا شبكة عنكبوت حديدية رهيبة. صرخ الرجل. صرخ. صرخ!

أطفئت الأنوار.

صمت.

ظلام.

صرخ مونتاج في الظلام وأدار وجهه بعيداً.

صمت.

ظل الرجال حول النار صامتين. كانت وجوههم قد خلت من أي

تعبير. قطع الصمت صوت صادر من الشاشة المظلمة يقول: «انتهت رحلة البحث عن «مونتاج». مات «مونتاج». انتقمنا لجريمته الشنيعة ضد المجتمع!».

ظلام.

«ننتقل الآن إلى صالة «سكاي» في فندق «لوكس»، حيث نقضي نصف ساعة مع برنامج «قبيل الفجر»، وهو برنامج...».

أغلق «جرانجر» التليفزيون، وهو يقول:

ـ لم يقتربوا بالكاميرا من وجه الرجل. هل لاحظت ذلك؟ حتى أقرب أصدقائك لن يستطيعوا أن يعرفوا أنك لست بالصورة. فقد أخرجوا المشهد بصورة تسمح للخيال بأن يلعب دورًا كبيرًا. اللعنة! اللعنة!

لم يقل مونتاج أي شيء، لكنه كان يرتعد، وقد تسمَّرت عيناه على الشاشة السوداء. لمس «جرانجر» ذراع «مونتاج» ثم قال: «مرحبًا بك عائدًا من عالم الأموات». هز مونتاج رأسه. فاستطرد «جرانجر» يقول:

ـ دعني أعرفك إلى بقية الرفاق الآن. هذا «فريد كليمنت» كان منذ سنوات طويلة يشغل منصب أستاذ كرسي «توماس هاردي» في جامعة «كيمبردج»، وذلك قبل أن تتحول لكلية للهندسة الذرية. أما هذا الرجل فهو د. سيمونز من جامعة «كاليفورنيا ـ لوس أنجلس»، وكان متخصصًا في أعمال الفيلسوف «أورتيجا» إي جاسيت. أما بروفيسور «ويست» الذي أمامك هذا، فكان يقوم بالتدريس والبحث في جامعة «كولومبيا»، وقدم الكثير في مجال علم الأخلاق، وهو فرع من فروع

المعرفة أصبح أثريًا الآن. أما القس «بادوفر» فكان يعظ الناس في الكنيسة منذ حوالي ثلاثين عامًا مضت، لكنه بين أحد وآخر فقد كل مستمعيه الذين لم تعجبهم آراؤه، ولهذا فإنه انضم إلينا منذ فترة. وأخيرًا اسمح لي أن أعرفك بنفسي: أنا مؤلف كتاب: «أصابع في القفاز: العلاقة بين الفرد والمجتمع» وها أنا ذا! مرحبًا بك يا «مونتاج»!

سكت «مونتاج» طويلاً وأخيرًا قال:

ـ أنا لا أنتمي إليكم. أنا عشت أحمق طوال حياتي.

ـ نحن تعوَّدنا على ذلك. كلنا أخطأنا وكانت أخطاؤنا في محلها، وإلا لما تجمعنا هنا. عندما كنا فرادى، كان كل منا لا يملك إلا الغضب. عندما جاء رجل الإطفاء ليحرق منزلي، ضربته! وها أنا هارب من يومها. هل تريد أن تنضم إلينا يا «مونتاج»؟

ـ نعم.

ـ ما الذي تستطيع أن تقدمه؟

ـ لا شيء. كنت أعتقد أن معي الإصحاح الأول من سفر الجامعة[1] وربما بعضًا من سفر «رؤية يوحنا»[2] لكني اكتشفت أني فقدتهما.

ـ كان سفر الجامعة وحده يكفي. أين كنت تحتفظ به؟

أشار «مونتاج» إلى رأسه وهو يقول:

---

(١) سفر من أسفار العهد القديم.

(٢) أحد أسفار العهد الجديد.

ـ هنا .

ابتسم «جرانجر» وهو يقول :

ـ آه .

ـ ما المشكلة . ليس كافيًا ، أليس كذلك؟

ـ على العكس . كافيًا وزيادة . ممتاز .

التفت «جرانجر» إلى القس وهو يقول :

ـ هل لدينا سفر الجامعة؟

ـ واحد فقط . رجل يدعى «هاريس» في «يانجستاون» .

أمسك «جرانجر» بكتف «مونتاج» بشدة ثم قال له :

ـ تحرك بحرص . واعتن بصحتك . لو حدث «لهاريس» أي مكروه ، ستكون أنت سفر الجامعة . هل رأيت كيف زادت أهميتك في الدقيقة الأخيرة .

ـ ولكني لم أعد أذكر ما حفظت .

ـ لا ، لم تنس . لا يضيع أي شيء أبدًا . فلدينا طرق خاصة لتلميع وصيانة الذاكرة .

ـ ولكني حاولت من قبل أن أتذكر فلم أفلح .

ـ لا تحاول . ستسترجع ما حفظت عند الحاجة إليه . كل منا لديه ذاكرة فوتوجرافية ، لكننا ننفق عمرنا كله في محاولة طمس ما هو محفور بداخلها . لقد أجرى سيمونز أبحاثًا كثيرة في هذا الموضوع ، ـ واكتشف طريقة يستطيع من خلالها أي إنسان أن يسترجع ما قرأه ولو

مرة واحدة فقط. «مونتاج»، هل تحب أن تقرأ كتاب الجمهورية لأفلاطون؟

- بالطبع!

- أنا «الجمهورية» لأفلاطون. هل تحب أن تقرأ «ماركوس أوريلياس»؟ مستر «سايمونز» هو «ماركوس».

قال سيمونز: تشرفنا يا سيد مونتاج.

قال مونتاج: تشرفنا.

أكمل «جرانجر» التعارف فقال:

- أريدك أيضًا أن تلتقي «بجوناثان سويفت»، مؤلف الكتاب السياسي المدمر، رحلات «جاليفر»، أما هذا الرجل فهو «تشارلز داروين»، وهذا هو «تشوبينهاور»، وهذا أينشتين، وهذا الذي يقف إلى جواري هو «ألبرت شفايتسر»، وهو في الحقيقة فيلسوف طيب القلب جدًا. ها أنت قد تعرفت إلينا جميعًا يا مونتاج. نحن أيضًا أريستوفانيس، والمهاتما غاندي، وبوذا، و«كونفوشيوس»، و«توماس لاف بيكوك»، و«توماس جفرسون»، و«مستر لنكولن»، وإن شئت فنحن أيضًا متّى ومُرقص ولوقا ويوحنا.

ضحك الجميع، وقال «مونتاج»: ولكن هذا مستحيل؟ أجابه جرانجر:

- بل هو ما حدث بالفعل. نحن أيضًا نحرق الكتب، لكن بعد أن نقرأها ونحفظها جيدًا. نحرقها قبل أن يصل إليها أحد. وجدنا أن الميكروفيلم لن يكون عمليًا، فنحن دائمًا نرحل من مكان إلى آخر،

وكان علينا أن ندفن الأفلام في مكان ما ثم نعود إليها، وكان هناك دائمًا احتمال أن تكتشفها الشرطة وتصادرها. لهذا قررنا أن من الأفضل الاحتفاظ بالكتب في رءوس العجائز، حيث لا يمكن أن يكتشفها أحد أو يشك في وجودها. وهكذا أصبحنا قطعًا من التاريخ والأدب والقانون الدولي. بايرون، توم بين، ماكياي، والسيد المسيح نفسه... كل هؤلاء هنا. الوقت يجري، والحرب بدأت. نحن نعيش هنا، والمدينة من ورائنا، وقد تدثرت بردائها الخاص الملون بآلاف الألوان. فيم تفكر يا مونتاج؟

ـ أفكر في أنني كنت أعمى، وأنا أحاول أن أرى الأشياء بطريقتي. أزرع الكتب في بيوت رجال الإطفاء، ثم أقوم بالتبليغ.

ـ لكنك كنت مضطرًا لأن تفعل ذلك. كان من الممكن أن تنجح تلك الطريقة لو تعاون الجميع في تنفيذها. لكن طريقتنا أسهل، وهي أيضًا ـ من وجهة نظرنا ـ أفضل. كل ما نريد عمله، هو أن نحافظ على المعرفة التي سوف نحتاج إليها مستقبلاً ونحفظها جيدًا بعيدًا عن أي أذي قد تتعرض له. لا نريد أن نستفز أو نستعدي أحدًا في هذه المرحلة. فلو تعرضنا إلى الفناء فسوف تفنى معنا المعرفة، ربما إلى الأبد. نحن مواطنون مثاليون على طريقتنا: فنحن نمشي لمسافات طويلة فوق الخطوط الحديدية القديمة، وننام على الهضاب في الليل. وقد تركنا أهل المدينة وشأننا. صحيح أنهم يستوقفوننا ويفتشوننا من وقت إلى آخر، لكنهم لا يجدون معنا أي شيء يديننا. التنظيم الذي يضمنا تنظيم مرن جدًا، مطاط لأقصى درجة بل مفكك إلى حد كبير. قام بعض منا بإجراء جراحة تجميل لتغيير ملامح الوجه وبصمات الأصابع. والآن، لنا فإن الدور الذي يجب أن نلعبه دور كريه. علينا

الانتظار حتى تبدأ الحرب، وتنتهي بأقصى سرعة. بالطبع ليس لطيفًا أن نتمنى الحرب والموت، لكن بدون ذلك لن يستمع إلينا أحد، فنحن الأقلية العجيبة التي تصرخ في الخلاء. أما عندما تنتهي الحرب، فإننا ربما نستطيع أن نمد يد العون إلى العالم.

ـ لكن هل تعتقد أنهم سوف يستمعون لنا عندئذ؟

ـ إذا لم يستمعوا، سنضطر إلى الانتظار ليس إلا. سنورث الكتب شفهيًا لأطفالنا، ثم نجعلهم ينتظرون بدورهم حتى يأتي أناس مختلفون. بالتأكيد سيضيع الكثير من جيل إلى آخر، لكن ليس هناك حل آخر. فأنت لا تستطيع أن تجبر أحدًا أن يستمع لك، وإنما يجب أن يأتيك الناس من تلقاء أنفسهم يسألونك ماذا حدث؟ وما الذي زلزل العالم من تحت أقدامهم؟ لا يمكن أن يستمر إعراضهم إلى الأبد.

ـ كم عددكم؟

ـ آلاف على الطرق. . . فوق السكك الحديدية المهجورة. في مظهرنا حمقى، وفي جوهرنا مكتبات متنقلة. لم تكن لدينا خطة في البداية، وإنما كان مع كل منا كتاب يريد أن يحفظه فحفظه. وبعد فترة، حوالي عشرين عامًا، التقينا ونحن نرتحل من مكان إلى آخر، فاقترحنا ذلك التنظيم المرن ووضعنا خطة. الشيء الوحيد الذي أردنا أن نزرعه داخلنا هو فكرة أننا لسنا ذوي شأن مرموق، وعلينا ألا نغتر بأنفسنا، أو نتعالى على أي إنسان آخر في العالم. لسنا إلا أغلفة يكسوها التراب لكتب قيمة، دون ذلك لا معنى لوجودنا. بعضنا يعيش في مدن صغيرة: الفصل الأول من كتاب «والدون» لثورو[١]

---

(١) سفر من أسفار العهد القديم.

يعيش في جرين ريفر. والفصل الثاني يعيش في «ويلو فارم مين». هناك مدينة في ولاية ميريلاند يسكنها سبعة وعشرون شخصًا فقط. وبالتالي فلن تقع فوقها أية قنبلة ذرية. سكان هذه المدينة هم كل مقالات رجل يدعى برتراند راسل. فلتختار هذه المدينة وتقلب صفحات المقالات بأن تلتقي بسكانها. كل واحد منهم مجموعة من الصفحات. عندما تنتهي الحرب، في يوم ما، في عام ما، سوف تُكتب الكتب مرة أخرى. سوف يُدعى الناس واحدًا تلو الآخر ليُملي كل منهم ما في ذاكرته من الكتب، فكتب الكتب وننشرها إلى أن يأتي عصر ظلام جديد قد يجعلنا نضطر إلى إعادة الكَرّة كلها من جديد. أتعرف ما هو أفضل ما في الإنسان؟ أنه لا ييأس ولا يشمئز لدرجة تجعله يترك ما يراه مهمًا ومفيدًا ويستحق الجهد.

سأل مونتاج جرانجر: «ماذا سنفعل الليلة؟» فأجابه: «سننتظر. ونتحرك بمحاذاة النهر قليلاً على سبيل الاحتياط.» أخذ جرانجر بعد ذلك يلقي بالتراب والفضلات في النار. أخذ الرجال يساعدونه، وانضم إليهم مونتاج. هناك في الخلاء كانت كل أيادي الرجال تعمل في إطفاء النار.

وقفوا بعد ذلك على شاطئ النهر في ضوء النجوم. نظر مونتاج إلى قرص ساعته التي لا تتلف في الماء. الخامسة. الخامسة صباحًا. مر عام كامل في ساعة واحدة، وكان الفجر ينتظر خلف شاطئ النهر البعيد.

سأل «مونتاج»: «لماذا تثقون بي إلى هذا الحد؟».

تحرك رجل في الظلام.

«شكلك وحده يكفي. لم تر نفسك في المرآة مؤخرًا. إلى جانب

ذلك، فإن المدينة لم تعد تهتم بنا لدرجة أن ترسل إلينا جاسوسًا وتتكلف مطاردة معقدة لهذا الحد. فما نحن إلا مجموعة من البلهاء، تحمل رءوسهم أبياتًا من الشعر لا يمكن لمسها. نحن نعرف ذلك، وهم يعرفون ذلك، وكل الناس تعرف ذلك. ولا خطر منه طالما أن الناس في الشوارع لا تردد الماجنا كارتا[1] والدستور. وطالما أن رجال الإطفاء موجودون لمنع أي حادث قراءة منفرد هنا أو هناك. ولذلك يا مونتاج فالمدينة لا تخيفنا، وأنت بالتحديد تبدو مسكينًا.

ساروا على شاطئ النهر نحو الجنوب. حاول مونتاج أن يرى وجوه الرجال، تلك الوجوه التي كان يذكر ملامحها في ضوء النار، تكسوها خطوط الزمن وآثار الإرهاق. كان يبحث فيها عن الألمعية والتألق. . . عن العزيمة والتصميم على الانتصار في المستقبل الذي يبدو أنه لن يأتي أبدا. ربما تصور أن وجوههم لا بد أن تشتعل وتلمع بنور المعرفة التي يحملونها، ولابد أن تتوهج كما يتوهج المصباح المنير بما لديهم من علم، لكنه لم ير إلا ضوء النار في مخيماتهم. لم يكن هؤلاء الرجال مختلفين عن غيرهم من الرجال الذين ركضوا طويلاً، أو بحثوا طويلاً، ورأوا أشياء جميلة تتحطم. والآن تجمعوا في نهاية الحفل، قبل أن تُطفأ كل الأنوار. لم يكن أي منهم على يقين بأن ما يحمله في رأسه سوف يجعل كل فجر جديد في المستقبل يشع بضوء أكثر نقاء. لم يكن أي منهم على يقين بأي شيء عدا أن الكتب محفوظة خلف أعينهم الهادئة، وأنها هناك تنتظر بصفحاتها كاملة لعملائها الكرام الذين سيأتون في الأعوام المقبلة فيقلبوا الصفحات بأيد نظيفة، أو ربما بأيدٍ قذرة!

(١) أحد أسفار العهد الجديد.

أخذ مونتاج يقلب نظره بين وجوه الرجال وهم يسيرون. قال أحدهم: «لا تحكم على الكتاب من غلافه» ضحك الجميع في هدوء، وهم يسيرون جنوبًا.

سمعوا صرخة مدوية. كانت الطائرات النفاثة القادمة من المدينة قد اختفت من فوق رءوسهم قبل أن يرفعوها بوقت طويل. نظر «مونتاج» إلى أضواء المدينة الخافتة على الشاطئ الآخر من النهر، ثم قال:

ـ زوجتي لا تزال هناك في المدينة.

قال له جرانجر:

ـ يؤسفني ذلك. فالمدينة لن تكونْ على ما يرام في الأيام القليلة القادمة.

ـ الغريب أنني لا أفتقدها. شيء غريب. ليس لدي أي مشاعر من أي نوع. حتى لو ماتت ـ أدركت منذ لحظة واحدة ـ لن أحزن لموتها. هناك خطأ ما. لا بد أن لدي مشكلة ما.

قال جرانجر وهو يمسك بذراع «مونتاج» ويمشي إلى جواره ويزيح الشجيرات جانبًا حتى ييسر له المرور:

ـ اسمع. عندما كنت طفلاً توفي جدي، وكان نحّاتًا. كان أيضًا رجلاً حنونًا معطاء، لديه حب كبير طالما جاد به على العالم من حوله. شارك مثلاً في تنظيف الحي الفقير في مدينتنا، وكان يصنع لنا لعبًا لنتسلى بها، قدم ملايين الأشياء لمن حوله. كانت يداه دائمًا مشغولتين، عندما مات، اكتشفت أنني لا أبكيه، وإنما أبكي على كل الأشياء الجميلة التي كان يصنعها. بكيت؛ لأنه لن يصنعها ثانية؛ لأنه لن ينحت قطعة فنية جديدة من الخشب، ولن يربي الحمام واليمام في

حديقة المنزل الخلفية كما كان يفعل، ولن يعزف الكمان، أو يلقي النكات مرة أخرى. كان جزءًا لا ينفصل منا، وعندما مات ماتت معه كل أنشطته، ولم يكن هناك من يؤدها مثله. كان متفردًا. كان رجلاً مهمًا. لم أتجاوز صدمة فقده قط. كثيرًا ما أفكر كم من القطع الفنية لم تتشكل لأنه رحل. كم من النكات المضحكة اختفت من العالم، كم زوج من الحمام الزاجل كان من الممكن أن يرعاه. كان يشكل العالم بيديه. كان يقدم أشياء للعالم. ليلة موت هذا الرجل فقد العالم عشرة ملايين نشاط.

كان مونتاج يسير في صمت، وأخذ يهمس:

ـ ميلي. ميلي. ميلي. ميلي.

ـ ماذا؟

ـ زوجتي. المسكينة زوجتي. المسكينة ميلي. لا أستطيع أن أتذكر شيئًا واحدًا صنعته بيديها. أحاول أن أتذكر يديها فلا أراهما تعملان أي شيء. كانتا معلقتين إلى جوارها دائمًا، أو نائمتين في حجرها، أو تمسك إحداهما بسيجارة. هذا كل ما أذكره.

استدار مونتاج ونظر خلفه. سأله جرانجر:

ـ ما الذي قدمته أنت للمدينة يا مونتاج؟

ـ الرماد.

ـ وما الذي قدمه باقي الناس في المدينة لبعضهم بعضًا.

ـ الخواء.

وقف جرانجر وأخذ ينظر إلى الوراء مع مونتاج، ثم قال:

ـ كان جدي يقول: إن على كل إنسان أن يترك وراءه شيئًا. طفلاً أو كتابًا أو صورة أو منزلاً أو حائطًا بناه أو حذاء صنعته يداه، أوحديقة زرعها. . . اترك شيئًا تكون يداك قد لمسته بحيث تجد روحك مكانًا تستقر فيه عندما تموت، ينظر الناس إلى الشجرة أو الزهرة التي زرعتها فيجدونك هناك. لا يهم نوع العمل الذي تقوم به، هذا ما قاله جدي، المهم أن تلمس الأشياء فيتغير شكلها، أن تُشكلها على الشكل الذي يُشبهك، فيراك فيها من حولك بعد أن ترفع يديك. هذا هو الفرق بين الرجل الذي يقص الحشائش والبستاني الحقيقي. الأول لا يشعر الناس بوجوده بعد أن ينصرف، أما الثاني فتظل روحه في الزهور والنباتات مدى الحياة. منذ حوالي خمسين عامًا، شاهدت مع جدي فيلمًا تسجيليًا لصواريخ الفي ـ تو. هل رأيت منظر القنبلة الذرية التي تشبه عش الغراب من ارتفاع مائة ميل؟ كأنها شكة دبوس. كأنها لا شيء على الإطلاق، يحيط بها الخلاء من كل مكان. كان جدي يعيد تشغيل الفيلم عشرات المرات، كان يتمنى أن تتسع المدينة بحيث تضم إليها ما حولها من مزارع وأراض وصحار. وبهذا يتذكر الناس شكل الصحارى المقفرة، ويدركون أننا مجرد نقطة عمار في محيط من القفر، وأن الأرض التي أعطت تستطيع أن تأخذ بمنتهى السهولة، بمجرد أن تطلق زفيرًا من الرياح، أو ترسل البحر من فوقنا ليذكرنا بضآلتنا. كان جدي يقول: عندما ننسى أن الأرض الخراب تقبع في جوف الليل بالقرب منا، فإنها سوف تأتي إلينا لتذكرنا بوجودها.

التفت جرانجر لمونتاج وقال:

ـ توفي جدي منذ زمن بعيد، لكنك إذا رفعت جمجمتي فسوف تجد بصمات إبهامه في تجاويف مخي. لمست يداه مخي وشكلته. ألم

أقل لك إنه كـان نحاتًا؟ أكره المبـدأ الذي يقـول: هـكذا الحيـاة!! فنحن الذين نصنع الحياة ونشكلها. املأ عينيك بالدهشة. عش كأنك سوف تموت بعد عشر ثوان. افتح عينيك للعالم، فهو أغرب وأجمل من أي حلم صناعي. لا تطلب ضمانًا، ولا تطلب تأمينًا. ولا تكن كمن يدفن رأسه في الرمل حتى يموت. انظر!

اشتعلت الحرب وانطفأت في لحظة.

لم يسـتطع الرجـال المحيطون بمونتـاج أن يتـأكـدوا من أنهم رأوا أي شيء. ربما رأوا حـركـة في السـمـاء أو ضوءاً ينتـشـر. ربما تكون القنابل معلقة في السماء، والطائرات النفاثة على ارتفاع عشرة أميال أو خمسة أميـال أو حـتى ميـلاً واحداً، تنتظر كـالبـذور تنشرهـا على السـمـاء يد عملاقة. تنتشر القنابل في سرعة مخيفة ثم تسقط في بطء عجيب على المدينة التي تركـوها وراءهم. وبمجـرد أن أصـاب القـصف الهـدف، تم إبلاغ الطيـارين على سرعـة خمسـة آلاف ميل في السـاعة، فتـوقفت الحرب كما يتوقف صوت المنجل بعد قص الزرع والأعشاب. وانتهى الأمر بمجرد نزع فتيل القنبلة. مرت ثلاث ثوان كـاملة قبل أن تقصف القنابل سـفن العـدو. والآن فـجـأة تحطم القلب، وسـقط الجـسـد، وأصابت الدهشة الدماء وقد تحررت أخيراً في الهواء. ومات المخ حائراً وهو يرى ما كان بداخله من ذكريات قليلة تتبعثر على الأرض.

لم يكن من السهل تصديق مـا يحدث. كـان كل شيء مجرد إيماءة. رأي مـونتـاج قبـضـة حـديدية تلوح مـن بعيـد وتوقع أن يسـمـع في نفس اللحظة صوت الطائرات النفاثة تصرخ وهي تقول لا تتركوا لبنة فوق أخرى... انسفوا كل شيء... إلى الفناء... إلى الموت.

أمسك مونتاج القنابل بيديه لثانية واحدة قبل أن تسقط على المدينة

حاول أن يمسكها بعقله وبيديه ترتفعان عاجزتين في الهواء. صاح يقول لفيبر: «اجر!»، ثم صاح مخاطبًا ميلي: «اجر!». «اخرجا.. اهربا بعيدًا عن المدينة!» وكلاريس، تذكر أنها قد ماتت. كان فيبر خارج المدينة. كان هناك في مكان ما من الأودية الريفية العميقة. كان أتوبيس الخامسة صباحًا ينتقل من أرض خراب إلى أخرى أكثر خرابًا. لم يكن الخراب قد حل بعد على كل الأماكن، لكنه كان ينتظر هناك في السماء، وكان الناس يشعرون به في الهواء الذي يتنفسونه. قبل أن يقطع الأتوبيس خمسين ياردة على الطريق السريع من الممكن أن تصبح رحلته بلا معنى. يصل ليجد أرضًا خرابًا جديدة، ويصبح عليه أن ينطلق لا من محطة جديدة، وإنما من بين الركام والحطام.

وميلدريد...

اهربي... اجري!

كاد أن يراها في تلك اللحظة في غرفة فندق في مكان ما. هناك في ذلك الكسر من اللحظة و القنبلة على بعد ياردة، قدم، أو ربما بوصة من سقف الفندق، كان يراها وهي تميل إلى الأمام نحو الحوائط التي تومض باللون والحركة حيث العائلة تتكلم وتتكلم وتتكلم معها. كان أفراد العائلة يثرثرون ويهذون وينادون عليها و يبتسمون لها، دون أن يذكروا شيئًا عن القنبلة التي تبعد عنها مسافة بوصة... لا بل نصف بوصة، أو ربما تبعد الآن مسافة ربع بوصة فقط من سقف الفندق. كانت تميل نحو الحوائط وكأنها تبحث بعيون نهمة عن سر الأرق في لياليها الطويلة، وكأنها أرادت أن تسقط، أن ترتمي، أن تنغمس تمامًا في بحر الألوان الهادر، أملاً في أن تغرق في فرحة اللون المبهجة.

نزلت أول قنبلة.

«ميلدريد!».

ربما... لا أحد يستطيع أن يجزم... ربما كانت محطات البث وأشعة الضوء واللون والكلمات هي أول ما أصيب بالسكتة.

انبطح مونتاج وظل يسقط إلى أسفل وهو يري ويشعر أو ربما يتخيل أنه يرى ويشعر بالحوائط وهي تسودّ أمام ميلي، سمعها تصرخ بعد أن رأت وجهها أمامها في مرآة بدلاً من أن ترى تلك البلورة السحرية. في ذلك الواحد من المليون من الوقت المتبقي بدا وجهها فارغًا ووحيداً... لأول مرة ظهر وجهها بمفرده في الغرفة لا يلمس أي شيء، وجه جائع يأكل نفسه. وأخيراً أدركت أنه وجهها هي فنظرت بسرعة إلى السقف. في اللحظة نفسها انهار الفندق بأكمله فوقها، حملها المبنى هي وملايين الأرطال من الطوب والحديد والجبس والخشب لتلتقي في خلايا المبنى بأناس آخرين كانوا في طريقهم إلى القبو فإذا بالانفجار يتخلص منهم جميعًا بطريقته الخاصة المرعبة.

تذكرت. تشبث مونتاج بالأرض. تذكرت. شيكاغو. شيكاغو منذ زمن بعيد. أنا وميلي. هنا تقابلنا! الآن تذكرت! شيكاغو. منذ زمن بعيد.

ضربت الهزة الهواء بطول النهر وعرضه. فانكفأ الناس على وجوههم فوق بعضهم بعضًا كأحجار الدومينو. قذف الانفجار بالماء فكان يصعد في رشاشات عالية... وقذف التراب فكان يطير في الهواء، وجعل الأشجار من فوقهم تبكي بفعل الريح تهب نحو الجنوب. انكمش مونتاج وتقلص، وأغمض عينيه بقوة. فتحهما مرة واحدة فإذا به يرى المدينة تطير في الهواء. تبادلت المدينة الأماكن مع القنابل فحلت كل منهما مكان الأخرى. للحظة من تلك اللحظات

العجيبة وقفت المدينة وكأنها قد أعيد بناؤها فصار شكلها غريبًا، كانت عالية... أعلى مما كانت من قبل... أعلى من أي حلم أو محاولة للارتفاع... أعلى من قدرة سكانها على إعلاء البنيان. وأخيراً تشكلت المدينة مرة أخرى من رواسب خرسانية وشظايا من الحديد المنصهر ووقفت كأنها جدارية فنية مقلوبة توشك أن تنهار. ملايين الألوان... ملايين الأشياء الغريبة: الباب وضع في مكان الشباك، والسقف في مكان الأرض... وحائط جانبي مكان الحائط الخلفي، وأخيراً انهارت المدينة وسقطت ميتة!

جاء صوت الموت متأخراً.

كان مونتاج مستلقيًا هناك، وقد أغلق التراب عينيه، والتصقت شفتاه بخليط ندي من تراب وأسمنت. كان يلهث ويبكي وهو يقول: تذكرت... تذكرت... تذكرت شيئًا آخر. ما هو؟ نعم. جزء من سفر الجامعة. جزء من هذا الكتاب. بسرعة... الآن... بسرعة قبل أن أنساه. قبل أن ينتهي إحساسي بالصدمة، قبل أن تهدأ الريح. هنا. أخذ يردد في صمت وهو يرقد على الأرض ويرتعد. أخذ يردد الكلمات وأخذت تنساب في سلاسة من المرة الأولى. لم يسمع صوت ينادي معجون أسنان دنهام. لم يسمع إلا صوت الواعظ وهو يقف في داخل عقله ينظر إليه.

سمع صوتًا يقول: «هناك».

كان الرجال يلهثون كأسماك ترقد فوق الحشائش. تشبثوا بالأرض كالطفل يمسك بشيء مألوف لديه. وبصرف النظر عما حدث أو سوف يحدث، كانت أصابعهم مغروسة في طين الأرض. وكانوا يصرخون خشية أن تنفجر آذانهم، أو تتبعثر عقولهم. كانت أفواههم مفتوحة،

وكان مونتاج يصرخ معهم. كانوا يصيحون في وجه الريح تمزق وجوههم، وشفاههم، وتدمي أنوفهم.

راح مونتاج يشاهد التراب الرهيب يستقر والصمت الجسيم يحل بالعالم. وبينما هو يرقد هناك خيل إليه أنه يرى كل ذرة رمل وكل ورقة شجر تسقط، وأنه يسمع كل صرخة وكل نداء وكل همسة في العالم الآن. خيم الصمت على التراب الدقيق، وعلى كل ما يحتاجون إليه من سكينة لكي يتأملوا تلك اللحظة ولكي تستجمع حواسهم حقيقة ما حدث في ذلك اليوم.

نظر مونتاج إلى النهر. سوف نسير بمحاذاة النهر. ثم نظر إلى السكك الحديدية القديمة، وقال: «أو نسير في هذا الطريق. أو نسلك الطريق السريع الآن. سيكون لدينا متسع من الوقت لنستوعب الكثير. يوم ما، بعد أن نستوعبه ويرسخ في نفوسنا طويلاً سيخرج إلى النور... سيخرج بأيدينا أو على ألسنتنا. قد نخطئ في الكثير منه، لكننا سوف نصيب بالقدر الذي يكفينا ويصلح حالنا. سوف نبدأ اليوم في الرحلة وسنرى كيف يسير العالم، سوف نستمع لصوته ونرى صورته الحقيقية. أريد أن أرى كل شيء الآن. أريد أن أدخله إلى أعماقي. عندما يدخل إلى قلبي وعقلي لن تكون هناك أية علاقة بيني وبين أي من ذراته. لكن بعد قليل ستتجمع تلك الذرات وتتشكل بحيث تشبهني بل ستكون هي أنا. انظروا إلى العالم هناك... يا إلهي... يا إلهي... انظروا إليه هناك... بعيداً عني... هناك بعيداً عن وجهي. الطريقة الوحيدة التي تمكنني من لمس العالم هي أن أضعه بداخلي، وأن أجعله يجري في دمي فيدور بداخلي ألف مرة، بل عشرة آلاف مرة في اليوم. سأمسك به

حتى لا يهرب بعيداً عني. يوم ما سأمسك بالعالم بقوة. هأنا قد وضعت إصبعي فوقه، وهذه هي البداية.

سكتت الريح. لكنه لم يتحرك خطوة. وكذلك باقي الرجال. كانت الشمس تلامس الأفق الأسود بخط أحمر رقيق. كان الهواء بارداً يحمل رائحة مطر آت.

في هدوء، نهض جرانجر، أخذ يتحسس يديه ورجليه وهو يسب ويلعن دون توقف. وبين أنفاسه كانت الدموع تنهمر من فوق خديه، ثم أخذ يزحف حتى وصل إلى شاطئ النهر وأخذ ينظر عكس التيار، ثم قال بعد صمت طويل:

ـ لقد سوِّيت بالأرض. المدينة تبدو وكأنها كوم من البيكنج باودر. لقد انتهت إلى غير رجعة.

ثم بعد فترة صمت أخرى طويلة:

ـ كم ساكنًا من سكانها يا ترى تنبأ بهذه النهاية؟ وكم أصابتهم الدهشة لما حدث؟

تساءل «مونتاج» في صمت: كم مدينةً حول العالم تضيع؟ وكم مدينة في بلادنا تموت؟ مائة مدينة؟ ألف؟

أشعل أحد الرجال عود ثقاب ثم أشعل به قطعة من الورق كانت في جيبه ثم دفعها تحت الحشائش وأوراق الشجر. بعد برهة ألقى بعضًا من أغصان الصغيرة كانت مبللة بالماء فأخذت تصدر أصواتًا ثم اشتعلت أخيراً لتضطرم النار أكثر وأكثر في ذلك الصباح الباكر. أشرقت الشمس حينئذٍ وانصرف الرجال عن النظر عبر البحر. انجذبوا إلى النار

في ارتباك دون أن يتكلم أي منهم. لوّنت الشمس أقفيتهم وقد التفوا حول النار وانحنوا ليقتربوا منها.

فتح جرانجر قماشًا من المشمع كان قد لف بداخله قطعة من اللحم، ثم قال: «دعونا نأكل شيئًا، ثم نلتفت إلى الخلف ونسير عكس اتجاه النهر. الناس هناك في أمس الحاجة إلينا.» قام أحد الرجال بإعطاء جرانجر مقلاة صغيرة، وضعت فيها قطعة اللحم. بعد دقيقة بدأت قطعة اللحم ترفرف وترقص في المقلاة. وملأت حركتها هواء الصباح بنكهة شهية. أخذ الرجال يتابعون ذلك الطقس في صمت. نظر جرانجر إلى النار، ثم قال: «العنقاء».

سأله مونتاج: «ماذا تقول؟» فأجابه قائلاً:

ـ كان هناك طائر غبي يعيش قبل ميلاد المسيح. كان يحرق نفسه كل بضع مئات من السنين. كان يبني لنفسه محرقة ويلقي بنفسه في نارها حتى يتفحم. يبدو أن هذا الطائر على صلة قرابة من الإنسان. لكنه كان في كل مرة يعود للحياة مرة أخرى من تحت الرماد... يولد من جديد. ويبدو أننا نحن البشر نرتكب نفس الحماقة مرة بعد أخرى. إلا أننا نختلف عن العنقاء في شيء واحد، هو أننا نعرف مدى حماقة ما ارتكبناه. بل نعرف كل الحماقات التي ارتكبناها على مر ألف عام. وبما أننا نعرف ذلك، ونضع كل ما ارتكبناه نصب أعيننا كي نراه دائمًا، فإننا يومًا ما سوف نتوقف عن بناء المحرقة اللعينة كي نقفز بداخلها ونحترق. في كل جيل سيكون هناك أناس أكثر يحملون كمًا أكبر من الذكريات.

رفع جرانجر المقلاة من فوق النار، ثم ترك اللحم يبرد قليلاً. أكل الرجال ببطء وهم يفكرون. بعد ذلك قال جرانجر:

ـ هيا بنا. فلنسر عكس اتجاه النهر. ودعوني أذكركم بشيء مهم. أنتم لستم أكثر أهمية من الآخرين. لا تمتازون عنهم في شيء. ربما تفيد الأمانة التي نحملها شخصًا ما. ولكن، تذكروا أن الكتب كانت بين أيدينا قديمًا ـ نحن معشر البشر ـ و لم نعمل بما كان فيها. بل انشغلنا نصبّ اللعنات على الموتى. وانطلقنا نبصق على قبور المساكين الذين سبقونا إلى الموت. والآن اعلموا أننا سوف نقابل أشخاصًا كثيرين يعانون من الوحدة في الأسبوع المقبل، بل الشهر المقبل أو السنة المقبلة. وإذا سأل أحدهم أيًا منكم عما نفعل، فلنتفق على أن نقول: نحن نسترجع الذكريات. وبهذا نفوز في آخر المطاف. يومًا ما سيكون لدينا من الذكريات ما يجعلنا نأتي بحفّار رهيب... أكبر حفّار في التاريخ. ونحفر أكبر مقبرة على مر العصور، فنلقي بالحرب في هوّتها، ثم نهيل عليها التراب. أما الآن فدعونا أولاً نبني مصنعًا للمرايا، وننشر المرايا في كل مكان في العام القادم، ولينظر كل منا طويلاً في المرآة.

انتهوا من الأكل ثم قاموا بإخماد النار. كان الصباح يتلألأ في كل مكان من حولهم وكأنه مصباح وردي قد ازداد توهجًا. فوق الشجر عادت الطيور التي كانت قد هربت إلى أعشاشها.

بدأ مونتاج يسير، وبعد لحظة شعر أن بقية الرجال يسيرون خلفه نحو الشمال. شعر بالدهشة، وتقهقر قليلاً كي يدع جرانجر يتقدمه، إلا أن جرانجر نظر إليه وأومأ برأسه ليظل مونتاج في المقدمة. تقدم مونتاج. نظر إلى النهر، ثم إلى السماء وإلى السكك الحديدية الصدئة المفضية إلى المزارع، و الحظائر المملوءة بالقش، إلى حيث يمضي الهاربون من المدينة ليلاً.

كانت أمامه رحلة طويلة مشيًا على الأقدام، من الصباح الباكر

وحتى الظهيرة. كان الرجال صامتين، لأنهم يفكرون في كل شيء، ويحاول كل منهم أن يسترجع ما حفظه عن ظهر قلب. ربما يبدءون في الكلام بعد أن تمر بضع ساعات من الصباح، وعندما تعلو الشمس في السماء فتدفئ أجسادهم. ربما يبدأ كل منهم في استرجاع ما حفظه، كي يتأكد من وجوده، ويطمئن أن ما يحمله لا يزال في مأمن داخل الذاكرة. وبالفعل سمع مونتاج الكلمات تتحرك في بطء، وأسطر الكتب تنضج على الألسنة الدافئة. ولكن ماذا سيقول حين يجيء دوره؟ ما الذي يستطيع أن يقدمه في يوم كهذا؟ في رحلة كهذه كي يخفف من عنائها؟ كل شيء بميعاد[1] نعم... ميعاد للانهيار وميعاد للبعث. نعم ميعاد للصمت وميعاد للكلام. شعر أنه مستعد، ولكن هل من مزيد؟ نعم تذكر شيئًا... تذكر شيئًا:

«على كل من جانبي النهر كانت هناك شجرة. تثمر اثنى عشر نوعًا من الفاكهة، وتؤتي أكلها كل شهر. وفي أوراق كل شجرة شفاء للناس».

فكر مونتاج أن يدّخر هذا الاقتباس إلى وقت الظهيرة. نعم إلى وقت الظهيرة... عندما نصل إلى المدينة.

---

(١) اقتباس من سفر الجامعة ٣: ١.

ملاحق

كلمة أخيرة

لم أكن أعلم أنني كنت في واقع الأمر أكتب رواية بالعملات المعدنية! ففي ربيع عام ١٩٥٠ كلفني الأمر تسعة دولارات، وثمانين سنتًا من العملات المعدنية كي أنتهي من المسودة الأولى لرواية : «رجل النار» والتي أصبحت فيما بعد «فهرنهايت ٤٥١» . طوال حياتي - منذ عام ١٩٤١ ، وحتى ذلك التاريخ - كنت أكتب كل مؤلفاتي في جراج منزل الأسرة إما «فينيس» أو في «كاليفورنيا» (ليس لأن هذا المكان كان هو الأفضل بالنسبة لي، ولكن لأننا لم نكن ميسوري الحال) بعد ذلك كنت أكتب خلف المنزل المتحرك الذي بدأت فيه تكوين أسرة مع زوجتي مارجريت، ثم في جراج منزلنا فيما بعد.

لكنني توقفت عن العمل في الجراج بسبب طفلتيّ اللتين كانتا تصران على أن تأتيا من الباب الخلفي للجراج فتقفان هناك خلف الزجاج ، تنقرانه بأيديهم الصغيرة وتغنيان لكي تلفتا انتباهي. كان على ذلك الأب أن يختار : إما أن يستمر في كتابة الرواية ، أو أن يلعب مع الصغيرتين . كان اختياري بالطبع هو أن ألعب ، مما شكل تهديدًا على دخل الأسرة. كان لا بد من استئجار مكتب لي، وهو ما لم يكن باستطاعتنا من الناحية المادية.

أخيراً توصلت للمكان المناسب: غرفة بها آلات كاتبة للإيجار في قبو مكتبة جامعة كاليفورنيا بولاية لوس أنجيليس. في خطوط منتظمة، اصطفت آلات كاتبة من طراز «رمنجتون» أو «أندروود» تعمل بالعملات المعدنية: «دايم» واحد لكل نصف ساعة. كان عليك فقط أن تدخل «الدايم» فتبدأ الساعة تدق في فزع، وتبدأ أنت أيضًا في العمل في جنون قبل أن تنتهي نصف الساعة. وهكذا فقد دفعني الأطفال إلى خارج المنزل، ودفعني الميقاتي الميكانيكي في الآلة الكاتبة إلى السرعة الجنونية في نقر مفاتيح الحروف. كان الوقت فعلاً من ذهب! ولهذا فقد انتهيت من المسودة الأولي للرواية تقريبًا في تسعة أيام. كنت قد كتبت ٢٥ ألف كلمة وهو نصف عدد الكلمات في النسخة النهائية للرواية.

وبين استثمار العملات والدقائق، والفزع إذا ما انحشرت ورقة داخل الآلة الكاتبة (فبهذا تضيع دقائق غالية!) وبين رفع أوراق ممتلئة ووضع أوراق خالية، كنت أيضًا أسير في المكتبة التي فوق القبو. كنت أسير هادئًا هائمًا في حب الكتب، في الطرقات بين الأرفف، ألمس الكتب أحيانًا، أسحب مجلداً، أفتحه، أقلب صفحاته، ثم أعيده إلى مكانه. أغوص في تلك اللآلئ التي تقوم عليها المكتبات. ياله من مكان غريب؟ أليس غريبًا أن تختار مكتبة لتكتب بداخلها كتابًا عن حرق الكتب في المستقبل؟!

كفانا حديثًا عن الماضي. ماذا عن «فهرنهايت ٤٥١» في وقتنا الحاضر؟ هل تغيرت أفكاري عن تلك الأفكار التي حدثتني بها هذه الرواية عندما كنت كاتبًا ناشئًا؟ إذا كان المقصود بالتغيير هو زيادة حبي للكتب والمكتبات، فالإجابة «نعم»! «نعم» عالية آتية من كل الأرفف ومن ذرات التراب الدقيقة على وجه أمين المكتبة. منذ أن كتبت هذا

الكتاب، وأنا منشغل بالكتابة والكتاب: ألفت قصصًا وروايات ومقالات وقصائد عن الكتاب أكثر مما ألفها أي كاتب آخر. كتبت قصائد عن ميلفل، وعن إميلي ديكنسون، وعن هوثورن، وبو، وإدجار رايس بيروز. ومن بين ما كتبت مقارنة بين شخصية البحار غريب الأطوار عند كل من ميلفل وجولز ڤرن. ألفت قصائد عن العاملين في المكتبات، وقمت على الورق برحلات مع كتابي المفضلين عبر البراري والغابات. كنت كثيراً ما أمضي الليل أنا و ميلفل نشرب سويًا ونتناقش، ونشرب ونحكي. نصحته في إحدى قصائدي أن يظل بعيداً عن البر، فالبحر هو ملعبه. وفي أحد مؤلفاتي حولت برنارد شو إلى إنسان آلي كي أستطيع أن أهرب معه في رحلة طويلة على ظهر سفينة فضاء إلى كوكب ألفا قنطاوروس البعيد. وهناك أمتع أذناي بقراءته للمقدمات التي ألفها. كذلك قمت بتأليف قصة آلة الزمن كي أعود إلى الماضي وأجلس بجوار «وايلد» أو «ميلفل» أو «بو» بينما يستلقي أحدهم على فراش الموت، فأحكي له عن حبي وأبعث في قلبه الدفء والسعادة. أنا مجنون، بل أنا الجنون نفسه عندما يتعلق الأمر بالكتاب، أو بالمكتبات ذلك المستودع الرائع الذي تركوا لنا فيه عقولهم لنعيش عليها.

مؤخراً، انتهزت فرصة وجود مسرح الأستوديو في لوس أنجيليس لأستدعي جميع شخصيات «فهرنهايت ٤٥١» من عالم الظل. سألتهم جميعًا السؤال نفسه - «مونتاج»، و«كلاريس»، و«فيبر»، و«بيتي» - ما الجديد؟ ما ذا لديكم الآن بعد مرور سنوات طوال منذ أن التقينا عام ١٩٥٣؟

أنا سألتهم. وهم أجابوا على سؤالي.

كتبوا مشاهد جديدة، وكشفوا عن مناطق مجهولة لم تكن قد ظهرت من قبل في نفوسهم ولا في أحلامهم. وجاءت النتيجة: مسرحية من فصلين، عرضت على المسرح وحققت نجاحًا كبيرًا، وامتدحها أغلب النقاد.

كان «بيتي» أكثر الشخصيات إبهاراً لي في إجابته عن سؤالي له: كيف بدأ الأمر؟ كيف اتخذت قراراً بأن تصبح مديراً لفرق الحرق؟ كيف استطعت أن تحرق الكتب؟ جاءتني إجابة «بيتي» المدهشة في مشهد اصطحب فيه «مونتاج» إلى شقته. بمجرد أن دخلا فوجئ «مونتاج» بالآلاف المؤلفة من الكتب تغطي جدران مكتبة سرية في شقة مدير الحرائق! التفت «مونتاج» وهو يصرخ في وجه رئيسه ثم قال:

«كيف وأنت مدير الحرائق؟ كيف تملك كتبًا وتحتفظ بها في شقتك؟» أجاب بيتي على هذا السؤال ببرود شديد وابتسامة باهتة:

- امتلاك الكتب لا يعد جريمة، الجريمة هي قراءتها. صحيح أنا أملك الكتب ولكني لا أقرؤها أبدًا.

كان «مونتاج» يشعر بالصدمة وهو يستمع إلى شرح« بيتي».

- أترى الروعة يا «مونتاج»؟ لا أقرأ أيًا من هذه الكتب. لا أقرأ فصلاً واحداً، ولا صفحة واحدة، ولا مقطعًا واحداً. إنني أستمتع بتلك المفارقة. كل هذه الكتب، ولا أقرأ منها شيئًا. أدير ظهري لهذا الكمّ الهائل وأقول: لا، لن أقرأ. كمن يمتلئ منزله بالنساء الجميلات، ويقرر ألا يلمس أيًا منهن وهو راض ومبتسم. أرأيت أنني لست مجرمًا. أما إذا ضبطتني متلبسًا بقراءة أيٍّ من هذه الكتب، فلك أن تبلغ عني. هذه المكتبة كغرفة نوم بيضاء لعذراء عمرها اثنا عشر عامًا تنام في

هدوء في ليالي الصيف. هذه الكتب تموت على الأرفف. لماذا؟ لأنني أمرت بذلك. لا أسمح لها بالحياة. لا أمد لها يداً ولا عيناً ولا لساناً. لا تختلف الكتب بالنسبة لي عن التراب.

اعترض «مونتاج» على هذا الكلام قائلاً:

- لا أدري كيف تستطيع أن تقاوم . . .

- إغراء الكتب. أليس كذلك؟ كان هذا في الماضي. لقد أكلت التفاحة وانتهى الأمر. وعاد الثعبان إلى الشجرة. وتحولت الحديقة إلى أحراش صدئة.

- يوماً ما (تردد «مونتاج» في أن يكمل كلامه) يوماً ما كنت بالتأكيد تعشق الكتب.

- عشقًا وهوى. ملكت الكتب عليَّ نفسي وجوارحي وقلبي وأعماقي. آه، انظر إليّ يا «مونتاج». انظر إلى الرجل الذي يحب الكتب. لا، بل انظر لبيتي الشاب المهووس بالكتب، المسكون بالكتب. ذلك الشاب الذي كان يتسلق أرفف المكتبات كالشمبانزي لكثرة هوسه بالكتب. كنت ألتهم الكتب كما ألتهم السَلطة، كانت الكتب هي الشطائر اللذيذة التي ألتهمها في إفطاري، وفي غذائي وعشائي، بل وفي وجبة منتصف الليل. كنت أقطع الصفحات، ثم ألتهمها بالملح، وأغمسها في المشهيات، وحين أفرغ منها أعض على الغلاف، وألعق الصفحات مرة أخرى بلساني. كتباً بالجملة التهمتها جميعها. كنت أعود إلى المنزل وقد انحنى ظهري تحت كومة من الكتب. كتب في الفلسفة، في الأدب في التاريخ، في السياسة، دواوين شعر، مقالات، مسرحيات. . . كل هذه الكتب التهمتها، وبعد ذلك. . . وبعد ذلك . . . خفت صوت مدير الحرائق.

استعجله مونتاج: وبعد ذلك ماذا؟

- وبعد ذلك جاءت الحياة.

أغمض مدير الحرائق عينيه كي يتذكر:

- الحياة العادية . . . الرتيبة . . . المكررة. الحب الذي لم يكن صائبًا، الحلم الذي أصبح مرًا، الجنس الذي انهار. . . الموت الذي هاجم الأصدقاء قبل الأوان. . . شخص ما تعرفه يموت مقتولاً. . . قريب لك يصاب بالجنون . . . أمك تموت ببطء. . . أبوك ينتحر فجأة. . . قطيع من الفيلة يتدافع مذعوراً. . . أمراض تنتشر. ولم أجد . . . لم أجد الكتاب المناسب للحظة. كنت أبحث عن كتاب لأغلق به الثغرة في ذلك السد الذي يقف في وجه الطوفان.

وبينما أنا في نهاية الثلاثينيات، وعلى مشارف الأربعينيات، أنقذت نفسي، ونجوت بكل عظمة قد كسرت، وكل سنتيميتر من جسدي قد كشط أو تورم أو بدا فيه أثر لجرح. نظرت في المرآة فوجدت رجلاً كهلاً ضاع خلف وجه شاب فزع. ورأيت كرهًا لكل شيء وأي شيء يخطر على بال. فتحت صفحات الكتب في مكتبتي الأنيقة، ولن تصدق ما ذا رأيت؟ ما هذا؟ ما هذا؟ ما هذا؟

خمن «مونتاج»، ثم سأل:

- كانت الصفحات بيضاء؟

- بالفعل! صفحات خاوية! آه، كانت الكلمات موجودة بالفعل، ولكنها كانت تجري فوق عيني كالزيت المغلي، لا دلالة لها على الإطلاق. لم تعطني عونًا ولا راحةً ولا سكنًا، ولا مرسىً، ولا حبًا، ولا فراشًا، ولا ضوءًا.

عاد «مونتاج» بالذاكرة إلى الوراء: «منذ ثلاثين عامًا . . . احترقت آخر المكتبات. . . »

- كنت مستعدًا، وبلا وظيفة، حطام شاب كان رومانسيًا، أو كان - لا أدري ماذا كان ذلك التعس - فتقدمت لوظيفة رجل مطافئ متميز. وكنت بالفعل متميزًا في كل شيء: على السلالم . . . داخل المكتبات . . . في قلوب أبناء وبنات مدينتي . . . قلوبهم المشتعلة كالأفران التي لا تنطفئ. فلتغمرني بالكيروسين، ولتعطني الشعلة في يدي!

كان هذا ختام المحاضرة، فلتتفضل يا «مونتاج»! هاهو الباب فلتخرج.

هنا خرج «مونتاج» وقد امتلأ بفضول أكبر يتعلق بالكتب. كان في طريقه ليصبح من المطاريد، الآن ستلاحقه الشرطة وتحطمه تقريبًا باستخدام الكلب الآلي، نسختي الخاصة من الروبوت الذي ابتكره «إي كونان دويل» و«أسماه وحش بيسكرڤيل الكبير».

في المسرحية يتحدث البروفيسور (الذي لا يعمل بالجامعة) «فيبر» إلى «مونتاج» طوال الليل عبر الأثير من خلال السماعة التي تشبه قوقعة البحر. لكن «فيبر» ينتهي نهاية مأساوية: يشك «بيتي» أن «مونتاج» يتلقى التعليمات من خلال تلك الآلة السرية، فيخلعها من أذنه ويصرخ في الأستاذ عن بعد وهو يقول له:

- سوف نأتي للقبض عليك! نحن على بابك! بل صعدنا سلم بيتك! آه! وقعت في يدي!

يرعب ذلك «فيبر» فيموت من الفزع.

أحداث شيقة! تشدك إليها بعد كل هذه السنين. قاومت بشدة إغراء نشر المسرحية في هذه الطبعة من الرواية.

وأخيراً، فقد كتب لي قراء كثيرون يحتجون على اختفاء كلاريس من المسرحية، ويتساءلون ماذا حدث لها؟ راود هذا السؤال المخرج «فرانسوا تروفاوت» وهو يقدم معالجته السينيمائية للرواية (١٩٦٥)، فقام ببعث «كلاريس» إلى الحياة مرة أخرى وألحقها بالثوار محبي الكتب المطاردين في الغابات، هؤلاء المطاردين الذين أخذوا على عاتقهم حماية الكتب من الزوال عن طريق حفظها عن ظهر قلب. في المسرحية شعرت برغبة مماثلة في بعث «كلاريس»، فعلى الرغم من أنها في الرواية تبدو بلهاء ثرثارة، هائمة في عالم بعيد، فإن الفضل يرجع إليها - إلى حد كبير - في أن «مونتاج» قد بدأ يتساءل عن الكتب وما بداخلها. ولهذا فقد أنهيت المسرحية «بكلاريس» تستقبل «مونتاج» بالترحاب، وبهذا تصبح النهاية أكثر بهجة من تلك النهاية الكئيبة نوعًا للرواية.

أما الرواية فقد تركتها كما هي. فأنا لا أميل إلى التغيير والتبديل في أعمال أي كاتب ناشئ! خاصة إذا ما كان هذا الكاتب الناشئ هو أنا! ففي هذه الطبعة يلتقي القارئ «بمونتاج» و «بيتي» و «ميلدريد» و«فيبرو» «كلاريس» وهم يتحركون ويدخلون ويخرجون بنفس الطريقة التي كانوا عليها منذ ٣٢ عامًا، أي منذ أن كتبتهم للمرة الأولى. كان ذلك في قبو مكتبة جامعة «كاليفورنيا» بولاية «لوس أنجيليس»، على تلك الآلة الكاتبة التي تعمل بالعملات المعدنية: «دايم» واحد لكل نصف ساعة. ومنذ ذلك الحين وحتى اليوم لم أغير فكرة واحدة أو كلمة في هذه الرواية.

يبقى اكتشاف أخير: لقد اكتشفت أنني أكتب كل رواياتي وقصصي باندفاع جارف وحماس مبهج. وقد أدركت مؤخراً -- بينما كنت أقرأ في الرواية -- أنني قد أسميت «مونتاج» على إسم شركة لإنتاج الورق، بينما «فيبر» - كما هو معروف - هو اسم مصنع للأقلام. ياله من اختيار خبيث من عقلي الباطن الذي اختار مثل هذه الأسماء دون أن يشركني معه!

خاتمة

منذ عامين وصلتني رسالة من شابة وقورة من كلية «ڤاسر»، تعبر فيها عن إعجابها الشديد بالتجريب في روايتي «تاريخ المريخ» لكنها أضافت اقتراحًا لي بأن أعيد كتابة الرواية مرة أخرى بعد مرور ذلك الوقت الطويل، بحيث أضيف بعض الشخصيات والأدوار النسائية. وتساءلت: أليست هذه فكرة جيدة؟

قبل ذلك بعدة سنوات وصلتني رسائل كثيرة عن الكتاب نفسه، يشكو فيها القراء من أن السود في الكتاب ما هم إلا نسخٌ مكررة من شخصية «العم توم» ويتساءلون: «لماذا لا أعيد رسم هذه الشخصيات؟»

في الترتيب نفسه تقريبًا وصلتني رسالة أخرى من شخص أبيض من الجنوب يحتج فيها على تحيزي للسود، ويرفض الرواية برمتها!

ومنذ أسبوعين انكشف جبل البريد الخاص بي عن رسالة من ناشر شهير يطلب مني الموافقة على نشر قصتي «بوق الضباب» في كتاب قراءة لطلاب وطالبات المدارس الثانوية. في هذه القصة كنت قد وصفت الفنار بأنه يبعث نوراً في الليل مثل «نور الله» وأنك إذا نظرت إليه من منظور أي مخلوق داخل البحر فسوف تشعر بالتأكيد أنك في «حضرة إلهية». هنا تطوع الناشر بحذف تعبيري «نور الله» و«الحضرة الإلهية».

قبل ذلك بخمس سنوات، قام الناشرون بتجميع مختارات أدبية في كتاب مدرسي آخر يضم ٤٠٠ قصة (تخيل العدد). كيف يستطيع أي إنسان أن يجمع في كتاب واحد ٤٠٠ قصة قصيرة «لتوين»، و«إرفنج»، «وبو»، و«موباسان»، و«بيرس»؟

الحل بسيط جداً. اسلخ القصة، انزع عظامها، أفرغها من النخاع. ضحي. اصهر. اسحق. حطم. احذف كل وصف له معنى، كل فعل يحرك المشاعر، كل استعارة يزيد وزنها عن وزن البعوضة، كل تشبيه من الممكن أن يفهمه أي معتوه فتتحرك تقاسيم وجهه تلقائيًا. واحذف أي استطراد يعبر فيه أي كاتب متميز عن أفكاره.

كل القصص تنكمش، تموت جوعًا، تنزف حبراً حتى تصبح بيضاء وتصير شديدة الشبه بأي قصة أخرى. وهكذا يصبح توين نسخة من «بو»، و«بو» نسخة من «شكسبير»، و«شكسبير» نسخة من «دوستويفسكي»، و يصبح «دوستويفسكي» في النهاية نسخة من «إدجار جيست». يجب أن نَقُصَّ كل الكلمات التي يزيد عدد مقاطعها عن ثلاث مقاطع. ونطلق النار على كل الاستعارات التي يستغرق فهمها أكثر من لحظة.

هل بدأتم ترون معي تلك الصورة البشعة التي لا تصدق؟

كيف تصرفت أنا حيال كل هذا؟

«أحرقت» المشروع برمته!

أرسلت رفضًا لكل منهم!

قطعت لكل من هؤلاء المعتوهين تذكرة كي يذهب إلى الجحيم.

المسألة واضحة. هناك أكثر من طريقة لحرق الكتب. والعالم مليء بأناس يهرولون في كل مكان وفي أيديهم أعواد ثقاب.

كل الأقليات، سواء كان أصحابها معمودين أم موحدين أم أيرلنديين أم إيطاليين أم ثمانيين أم بوذيون يابانيين أم صهاينة أم مبشرين باليوم السابع أم منادين بحرية المرأة، أم جمهوريين، أم ماتاشيين، أم أتباع كنيسة المربعات الأربع . . . يشعر كل فرد من أفراد هذه الأقليات بأن لديه العزيمة والحق بل وعليه مسئولية أن يسكب الكيروسين ويشعل النيران في كتب الآخرين. ويرى بعض الناشرين أنفسهم مسؤولين عن إنتاج ذلك العجين الكئيب من الأدب الذي لا طعم له. فيجهز المقصلة وعينيه على رقبة أحد الكتاب ممن تجرأوا وكتبوا شيئًا أعمق من أغاني الأطفال.

ويحكي كابتن «بيتي» مدير الحرائق في «فهرنهايت ٤٥١» عن تاريخ حرق الكتب، وكيف بدأ الأمر بالأقليات يقطع أفرادها صفحة أو مقطع من هذا الكتاب أو ذاك، حتى جاء اليوم الذي صارت فيه الكتب خاوية، والعقول مغلقة، وأوصدت المكتبات أبوابها إلى الأبد.

«اغلق الباب، سيدخلون من النافذة. . . وإن أغلقت النافذة، سيدخلون من الباب» هذه كلمات أغنية قديمة، أجدها تنطبق على حياتي في وجود أولئك الجزارين/ المراقبين الجدد يقتحمون علي حياتي مرة كل شهر.

منذ ستة أسابيع فقط، اكتشفت أن دار نشر «بالانتين بوكس» قد قامت بحذف ٧٥ مقطعًا من أماكن متفرقة من الرواية، حرصًا منها على عدم تلويث عقول الصغار. كتب لي بعض الطلاب الذين قرأوا هذه الطبعة من الرواية يخبرونني بتلك المفارقة، حيث إن موضوع

رواياتي هو مصادرة الكتب وحرقها في المستقبل! بعد ذلك قام «لين ديل ريي» - أحد المحررين في تلك الدار - بإعادة الرواية كما كانت، وقام بنشرها هذا الصيف بعد أن أعاد إليها كل الشتائم واللعنات.

وأخيراً مرت حرية الإبداع باختبار جديد عندما أرسلت منذ شهر مسرحية بعنوان «لي ڤياثان ٩٩» إلى إحدى الجامعات. تقوم هذه المسرحية على ميثولوجيا رواية «موبي ديك» و وهي مهداة لكاتبها ميلڤل. تدور الأحداث عن طاقم رواد فضاء يقومون برحلة لتدمير نيزك أبيض رهيب يوشك أن يدمر الأرض. وعلى الرغم من أن هذه المسرحية تعرض حاليًا في باريس، فإن مسؤولي الجامعة قد أرسلوا خطابًا يقولون فيه إنهم لم يجرءوا على تقديم المسرحية لأنها ليس بها دور نسائي واحد. وأضافوا أنهم لو كانوا قد فعلوا، لقامت السيدات المنتميات لحركة «تعديل الدستور من أجل المساواة في الحقوق» ERA برشقنا بالحجارة داخل الحرم الجامعي.

أخذت أعض على أنيابي حتى خيل لي أنها انسحقت. أدركت أن معنى ما حدث هو أننا من الآن فصاعداً لن نرى أي عرض لمسرحية «شباب في الفرقة» (ليس بها شخصيات نسائية) ولا لمسرحية «النساء» (ليس بها رجال). وربما أصبح لزامًا علينا أن نعد الرءوس في مسرحيات شكسبير لنحصي نسبة الرجال للنساء، وبناء عليه لن نشاهد أية مسرحية لشكسبير -- خاصة إذا ما أحصينا أبيات الشعر، وأدركنا أن أجمل أبيات شكسبير قد قالها رجال!

كتبت للجامعة أقترح أن يعرضوا مسرحيتي أسبوعًا، ومسرحية «النساء» الأسبوع الذي يليه، وهكذا بالتناوب! من المؤكد أنهم اعتقدوا أنني أمزح، وفي الحقيقة أنا لست متأكداً ما إذا كنت أمزح أم لا.

إنه عالم مجنون، وبالتأكيد سيصبح أكثر جنونًا إذا سمحنا للأقليات بالتدخل في الإبداع - سواء كان هؤلاء أقزامًا أم عمالقة، قرودًا أم حيتانًا، مؤيدين للرءوس النووية أم داعين للحفاظ على قطرة الماء، مدمنين للكمبيوتر أم مناهضين للتكنولوجيا الحديثة، عقلاء أم سفهاء.

وليكن الواقع هو الساحة الحقيقية لكل من هذه الجماعات حيث تسن القوانين أو يتم إلغائها. أما طرف أنف كتابي فهو النقطة التي تنتهي عندها حرياتهم وتبدأ مملكتي أنا حيث أكون الآمر الناهي. ولو لم يعجب كتابي البلهاء فليكتبوا ما يعجبهم. ولو كره الأيرلنديون قصصي عن دبلن، فليستأجروا آلة كاتبة، وليكتبوا ما يشاءون.

دعونا نكون صرحاء. فالاستطراد والتفاصيل هي ما تجعل الكتابة شيقة ومميزة. فإذا ما حذفنا التعليقات الجانبية الفلسفية من الحوارات في أعمال «دانتي» أو «ميلتون»، أو من حديث الشبح أبي «هاملت»، فلن يتبقى لدينا إلا عظامًا جافة. وكما قال «لورنس ستيرن»: «الاستطراد هو الشمس المشرقة، الحياة، الروح في جسد القراءة! إذا ما نزعتها لن يتبقى لك سوى شتاء بارد أبدي يخيم على كل صفحات الكتاب. أما إذا ما أبقيت عليها فسوف يخطو الكاتب كالأمير ليلة عرسه، يلوح بيده للجميع ويدخل البهجة فيصبو إليه الجميع».

وأخيرًا. لا تهينوني بقطع رأسي، وتكسير أصابعي، وتفريغ رئتي من الهواء. فأنا في حاجة إلى رأسي كي أحركها أو أهزها، وإلى أصابعي كي ألوح بها أو أجعل منها قبضة ضاربة، وإلى رئتي كي أصرخ أو أهمس في أذن أي منكم. لن أقبع هادئًا فوق أحد الأرفف بعد أن يستأصلوا أمعائي، لن أتحول أبدًا إلى كتاب بغير كتاب!

فيأيها القضاة عودوا إلى المدرجات. ويأيها الحكام استريحوا.

فـاللعبـة لعـبتي، أنا من سيلعب الكرة، وأنا من سـيلتـقطهـا، وأنا من سيخـترق. وعند غروب الشـمس سوف نرى ما إذا كنت قد فزت أم خسرت. وعند شروق الشمس سأعود إلى الملعب لأحاول ثانية، ولن يملك أحد منكم أن يساعدني. ولا حتى أنتم أيها الحكام.

حوار مع راي برادبري

د. ر[*] : تحتفل في هذا العام باليوبيل الذهبي لروايتك «فهرنهايت ٤٥١» أي بمرور خمسين عامًا على نشرها. هل كنت تعلم وأنت تكتبها أنك ستقدم شيئًا مميزاً؟ أم إنك فوجئت برد فعل الجمهور والنقاد؟

ر. ب : رد الفعل لم يأت بين يوم وليلة، وإنما أتى على مدار الخمسين عامًا، وشعرت به بالتدريج. كانت دار نشر بالانتين قد أصدرت نسخة بغلاف مقوى، وأخرى بغلاف عادي في اليوم نفسه من أكتوبر عام ١٩٥٣، وأذكر أن النسخة ذات الغلاف المقوى بيع منها حوالي خمسة آلاف نسخة. وليس هذا بالرقم الهائل. صحيح أنه كان هناك بعض المقالات النقدية، لكنها أيضًا لم تكن كثيرة العدد. كان هناك أيضًا استجابات متفرقة من بعض الكتاب، مما أسعدني للغاية. ولكني لم أدرك وقتها أنني كتبت شيئًا سيظل حيًا لفترة طويلة. النسخة ذات الغلاف العادي حققت مبيعات أعلى،

(*) الأحرف الأولى للناشر الأمريكي للكتاب «دل راي».

حوالي ٥٠ ألف نسخة في السنة، لكنها أبدًا لم تكن من أعلى الكتب مبيعًا.

د. ب : متى بدأت تدرك أن للكتاب قدرة على البقاء على مر السنين؟ وأنه في الحقيقة قد أصبح عملاً كلاسيكيًا؟

ر. ب : فقط في السنوات القليلة الماضية. تزامن هذا مع زيادة اهتمام المدن وتعدد برامج القراءة التي ينظمها العُمد أو المكتبات. عندما رأيت أن الكتاب يوزع على سكان مدن بأكملها لقراءته ومناقشته، أدركت أنني كتبت شيئًا هامًا.

د. ر : بالتأكيد كان فيلم «تروفاوت» علامة أخرى، وذلك عندما عرض عام ١٩٦٦ . . .

ر. ب : الفيلم كان سلاحًا ذا حدين. فهو لم يلتزم بالرواية كما كان ينبغي. إنه فيلم جيد، ونهايته رائعة، ويقوم بالعمل فيه ممثلون ممتازون، وألف له «برنارد هرمان» موسيقى تصويرية عظيمة، كما كان «أوسكار ڤرنر» رائعًا في دور البطولة. لكن بروفاوت أخطأ خطأ كبيرًا في أنه جعل «جولي كريستي» تلعب دورين مختلفين في الفيلم، مما أحدث خلطًا. كذلك لم يكن موفقًا في حذف بعض الشخصيات مثل: «كلاريس ماكليلان»، و«فيبر الفيلسوف»، والكلب الآلي. أقصد لا يمكن أن تقوم الرواية دون هذه الشخصيات.

د. ر : بالفعل. أنا أذكر أني كنت محبطًا جدًا عندما شاهدت الفيلم ولم أجد الكلب الآلي.

ر. ب : هناك فيلم جديد يتم العمل فيه في وقت ما من العام المقبل.

سوف ينتجه «ميل جبسون»، ويقوم بإخراجه «فرانك دارابونت» مخرج فيلم «خلاص الشوشانك». «فرانك» شخص رائع ومخرج متميز لهذا فأنا مشتاق للغاية إلى فيلمه «فهرنهايت ٤٥١».

د. ر : وأنا أيضًا. هل تعلم مَنْ سيقوم بالتمثيل في هذا الفيلم؟

ر. ب : لا، فهذا شيء سابق لأوانه.

د. ر هل صحيح أن بداية نشر «فهرنهايت ٤٥١» كانت في مجلة «بلاي بوي».

ر. ب : لا، وإنما نشرت في مجلة «جالاكسي» في فبراير ١٩٥٠، في صورة مصغرة (٢٥ ألف كلمة) وكان عنوانها: «رجل المطافئ». بعد ذلك جاءني مدير نشر «بالانتاين» وطلب مني إضافة ٢٥ ألف كلمة أخرى، ففعلت. وبعد ذلك، وفي نهاية عام ١٩٥٣ جاءني محررو «بلاي بوي» وطلبوا مني أن أبيعهم شيئًا مما كتبت. لم تكن معهم أية نقود حيث كانوا لا يزالون مبتدئين. سألوني إذا ما كان لدي شيء أبيعه لهم مقابل أربعمائة دولار فعرضت عليهم «فهرنهايت ٤٥١». أعطوني الأربعمائة دولار، وقاموا بنشر القصة في الأعداد الثاني والثالث والرابع من المجلة.

د. ر : كان عليهم أن يدفعوا في مثل هذه القصة على الأقل أربعمائة وواحدًا وخمسين دولارًا!

ر. ب : صحيح (يضحك)

د. ب : لقد قرأت «فهرنهايت ٤٥١» في المدرسة كالكثيرين من

الناس. لكنني عندما قرأتها مرة أخرى الأسبوع الماضي، تعجبت من دقة مطابقة عالمها التخيلي المستقبلي للواقع الحالي. في رأيي أن هذه الرواية تمتاز على رواية أورويل «١٩٨٤» ـ التي عادة ما تقارن بها ـ بأنها تتنبأ بالمستقبل.

ر. ب : كان «أورويل» يركز على الشيوعية، عن فقدان الثقة بها كخيار بالنسبة لروسيا. كذلك كتب عما فعله الشيوعيون في إسبانيا. كانت الرواية إذن رد فعل لمواقف سياسية، أما أنا فكنت مهتمًا بما هو أبعد من المناخ السياسي. كنت أود أن أتناول المناخ الإجتماعي كله: أثر التلفزيون والراديو، وغياب التعليم. كنت أستطيع أن أرى ما حدث بالفعل في المدارس حيث توقف المدرسون تقريبًا عن تدريس القراءة. والواقع أنه كلما تضاءل تدريس القراءة كلما انتفت الحاجة إلى الكتب.

د. ر : في الحقيقة أن بصيرتك كانت نافذة جدًا فيما يتعلق بالواقع الاجتماعي، ليس فقط لتحقق نبوءات التلفزيونات المجسمة، وانتشار الإنترنت في كل مكان، ولكن كانت هناك أيضًا رؤية صائبة فيما يتعلق بالسياسة: وذلك نظرًا للشبه الشديد بين الولايات المتحدة التي تخيلتها في روايتك، وبين الولايات المتحدة اليوم. ففي الكتاب، تخوض البلاد حربًا غامضة لا تتوقف، وتحلق الطائرات النفاثة القتالية طوال الوقت فوق الرءوس. العالم يكرهنا، وليس لدينا تفسير لذلك. ويري البعض أن ما رسمته في روايتك يعكس تمامًا

الوضع الحالي. فالبلاد في حالة حرب مفتوحة النهاية ضد الإرهاب والصراع المسلح في أفغانستان والعراق في ظل معارضة عالمية واسعة لتلك الحرب. فهل ترى أن البلاد تقترب من تلك الصورة المتخيلة لأمريكا، والتي رسمتها منذ خمسين عامًا مضت؟

ر. ب : لا، لا أعتقد ذلك. المشكلة الحقيقية في رأيي تكمن في التعليم وليس في السياسة. فالمدرسون في بلدنا يجب أن يتلقوا تدريبًا يؤهلهم لتدريس القراءة والكتابة في مرحلة الحضانة واالسنة الأولي من المرحلة الإبتدائية. عندما ينتقل الأطفال للسنة الثانية الإبتدائية، يجب أن يتمكنوا من القراءة والكتابة، كما كان الأمر بالنسبة لأجيال أخرى. كنت في السنة الأولى من التعليم الابتدائي عام ١٩٢٦، وكان مدرسيني فقراء لا يزيد دخلهم عن ثمانمائة دولار في العام، لكنهم كانوا يعلمون الأطفال القراءة والكتابة بنهاية السنة الأولى، لم يكن للدولة دخل في هذا. والآن يجب أن يحدث إصلاحًا في نظام التعليم.

د. ر : لا يزال دخل المدرسين ضعيفًا.

ر. ب : ليس للأمر علاقة بالدخل. فإما أنك تحب عملك أو لا تحبه. اسمع: أنا ظللت أكتب لسنوات دون أن أحصل على مقابل، لكن حبي لعملي ظل يدفعني طوال هذه السنوات. كنت أبيع الجرائد على زاوية الطريق، وأحصل على عشر دولارات في الأسبوع، وعندما بدأت أكسب عشرين دولارًا

في الأسبوع من بيع القصص، تركت بيع الجرائد. فإما أنك تحب ما تقوم به أو لا تحبه.

د. ر : أحد الأشياء الهامة التي ينساها الناس في رواية «فهرنهايت ٤٥١» هي أن الدولة لم تبدأ بإحراق الكتب، وإنما الناس هم الذين انصرفوا عن القراءة وما يترتب عليها من تفكير وتأمل. ولذلك عندما بدأت الدولة بالفعل في مصادرة الكتب، لم يعبأ الناس بالأمر. في رأيك ما أهمية القراءة للحفاظ على ازدهار الديمقراطية التي نعيشها؟

ر. ب : دعنا نفترض حدوث زلزال تسبب في تدمير الجامعة في إحدى المدن. إذا افترضنا أننا نستطيع ترميم مبنيين فقط، هما الأساسان لإحياء بقية المباني، فما هما هذان المبنيان؟ رقم واحد سوف يكون المركز الطبي، لأنك تحتاجه كي تساعد الآخرين على الحياة، وعلى التئام الجروح والشفاء من الأمراض. أما المبنى الثاني في رأيي فهو المكتبة، فهي تجُب بقية المباني. يستطيع الناس أن يدخلوا المكتبة ويحصلوا على الكتب في أي من المجالات - أدب، اقتصاد، سياسة، هندسة - ثم يستعيروا الكتب ويجلسوا ليقرؤها. فالقراءة مرتكز حياتنا، والمكتبة هي عقولنا التي نفكر بها. وبدونها لن تكون لنا حضارة.

د. ر : من وجهة نظرك ما أخطر أشكال الرقابة والمصادرة التي نراها اليوم؟

ر. ب : هناك أشكال كثيرة في بلادنا. فلدينا من الجماعات

والأقليات ما يشكل أرضًا خصبةً للمنع والمصادرة. لدينا الكاثوليك، واليهود، والبروتستانت، والجمهوريون، والديمقراطيون، وأنصار حقوق المرأة، والسحاقيون، والمثليون، وثنائيو الجنس، والشباب والكهول. . . ونحن جميعًا نراقب بعضنا بعضًا، ولهذا فلا مجال للرقابة. ولكن المشكلة الحقيقة في ذلك الأحمق التلفزيون. إذا كنت تواظب على مشاهدة الأخبار المحلية، فإنك بالتأكيد سوف تصاب بالبلاهة.

د. ر : يبدو أن هناك تدهورًا في مستوى الحيادية الاخبارية إذا ما أردنا المجاملة في التعبير.

ر. ب : ليس فقط المضمون، وإنما أيضًا الأسلوب. مشكلة التلفزيون والسينما تتلخص بالنسبة لي في فيلم «مولان روج» الذي عرض منذ سنوات قليلة وحصل على العديد من الجوائز. يوجد في هذا الفيلم ٤٦٥٠ مشهدًا مدة الواحد منها نصف دقيقة. الكاميرا لا تهدأ ولا تتوقف، وهي بالتالي تعصف بعقلك ولا تدع لك أي مجال للتفكير. أي إعلان تلفزيوني مدته ستون ثانية يحتوي في المتوسط على مائة وعشرين مشهدًا مدة كل منها نصف أو ثلث دقيقة. نحن نقذف الناس بالأحاسيس، ونحاول أن نجعل منها بديلاً للتفكير.

د. ر : ولكنك تنبأت بهذا كله في الخمسينيات، فالشخصيات في «فهرنهايت ٤٥١» تدمن شاشات التلفزيون . . .

ر . ب : هذا صحيح .

د . ر : ما الأفكار الأخرى التي اعتمدت عليها في رسم تلك الصورة التخيلية للعالم في المستقبل؟

ر . ب : من الصعب تحديد ذلك . لقد كتبت هذا الكتاب لأنني أحب الكتابة . وكل كتبي خرجت من تفجر في المشاعر والأفكار ، لهذا أجده من الصعب أن أعود بالذاكرة وأحلل كل ما تضمنه ذلك التفجر . لكني أذكر جيداً عندما كنت طفلاً في الثانية عشرة من العمر ، كانت هناك مسرحيات إذاعية تنشر في الجرائد ، وتتم إذاعتها بحيث يترك الممثلون مساحات من الصمت في الحوار كي يستطيع المستمعون لعب أحد الأدوار بينما هم يتابعون العرض . وقد أوحى لي ذلك بأحد الأفكار الموجودة في عالم المستقبل الذي رسمته في «فهرنهايت ٤٥١» .

د . ر : في الخاتمة الملحقة بالرواية كتبت أن «مونتاج» و«كلاريس» و«بيتي» وغيرهم من شخصيات «فهرنهايت» لا يزالون يأتون إليك ويتحدثون معك بعد نشر الكتاب بسنوات طويلة . هل يحدث ذلك مع كل شخصيات كتبك؟ وإلى أي مدى تلح هذه الشخصيات عليك وتلاحقك؟

ر . ب : نعم . . . آه . . . نعم . أنا أسمح لهم بالتحدث! لا أحكم سيطرتي عليهم . أنا فقط أعطيهم المنبر وأتركهم يتكلمون . كل قصصي الجيدة تحكيها لي الشخصيات . أنا لا أكتب قصصي . وإنما هي التي تكتبني .

د. ر : هل تخطط لقصصك مقدمًا؟

ر. ب : إطلاقًا، أنا أعيش القصص.

د. ر : أذكر أني استمعت لإحدى الكاتبات ذات مرة وهي تتحدث عن شخصيات أعمالها، كانت تقول أنها هي المديرة، وأن الشخصيات مجرد عرائس تحركها بيديها: تذهب الشخصيات إلى المكان الذي تختاره لهم، وتفعل بالتحديد ما تأمرها هي به.

ر. ب : لا يستطيع أحد أن يفعل ذلك. هذه كتابة رديئة. يجب أن تكتب الشخصيات مصيرها بنفسها، بل وتتحكم في الكاتب نفسه. هم في الحقيقة يكتبونني، ويخططون لي، وليس العكس. لا أتحكم فيهم، وإنما أترك لهم زمام حياتهم.

د. ر : هل تخيفك أحيانًا هذه الثقة العمياء في شخصياتك؟

ر. ب : على العكس، فهي متعة حقيقية. أنا أحب شخصياتي، وأثق فيهم تمامًا.

د. ر : يتساءل الكثير من القراء عن مصير «مونتاج» بعد نهاية الرواية. وقد ضمنت بعض الإشارات عن حياته ـ مثل تتبعه للحريق النووي الذي دمر المدينة ومعظم مناطق الريف من حولها ـ لكن هل فكرت في كتابة جزء ثاني.

ر. ب : لا، فأنا دائمًا أترك للشخصيات إنهاء قصتهم في الوقت الذي يختارونه. وقد كتبت مسرحية وأوبرا تقوم على «فهرنهايت ٤٥١» تذهب فيها الشخصيات أبعد قليلاً من نهاية الرواية، ولكن تتفق الأعمال الثلاث تقريبًا على

الخطوط العريضة للنهاية وهي أن الحضارة تقوم من جديد بفضل ذاكرة من يحفظون الكتب.

د. ر : وما ذا إذا نادى عليك «مونتاج» قائلاً: مستر «برادبري». قصتي لم تنته بعد. عليك أن تكتب جزءًا ثانيًا.

ر. ب : أعتقد أن هذا جائز، ولكنه نادر الحدوث. حاليًا أكتب جزءًا ثانيًا من رواية «خمور الهندباء» بعد مرور أربعين عامًا على صدورها. لكنني ما زلت أعمل في هذا الجزء الثاني، وهو يأبى أن أنتهي منه، ولا أدري في الحقيقة إن كان سوف ينتهي في يوم من الأيام أم لا.

د. ر : لماذا تستغرق منا بعض الأشياء وقتًا طويلاً؟

ر. ب : لا أدري. نفسي الخفية لا تطلعني على السبب.

د. ر : حققت قصصك نجاحًا باهرًا وحصدت الجوائز سواء كانت في مجال الألغاز، الخيال العلمي، الأساطير، الرعب، أم في مجالي السينما والتلفزيون. ولكن ما النوع المفضل لديك من كل هؤلاء؟

ر. ب : أحب كل الأنواع. بل أحب كتابة المقالات، ولي ديوان شعر ضخم جديد صدر منذ ستة أشهر بعنوان: «لا لم يروا النجوم». وفي نهاية الشهر سوف تعرض لي ثلاث مسرحيات هنا في «لوس أنجيليس».

د. ر : ما أقرب كتبك أو شخصيات كتبك إلى قلبك؟

ر. ب : جميعهم. كلهم أولادي. عندما تحب أحدًا، فإنك

د.ب : تتصرف معه بعاطفة قوية، وهذا ما حدث مع كل كتبي.

ر.ب : حتى لو كانت الشخصية شريرة مثل «بيتي» في «فهرنهايت ٤٥١».

د.ر : بالتأكيد. فمن الضروري أن نتفهم كيف اتجه «بيتي» إلى إحراق الكتب. كان «بيتي» قارئًا للكتب، لكن كانت هناك أحداث مؤسفة في حياته ـ ماتت أمه بالسرطان، انتحر أبوه، وفشلت قصة حبه ـ فتح الكتب كي تعينه على تلك المصائب، فوجدها خالية. لم تستطع أن تساعده فبدأ في إحراقها.

ر.ب : قد يبدو هذا السؤال غريبًا. ولكن في مرة من المرات وصفت نفسك بالساحر، فهل تعتقد بوجود السحر في العالم؟

د.ر : هذا يعتمد على ما تقصد بكلمة العالم.

ر.ب : ما الذي تعنيه الكلمة من وجهة نظرك؟

د.ر : من خلال عشقي للكلمات والأفكار و التشبيهات، أستطيع أن أقنعك بأي شيء. وهذا ما يفعله الساحر. يستطيع أن يجعل فيلاً يختفي من فوق المسرح. وأنا أيضًا أستطيع أن أجعل عالمًا كاملاً يظهر أويختفي من القصة. أستطيع أن أجعل الديناصورات تقع في غرام الفنارات. وهذا هو السحر بعينه.

ر.ب : أحد الأفكار الثابتة في أعمالك على مر السنين هي أهمية الأشخاص والأشياء البسيطة في تغيير العالم . . . مثل «ناس الكتب» الذين يظهرون في الجزء الأخير من «فهرنهايت

٤٥١». في رواياتك دائمًا ما يكون هناك أمل في المستقبل، لكن تحقيق ذلك الأمل ليس بالشيء الهين.

د. ر : أنا أعتقد أن الإنسان إذا قام بعمله كل يوم، فإنه في نهاية الأسبوع، أو الشهر، أو العام سوف يشعر بالرضا عما قام به. ويكون هذا الرضا مبنيًا على الواقع وليس على مجرد مفهوم مغلوط عن التفاؤل. ولذا فإذا أحسنت العمل، أو أحسنت الكتابة كل يوم فإنك في نهاية العام سوف تشعر بالرضا عن نفسك.

ر. ب : أليس هناك شيء أمريكي أصيل وراء وجهة النظر هذه؟ وهل ترى نفسك ككاتب أمريكي؟

د. ر أنا لا أحب هذه التسميات، فأنا قد تأثرت بكل الكتاب الأيرلنديين: «جورج» «برنادر شو»، «شون أوكاسي»، «ويليم باتلر ييتس». . . ومن إنجلترا تأثرت «بتشارلز ديكنز».

ر. ب : صحيح أني مدين للكثير من كتاب القرن التاسع عشر في الولايات المتحدة من أمثال هيرمان ميلڤل، وإدجار آلان بو. ولكن لا توجد بداخلي شخصية أمريكية خالصة.

د. ر : في مقدمة كتاب: «ريي برادبري: حياة بالصور» ذلك الكتاب الرائع الذي أمضيت ساعات مستغرقًا في قراءته. . . نعم. إنه فعلاً كتاب غير عادي.

ر. ب : رائع فعلاً. في المقدمة، كتبت عن أهمية الاستعارة في

د. ر   كتبك، وشبهت حياتك بأنها: «حركة متواصلة أو رقصة».
ر. ب   فهل ترى منبع هذه التشبيهات في السر الذي تحاول كتبك
د. ر   الكشف عنه، أم أن عملية الكتابة هي عملية احتفال بهذا
ر. ب   السر؟
إنها بالفعل احتفال مستمر. ففي نهاية الحياة، ستنظر إلى
د. ر   الوراء، وتتأمل ما فعلت. مثلي الأعلى هو المخرج الإيطالي
ر. ب   فريدريكو فيلليني. كنا أصدقاء منذ خمس وعشرين عامًا.
د. ر   عندما قابلته للمرة الأولي، أخذ يحتضني وهو يبكي
ر. ب   ويقول: «توأمي! توأمي!» لكنه عاش بالمبدأ الآتي: «لا تحكي
د. ر   لي عما أفعل، فأنا لا أريد أن أعرف!» لم يجلس أبدًا ليتأمل
أفلامه بينما هو يقوم بإخراجها، لم يعبأ بقراءة الجرائد اليومية
وهو يعمل في أي من أفلامه. فقط عندما ينتهي من أحدها
يجلس وأمامه جهاز العرض ويشاهد ما صنعه. أنا أفعل نفس
الشيء. فأنا لا أحب مراقبة نفسي.
ر. ب   هل هناك أي عمل مشترك بينك وبين فيلليني؟
تمنيت ذلك، لكن لم يحدث.
عندما تراجع تاريخك الفني؟ ما أكثر شيء يصيبك بالدهشة؟
كل شيء يدهشني! فأنا عشت حياة عظيمة. وكنت سعيد
د. ر   الحظ إلى أقصى درجة.
ر. ب   ما الذي ما زلت تطمح أن تحققه ككاتب؟
أريد أن أكتب «أوبرا».
هل ما زلت تكتب كل يوم؟

كل يوم ولمدة سبعين عامًا.

اخترنا سؤالين من أسئلة القراء و المدرسين التي أرادوا أن يوجهوها لك. سأبدأ بسؤال المدرسين: «ما الذي يستطيع أن يفعله المدرسون وأولياء الأمور ليغرسوا حب اللغة في الصغار ويحملوهم على تقدير قيمة الكلمة في عصر تتعاظم فيه قيمة الصورة كل يوم؟

د. ر (يضحك) قدموا لهم كتابًا. هذا كل ما عليكم أن تفعلوه: خيال علمي، أساطير. . كتبي غيرت من حياة الكثيرين. كتبي مملوءة بالاستعارات والتشبيهات، ولكنها في الوقت نفسه تحمل مفاهيم فكرية.

ما الكتب التي وقعت في غرامها وأنت صغير؟

ر. ب سلسلة كتب أوز. «طرزان وجون كارتر»، «سيد الحروب في المريخ» لبروز. . . مؤلفات جولز ڤرن في مرحلة ما من حياتي. . . «إدجار آلان بو» عندما كان عمري تسع سنوات، «وإتش. جي. ويلز» الذي تميز بالغرور الشديد لكن كتبه كانت شيقة للغاية. على أية حال عند سن السادسة عشر يصاب الكثيرون بالغرور وتصبح كتابات «ويلز» مناسبة بل وضرورية.

د. ر وأخيراً، اسمح لي أن أسألك السؤال الذي اخترناه منّ أسئلة القراء: «لماذا اخترت أعمالاً بعينها ليحفظها «ناس الكتب» في آخر الرواية؟ لقد أعجبني اختيارك «لإنجيل لوقا» كي يتم حفظه، لكن ذلك غير موجود بالفيلم.

ر. ب

لماذا «لوقا»؟ لا أعرف. لقد نشأت في جو الكنيسة المعمودية، لذا فأنا على دراية بهذه الكتب المقدسة جميعها. لكني في الحقيقة لم أختر أي منها، وإنما عقلي الباطن هو الذي يختار.

نفسك الخفية التي حدثتني عنها منذ قليل؟

أجل. وإذا اخترت أن تصبح كاتبًا، عليك أن تؤمن بتلك النفس الخفية، وإلا فلتعتزل الكتابة.

عن المؤلف

نشر راي برادبري أول قصة من تأليفه بعنوان «حكايات غريبة» بينما كان عمره واحداً وعشرين عامًا، ومنذ ذلك التاريخ نُشر لـ«برادبري» حوالي خمسمائة عمل أدبي ما بين قصة قصيرة، ورواية، ومسرحية، وقصيدة. كذلك ظل «برادبري» لسنوات طويلة يكتب حلقات في المسلسل التليفزيوني «ألفريد هتشكوك يقدم»، كما كتب السيناريو والحوار للفيلم السينمائي «موبي ديك» لمخرجه «جون هستن».

بالإضافة إلى ذلك، أنتج «برادبري» مسرحيتين من تأليفه، كما كتب مسرحيتين استعراضيتين، وأغنيات عن عصر الفضاء بالتعاون مع «لالو شيفرين»، و«جري جولد سميث». شارك« برادبري» أيضًا في إعداد فيلم للرسوم المتحركة بعنوان «إيكاروس مونتجولفر رايت»، والذي رُشح لجائزة الأكاديمية عام ١٩٦٢ .

شغل «برادبري» منصب مستشار للأفكار في جناح الولايات المتحدة في معرض نيويورك العالمي عام ١٩٦٣ . كما ساهم في تصميم إحدى ألعاب عالم ديزني، وهو أيضاً يعمل مستشاراً في مجال تصميم المدن والمواصلات السريعة. وقد قام رواد الفضاء في إحدى رحلات سفينة «أبوللو» بتسمية إحدى الحفر على سطح القمر باسم حفرة الهند نسبة إلى رواية «برادبري» (خمور الهند) وأخيراً فقد حققت روايته

(شيء ما خبيث يأتي من هذا الاتجاه) نجاحًا ساحقًا في السينما، بينما رُشح برنامجه التليفزيوني (مسرح راي برادبري) لتسع عشرة جائزة، وحصل بالفعل على سبع جوائز.

عن المترجمة

ماجدة منصور حسب النبي أستاذة مساعدة في الأدب الإنجليزي بقسم اللغة الإنجليزية في كلية البنات، جامعة عين شمس. لها أبحاث منشورة في مجالي «أدب ما بعد الاستعمار» و«الأدب المقارن» في مجلات محلية ودولية. وهي أيضًا مستشارة في مجال التربية والتعليم لها إسهامات عديدة في تدريب المعلمين على طرق التدريس الحديثة. للمترجمة ثلاثة كتب أخرى مترجمة إلى العربية عن مؤلفات صدرت بالإنجليزية هي «شكسبير» و«البلورات والأحجار الكريمة» و«التكنولوجيا». والمترجمة تهتم بشكل خاص بترجمة الأدب الإنجليزي إلى اللغة العربية وقد قامت بترجمة مختارات من الشعر الأمريكي، نشرت في مجلة الألسن للترجمة.

المحتويات

«تحمل مضامين مرعبة. . . إنه مبهر حقًّا ذلك العالم المجنون الـذي رسمه «برادبري»، والذي يدق أجراس الخطر لكونه يحمل ملامح كثيرة من عالمنا».

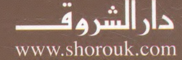
نيويورك تايمز

هـذه الروايـة لاقت نجاحًـا عالميًّـا، ووزعت أكثر مـن خمسة ملاييـن نسخة. «فهرنهايت ٤٥١» هي رائعـة راي برادبري التي كتبهـا عن الرقابة والتحـدي، و لا تزال شهرتها اليوم مدوية كما كانت منذ خمسين عامًا مضت.

«كان النظام واضحًا، ويفهمه الجميع. الكتب يجب أن تحترق، وكذلك البيوت التي تخبئ الكتب».

«جـي مونتاج» رجل مطافـئ، كانت مهمته أن يشعـل النيران. كان «مونتاج» يستمتـع بوظيفته التي ظل يعمل بها
كان واثقًـا مـن المتعة التي يستشعرها وهـو ينـ
منتصف الليل، أو يرى صفحات الكتب تأكلها النـ
من كل شـيء إلى أن التقى بفتاة فـي السابعة عـ
حكـت له عن ماض عاش الناس فيه باطمئنان.
جامعـي حكى له عـن مستقبل سوف يفكر فيـه
هنا أدرك «مونتاج» ما يجب أن يفعله. . .

6 221102 023436



www.shorouk.com